30

قضيّة النساء

جيزيل حليمي - جرمين غرير - كيت ميليت
شولاميت فايرستون - آني وآن وجاكلين ومَاي

ترجمة: جورج طرابيشي



قضية النساء

جيزيل حليمي - جرمين غرير - كيت ميليت
شولاميت فايرستون - آني وآن وجاكلين وماي

ترجمة:
جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

قضية النساء

ص.ب ١١١٨١٣
بيروت ـ لبنان

الطبعة الاولى
كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨

ملاحظات تقديمية

● ما دامت القضية «قضية النساء» ، فالنساء هن خير من يرافع عنها . ولهذا لا تضم هذه المجموعة من المقالات والدراسات سوى اسماء نسائية .

● هذا الاختيار قد تحدد أيضا باعتبار آخر : فلئن كان صحيحا المبدأ القائل ان تحرر المضطهَدين يجب ان يكون من صنع المضطهَدين انفسهم ، فصحيح ايضا بكل تأكيد ان تحرر المضطهَدات يجب ان يكون من صنع المضطهدات انفسهن . وكما في الثورات جميعا ، كذلك في الثورة النسوية : فالهدف هو **التحرر** ، لا **التحرير** .

● بعد كل الابتذال الذي أحاق بـ «الجديد» حتى صار يصعب تمييزه عن القديم والساري المفعول ، تتميز هذه المجموعة من المقالات والدراسات بأنها **جديدة** حقا . جديدة بكل ما في الكلمة من معنى . جديدة بما تطرحه ، وجديدة بالكيفية التي تطرحه بها . بل هي جديدة حتى في لغتها ، لان بنية اللغة كانت حتى اليوم بنية مذكرة . والشيء المؤسف حقا ان الترجمة ــ التي هي

بالتعريف خيانة ــ تعجز عن نقل التجديد اللغوي . ومع ذلك ، فان في وسع القارىء ــ او القارئة ــ ان يشم بين الحين والآخر في النص المترجم رائحة التجديد في النص الاصلي .

● الجديد ، بحكم من أنه جديد ، لا يفلح في التعبير عن نفسه تعبيرا ناجزا نهائيا . فقدر من التخبط والالتباس والتناقض والشطط محتوم . وبخاصة الشطط . الشطط الذي يصدم . ولكن من قال ان نصيرات تحرر المرأة لا يريدنّ الصدم والصدام؟ فاضطهاد المرأة هو من اكثر وقائع التاريخ تجذّرا ، حتى انه لقد يبدو «طبيعيا» . وانما بغية تجريده من هذه الصفة «الطبيعية» او «الاعتيادية»، يغدو الصدم ــ ومن ورائه الشطط ــ ظاهرة صحية وطبيعية . واذا كنا نحن الذكور قد حمّلنا النساء من شططنا الواقعي ما حمّلناهن اياه على مر حقب التاريخ ، فلا بأس علينا ان تحمّلنا اليوم بدورنا قدرا من شططهن النظري .

● القارىء لهذه النصوص لا يمكن ان يكون قارئا حياديا . فاذا كان من الاناث ، كان معنيا بصفة مباشرة بحكم من ان القضية قضية نساء . واذا كان من الذكور ، فانه سيساوره مرارا وتكرارا شعور بالضيق والحرج ، لانه هو ، لا غيره ، الماثل في قفص الاتهام . ولعله يمكن وضع الامور في صيغة قانون والقول ان نجاح هذه النصوص في إحداث الوقع الذي تبغي إحداثه يتناسب عكسا وشعور القارىء بالارتياح اثناء مطالعته لها . وبكلمة واحدة ، ان هذه النصوص تقطع الطريق سلفا على الفريسيين ، اي على اولئك الذين يبنون دليل براءتهم على تجريم الآخرين . فهنا لا وجود لآخرين . والاخرون انما هم نحن : الذكور .

● لعل اكثر من سيكون بين القراء إحراجا واحساسا بثقل الضمير هو الماركسي . فهو المُحاوَر في اكثر هذه النصوص . لا لانه عدو المرأة ، بل على العكس لانه نصيرها الاول المفترض . والماركسية لم تحظ بشمولية الانتشار الا لانها كانت وعدا

شموليا بالتحرر . ولهذا تحديدا تدخل نساء «قضية النساء» في حوار معها . فهن يقلن لنا لماذا يشعرن بأن ذلك الوعد الشمولي بالتحرر لم يكن شاملا لهن . واذا كنا نحن من طلاب الشمولية حقا ، فلنصغِ اليهن . أجل ، فلنصغ اليهن . لا لان لديهن جديدا ينبئنا به فحسب ، بل ايضا لان لديهن من الادلة ما يثبت ان شموليتنا قد بدأت بالتآكل . واذا كنا قد اعتدنا ان نقول انهن نصفنا الآخر ، فقد حان الوقت لنكتشف اننا بدورنا في نظرهن نصفهن الآخر . وبصرف النظر عن كل شطط يقف من الجدلية عند لحظة النفي ، فان تلاقي الأنصاف لا تنافيها هو الذي يلغي فكرة النصف من الاساس ويعيد بناء وحدة الانسان ككائن مذكر ومؤنث معا .

● لكن قبل الوصول الى هذه «الخاتمة السعيدة» ، وحتى نصل اليها فعلا ، فلا بد ان نسجل الاعتراف التالي : لقد كان الديموقراطي والتقدمي من الرجال ونصير المرأة منهم يناضل كي ينتزع لها الاقرار بأنها هي الاخرى انسان . والحال انه غير كاف، او لم يعد كافيا أن نعترف بأن المرأة هي الاخرى انسان ، بل صار المطلوب أن نقر بأن الرجل هوْ ذاته ليس انسانا ، بل مجرد مضطهِد . واذا كان بيننا من يحتاج الى مرآة ليرى صورة نفسه على حقيقتها كمضطهِد ، فان النصوص التالية تصلح لان تكون بديل تلك المرآة .

جورج طرابيشي

قضية النساء

بقلم جيزيل حليمي

ان نضال النساء لأهم حدث في نهاية القرن العشرين هذه . اذ انه يطرح من جديد على بساط البحث المخطط الكلاسيكي للنضال ضد الاضطهاد ، وبالتالي المخطط المسمى بالماركسي .

مخطط كلاسيكي لانه هو المخطط الذي كرسه قسم لا بأس به من التراث . تراث الجهابذة والاشتراكيين ، تراث ماركسيي المنبر والاشتراكيين ـ الديموقراطيين . وخلاصته : بما ان صراع الطبقات هو محرك التاريخ ، فان الطبقات المكتملة التكوين هي وحدها التي تتمتع بحق النضال وواجبه ؛ وبما ان التناقض الرئيسي هو ذاك القائم بين البورجوازيين والبروليتاريين ، فان البروليتاريا هي وحدها التي تستطيع ان تكون في طليعة الصدام. واذا ما أعرب بعضهم ـ النساء على سبيل المثال ـ عن رغبة في خوض نضالات مستقلة بذاتها ، فلا بد من التنديد بهم بصفتهم

حلفاء موضوعيين للخصم ، واقعين تحت هيمنة الايديولوجيا البورجوازية الصغيرة .

غير انني أبادر الى التوضيح: هو مخطط مسمى بـ«ماركسي»، لان ماركس ، على ما اعتقد ، لم يحاكم قط الامور هذه المحاكمة . ولا كذلك انجلز او لينين . ومن يعرف كيف يقرأ النصوص ، فان تحليل الطبقات لم ينف قط وجود اضطهاد نوعي للجنس . لا ضمنيا ولا جهارا . فهناك صراع بين الطبقات ، وهناك صراع بين الجنسين . والعاملة ترزح تحت نير الاضطهاد بحكم كونها بروليتارية من جهة ، وبحكم كونها امرأة من الجهة الاخرى . ومن ثم ، فانها ترزح تحت نير الاضطهاد على نحو مغاير للرجل ، وربما بقدر اكبر . اضطهاد مزدوج اذا شئنا ، لا يمكن أن يجد تعليله في اي تحليل تبسيطي للطبقات .

بفهمنا الامور هذا الفهم نعيد الى الماركسية كامل قيمتها كتفسير شمولي . أليس المفروض بالماركسية ان تحلل جميع أشكال الاضطهاد وان تفكك أواليتها ؟ هذا بالضبط ما يفعله انجلز حين يكتب بصدد الاسرة : «ان اول تناحر طبقي يظهر في التاريخ يتطابق مع تطور **التناحر بين الرجل والمرأة في الزواج الفردي ، كما يتطابق اول اضطهاد طبقي مع اضطهاد الجنس المذكر للجنس المؤنث**» . ان الامور لأقل بساطة بقليل مما يود ان يدخل في أذهاننا «الاختصاصيون» في الماركسية ...

كذلك ينبغي ان تستخلص ذات يوم نتائج فشل الثورات من النمط «السوفياتي» . اذ لا مفر من التسليم بأن محض تغيير علاقات الانتاج لم يغير لا الذهنيات ولا العلاقات الانسانية تغييرا يذكر ؛ وبأن الثورة السياسية لا تعقبها بالحتم والضرورة ثورة ثقافية ؛ وبأن النساء ، بدون ثورة ثقافية أصيلة ، سيبقين أسيرات نير تبعيتهن واستلاباتهن السحيق القدم .

أدرك انني أتطرق هنا الى نقطة حساسة للغاية . واسمع هنا المشنّعين علي يتهمونني بـ «الجنسوية البورجوازية الصغيرة» .

والاعتراض كلاسيكي : اننا نعزل النساء عن جمهور المستغلين ، ونحطم التضامن البروليتاري ونشجع الصراعات الانقسامية ...

انني اعرف النغمة . وجوابي بسيط . بسيط ، وعلى الاخص **سياسي** . أجل ، هناك استغلال مشترك للبروليتاريين من نساء ورجال ، وهذا الاستغلال المشترك لا بد من الرد عليه بنضال مشترك ؛ هذا صحيح ، ولكن اليه ينضاف ، بالنسبة الى النساء اللائي يعملن ، عنصر فرط استغلال . ومن اجل ازالة هذا العنصر ، لا بد من خوض نضالات خاصة ؛ نضالات لا تناقض النضال المشترك ، بل تواصله **وتغنيه** . وتلك هي النسوية كما أتصورها . التركيب بين نضالين ؛ نضالين يخاض غمارهما معا ضد الاضطهاد الطبقي وضد الاضطهاد الجنسي . ولنقل ـ اذا اردنا الا نطيل ـ ان الراسمالية مسؤولة بكل تأكيد عن القسم الاعظم من أوجاعنا ، ولكنها ليست المسؤول الوحيد .

ومن المنطلق نفسه، نستطيع القول ان الانتقال الى الاشتراكية هو في نظرنا شرط لازم ، ولكنه ليس بحال من الاحوال كافيا .

لا مناص من الاعتراف بأن النساء في الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية ، وحتى في الصين ، لم يصلن **قط** الى سدة السلطة السياسية بنفس نسب الرجال . فاشتراكية الدولة قد نسخت المخططات القديمة ...

كم عدد النساء في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي ؟ وعلى راس الجمهورية الصينية ؟ او ، بكل بساطة، في الاحزاب التي يفترض فيها ان تجسد سلفا في طرائقها وبناها وغاياتها مجتمع الغد اللاطبقي الذي لا تعاني فيه النساء من التمييز والتفرقة ؟

يضم المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي عشرة اعضاء بينهم امرأة واحدة؛ وتضم الامانة القومية للحزب الاشتراكي الفرنسي احد عشر عضوا ليس بينهم امرأة واحدة .

وكذلك هي الحال في الجماعات والتجمعات اليسارية المتطرفة كافة . ففداة ايار ١٩٦٨ انضوت نساء كثيرات بحمية واندفاع تحت لواء النضال اليساري ، ثقة منهن بأن نشاطهن ضمن نطاق تلك الحركات سيتيح لهن ان يتحملن مسؤوليات ، وأن يمارسن تأثيرا ، وأن يمحون آثار الظلم الطبقي والظلم الذي يحيق بجنسهن في آن واحد . ولكن هذه الآمال تبددت هباء ، ويا للاسف ، ولم يكن ثمة مناص من اجراء جردة لحساب الارباح والخسائر .

ان المهام التي أوكلت اليهن كانت توزيع النشرات وصنع المغلفات ، وكما هي العادة ، اعداد وجبات الطعام والقهوة وتنظيف المقر . وكلها مهام صنفت بلا تمييز بأنها «نضالية» . تماما ككتابة الافتتاحيات والقاء الكلمات في المهرجانات العامة . ولكن هذه المهام الاخيرة كانت وقفا على الرجال ... فهم يملكون **ملكة التفكير** ... خلاصة القول ، لقد استأثروا ، صنيع الامبرياليين الحقيقيين ، بالسلطة الحقيقية . سلطة القرار . سلطة التحليل النظري وانشاء «الممارسة» الثورية .

الاضطهاد الجنسي . من يجرؤ ، والحالة هذه ، على انكار وجوده باسم تحليلات ماركسية مزعومة ؟

لكن ثمة نقطة هامة يجدر التوقف عندها : فلئن صح ان تحرر النساء هو في أنظار ماركس وانجلز ولينين وغرامشي ، وحتى روزا لوكسمبورغ ، **مطلب نضالي موضوعي** ، فانه لا يُنظر اليه على انه يقتضي **حلا خاصا** على اعتبار انه لا يؤلف مشكلة خاصة . لقد سلم جميعهم على ما يبدو بأن تحرر النساء سيتأتى بصورة طبيعية من الغاء الطبقات ، وبأنه لا بد ان يكون لازمته المباشرة . وعلينا نحن اليوم ، وقد اغتنينا بتجربة لم تكن متوفرة لهم ، ان نعمل التفكير ، وأن نوجه نضالاتنا بدالة هذا التفكير .

ولاستئصال جذر البنى القمعية التي تثقل بباهظ وطأتها على

المرأة ، وحتى على المرأة الاشتراكية ، لا مفر من خوض معركة اخرى .

وفي الواقع ، يحدث لي ان أتساءل هل ما يزال المخطط الثوري الكلاسيكي صالحا لعصرنا ، وهل يتوجب علينا أن ننتظر، كيما نشن تلك المعركة المناهضة للقمع ، أن تباشر الاحزاب اليسارية او اليسارية المتطرفة مسيرة «الانتقال الى الاشتراكية».
كما انني لأتساءل ان لم يكن قد آن الاوان اخيرا لاعادة النظر في السلسلة الماركسية ـ اللينينية القديمة : الثورة الثقافية **بعد** الثورة السياسية ...

هنا ايضا تتناهى الى مسامعي زمجرة حراس العقيدة القويمة. لكن خليق بنا ان نتذكر ان ما من ثورة ماضية الا وسلكت ذات مرة طريقا معاكسا ، وأن ما من ثورة ظافرة الا ووقعت ذات يوم في هرطقة . لينين ضد كاوتسكي : انها اولوية الثورة السياسية على الثورة الاقتصادية . كان كاوتسكي يريد ان يعاد صنع ١٧٨٩ ، لكن لينين نجح في صنع اوكتوبر ١٩١٧ ... وماو ضد ستالين : اسبقية الريف على المدينة . هنا ايضا كان ستالين يصر على **تكرار** صيغة مجرّبة ، لكن ماو ما كان يخشى بالمقابل ان يجدد .

كان النصر اذن ، في كل مرة ، من نصيب الهراطقة . فلمَ لا يكون الامر اليوم ايضا كذلك ؟ لمَ لا نرسم علامة استفهام حول ذلك التسلسل الزمني المقدس لترتيب النضالات ؟ لم لا نطرح ، كفرضية عمل على الاقل ، امكان اولوية الثورة الثقافية على الثورة السياسية ؟ ان النضالات الاكثر نموذجية في السنوات الخمس الاخيرة تصب جميعها في هذا الاتجاه (السجون ، المهاجرين ، العنصرية) . فماذا اذا نحا نضال النساء بدوره هذا المنحى ، محققا التحول الفاصل ؟

ان عناصر عديدة في تطور المجتمعات الغربية تبرر ، على ما يبدو لي ، ذلك الانقلاب وتستوجبه .

فعلاقة الرجال بالنساء هي اولا البوتقة التي تطرّق فيها بنى السيطرة . وبهذا المعنى يمكن القول ان نضالات النساء تتجاوزها ، اي انها مؤهلة لان تفضي موضوعيا الى تحرر شامل.

ثم انني لست متأكدة من ان الرأسمالية ما تزال ، كما في ايام ماركس ، رأسمالية ليبيرالية ذات هيمنة اقتصادية . ولعلنا نشهد اليوم تحولا تاريخيا في اتجاه الهيمنة : من الاقتصاد - الذي يحتفظ بدوره السائد - نحو السياسة والثقافة . أفلا يمكن القول ان الرأسمالية المعاصرة في سبيلها الى التحول الى رأسمالية تكنوقراطية ذات **هيمنة** ايديولوجية ؟

ولئن كنت أتحدث عن «تحرر شامل» ، فلأن للنساء ، في اعتقادي ، دعوة ثورية شمولية .

ذلك ان المرأة التي ترزح تحت نير ضروب شتى من الاضطهاد يمكنها ، على الرّغم من معاناتها من فرط الاستغلال ، ان تكوّن نظرة اجمالية الى الصراعات والنضالات . وليس ذلك بحكم قدر مقدر ، وانما بدالّة ظاهرة بنيوية : تغير اتجاه الهيمنة على نحو ما أبنته أعلاه . فعلى وجه التحقيق لأن النضال الايديولوجي - الثقافي يحتل اليوم مكانة الصدارة ، فان في مستطاع النساء ، بمعنى ما ، ان يتصدرن طليعة المعركة .

انا لا أزعم ان الحال لهي كذلك في كل مكان وزمان . ففي البلدان التي هي «في حالة أزمة» ، يمكن ان تختلف استراتيجية نضالات النساء وأولويتها . الاضرابات القومية الكبرى ، الثورات، حروب الاستقلال ، النضالات الشعبية : فمن خلال هذه الثلمات، المنسوجة من العنف والتاريخ ، تقفز النساء قفزة هائلة الى الامام بمجرد التصاقهن بالحدث .

يذهب بي التفكير هنا ، على سبيل المثال ، الى حرب الجزائر والى مقاومة الشعب الفيتنامي لعدوان الولايات المتحدة الاميركية، وهي نضالات كنت بقدر او بآخر شاهدة مباشرة عليها .

اثناء حرب الجزائر بادرت النساء ، دونما اذن من احد او موافقته ، الى احراق حجبهن والاحكام المسبقة السلفية على مذبح الثورة . وقد صرن «مجاهدات» وممرضات وضابطات ارتباط وارهابيات . وفي هذه الحالة ، ما كان الموقف التقليدي ليتعدى الطلب الى بعض منهن ـ ممن يرى اليهن الرجال في عقلهم الباطن على أنهن بغايا اكثر منهن بطلات ـ أن يقمن بدور تجسسي لجمع المعلومات . لكن ذلك العدد الضئيل من قرينات ماتا هاري او مرتا ريشارد لم يحقق في الواقع تقدما لقضية النساء ! بل ربما كان العكس هو الصحيح .

في الجبال والقصبات، حملت الجزائريات واستعملن البنادق والقنابل اليدوية والمباضع الجراحية ... وكثيرا ما كنّ ، بعد أداء مهامهن القتالية ، يتولين ، وفي أيديهن الخرائط والاقلام ، شرح الاستراتيجية العسكرية وخطة التنظيم الاداري والعسكري العام... كنّ بالامس القريب ما يزلن رازحات تحت نير نظام أبوي اقطاعي متشدد ، فاذا بهن بين ليلة وضحاها ينمن بأخوّة الى جانب غيرهن من المقاومين ويتولين معهم اعمال الحراسة الليلية. فلكأن النضال قد جرد المقاومين ، رجالا ونساء ، من صفتهم الجنسية .

انه لأمر له دلالته ، في نظري ، ان تكون جميلة بوباشا ، التي اعتقلت بعد سنوات عدة من النضال في الجبال والمدن ، قد بقيت عذراء الى يوم اغتصابها البشع على أيدي جلادي التعذيب من المظليين ! كان النضال يتجاوز فارق الجنس وجاذبيته ليلحم الرجال والنساء ويوحدهم . وقد ذهل الرجل اذ اكتشف لدى المرأة القدرة على ان تكون ثورية بكامل معنى الكلمة. ونسي ضرورة الاستظهار عليها في النضال كما في الحب . وقد ساعده على ذلك التصعيد والتسامي ...

حين ذهبت الى فيتنام ، بصفتي خبيرة في محكمة راسل ، كانت فيتنام الشمالية تنزف من جراحها الفاغرة . فينه ، تانه

هوا ، كينه لاب ... انقاض مبقورة ، مستشفيات تغص الى ما فوق قدرتها على الاستيعاب بالمدنيين . مشفى مدمر لمرضى الجذام . قنابل الطائرات القاذفة من طراز ب ٥٢ ، النابالم ، الغازات المبيدة لأوراق الاشجار .

لقد هبت النساء يومئذ ـ كدت اقول : «هبّة رجل واحد» (انها لرهيبة الكليشهات تلك !) ـ كي يحاربن . والانتاج ؟ بنسبة ٨٠ بالمئة تولت النساء أمره . المدفعية المضادة للطائرات ؟ ادارة المناطق ؟ التعليم ؟ لقد انتشرت النساء في كل مكان ، بشجاعة ، بصورة طبيعية ، كما لو كنّ أبد الدهر حاضرات وفي مراكز القيادة . وصلت ذات يوم لجنة التحقيق التي كنت أرئسها الى مركز في منطقة نغه آن ، سالكة طريقها اليه ليلا وعلى أشواط قصيرة . وقد قال لي الدليل الفيتنامي بكل بساطة : «آ ، آ ، سيكون في مستطاعك ان تستجوبي المسؤولين عن الدفاع المدني واللجنة الادارية» . وسرعان ما استقبلتنا مجموعة من خمسة عشر شخصا بينهم ثلاث نساء . صبايا ، جميلات ، دقيقات في كلامهن ، اولاهن مسؤولة عسكرية ، والثانية مسؤولة ادارية ، والاخيرة مديرة المستشفى المحلي .

كانت حياة تلك الرقعة من البلاد المحاربة تقوم على تلك الاكتاف النسائية الست . لم يكن احد قد لفت أنظارنا مقدما الى «الظاهرة» ، الى «الخروج على المألوف» . ولم يسبق لأي فيتنامي في اية لحظة ، وبأية وسيلة من الوسائل ، أن هيأني للتنبه لأهمية «الشيء» بالقول : «ليس عندنا تمييز ولا تفرقة . اننا نعتبرهن **أندادا** للرجال ، **أندادا** لنا» . لا شيء من هذا . فهنّ لا ينظر اليهن على انهن **أنداد** ... وانما **هنّ هنّ** فحسب . وما كان ذلك بحاجة حتى الى ان يلفت اليه الانتباه . كان شيئا طبيعيا . لم يعد ثمة من فارق بين الجنسين لان الفارق الذي في العقول قد اختفى . التغير الجذري في الذهنيات . النساء هنا .

هذا من بديهيات الامور . وبكلمة واحدة ، لا شيء يسترعي الانتباه او يلفَت اليه .

لكن بعد تلك الحقب الحافلة بالاحداث تبدأ في غالب الاحيان، ويا للاسف ، مرحلة نكوص وتراجع . فالرجال يعودون الى خططهم السلفية ، الابوية . وتصدر أوامرهم الى النساء بوجوب العودة الى المطبخ والانجاب . لكن ما حدث لا عودة عنه . فالنساء اللواتي حررن انفسهن من إسار حياة حبيسة بين جدران اربعة ، قد صار عندهن وعي باستقلالهن، ونضوج برسم نضالات جديدة. ولقد فعلن عين الصواب حين اندمجن ، باديء ذي بدء، بالنضالات القومية . فلقد حققن بذلك تقدما اكيدا .

ان جميلة بوباشا متزوجة ، والدة لثلاثة اطفال ، وتستعمل طرائق منع الحمل . وهي من أقرب معاوني وزير العمل ، ومندوبة في اللجان التحضيرية لجبهة التحرير الوطني . وزوجها، وهو بدوره من رجال المقاومة السابقين ، غير موافق كل الموافقة على ذلك التحرر ، وقد وقعت بينهما مصادمات كثيرة بهذا الخصوص. لكن ما همّ ! فقد رفضت العودة الى المطبخ وفرضت اختيارها للحياة . وهي تأخذ قسطها من المسؤوليات في مسيرة البلاد . وتمضي قدما الى الامام .

هذه الحالات ، ويا للاسف ، استثنائية . فقد كان المفروض ان تتكاثر أعداد النساء في جميع الطرق المؤدية الى الاشتراكيه. لا كقوة مساندة او كفالية صامتة فحسب . وانما على المستويات جميعا . وعلى الاخص ، في المراكز المسؤولة . وهذا واحد من الاسباب التي تحملني على الاصرار على التأكيد بأن على النساء ان يعملن وأن يندمجن بالانتاج ، كائنا ما كان طرازه .

انني أعلم ان هذا الموقف لا يعود علي بشعبية واسعة . فمن المسلم به ، مثلا ، أن زوجة العامل المرهقة بأعبائها البيتية لا يمكن ان يطلب منها المزيد. لكن العاملة ، مهما يكن طريقها شاقا وصعبا، تنخرط في اطار استراتيجية للنضالات الشاملة . تعاني معاناة

مباشرة من الاستلاب ، وتعيه من خلال هذه المعاناة ، وتتولد لديها ، بجلاء لا تعرف نظيره المرأة الحبيسة في بيتها ، الرغبة في مكافحته . واجبات ، اكراهات ، يوم عمل مضاعف ، عرق ودموع ؟ هذا صحيح . لكن ثمة طريقا واحدا ممكنا ــ الباب الضيق ــ للتقدم الى الخطوط الاولى . اما ان ننتظر مبادرة الرجل ، وحده ، لتحريرنا من الاضطهاد الطبقي ولمنحنا المجتمع الاشتراكي ، فموقف خطر للغاية . انها الهدية المسمومة . فالنساء ، المفتقرات الى التأهيل والى التجربة النضالية والى الاندماج في دينامية النضالات ، قد يهتدين الى الاشتراكية ، لكنهن سيبقين بكل تأكيد رازحات تحت نير الاضطهاد .

حين تعمل المرأة في الخارج ، حتى ولو كان عملها استلابيا ، تفلت من الوحدة ، من العزلة ، من غيتو جدرانها الاربعة . وحتى لو كان العمل مضنيا ، فانه يفتحها على العالم الواقعي . عالم استلاب بكل تأكيد ، لكنه كذلك عالم الفعل والتقرير .

وأول ما يترتب على ذلك تغير علاقات المرأة بالعالم الواقعي تغيرا جذريا . انظروا الى المرأة حبيسة بيتها ، انسانة مصابة بفصام حقيقي ، منفصلة عن الواقع ، منكفئة على ذاتها في الخيال . وردا منها على حبسها ، تبتني لنفسها كونا مضادا . ومقاومة منها للحجر عليها ولاستبعادها تصطنع لنفسها عالما خاصا بها . عالم منسوج من الاحلام والخيالات ، من الاوهام والقيم الزائفة . عالم له لغته ومنطقه ، متوازٍ الى ما لا نهاية مع العالم الحقيقي ومآسيه .

من هذا نفهم على نحو افضل ، على ما أعتقد ، لماذا ألح على ضرورة عمل المرأة . ذلك ان الانفصال هو في خاتمة المطاف أمتن اداة للسيطرة على النساء . وعالمهن المضاد ، بدلا من ان ينقض عالم الرجال ، يساهم في بقاء هذا الاخير وسلطانه . ومن ثم ، لا مندوحة عن تحطيم ذلك السياج الملعون . عن الخروج على

التبعية الاقتصادية ، مصدر كل تبعية اخرى .

ان الحياة اليومية هي ، بدورها ، ميدان رئيسي من ميادين الكفاح . وما هي ــ صدقوني ــ بالمعركة الهينة . يخيل الي انه من الاهمية بمكان ، على سبيل المثال ، أن تحتفظ المراة المتزوجة باسمها . فهي حين تتبنى كنية زوجها تخطو ، بوجه العموم، اول خطاها نحو البلعمة ، نحو زوالها .

لقد كتبت الي صديقات من المدرسة الثانوية معلقات على المعارك التي خضناها(١) . وما امكنني ان أتعرف غير اولئك اللواتي آثرن، بعد زواجهن، ان يتبعن كنية الزوج ، التي صارت كنيتهن، بكنيتهن الاصلية قبل الزواج . وهذه نقطة هامة ، وليست محض عرف درج مؤخرا . فالمرأة التي تأخذ بكنية زوجها تولد لهـا هوية جديدة ، يطرأ عليها تحول ماهوي ، تنخرط في جلد جديد ، تفقد شخصيتها الاصلية . ومن ينخرط في جلد غيره ، ولو كان جلد الزوج ، يعش حياة غيره ، لا حياته .

على النساء ان يتقدمن الى المسابقات جميعا ، وأن يرفضن في الوقت نفسه الاشتراك في المسابقات التي تخصص بالرجال وحدهم او بالنساء وحدهن. بل عليهن في هذه الحال ان يقاضين الدولة والادارة والمنشأة التي تنظم أشباه هذه المسابقات التمييزية ، لما تمثله من انتهاك للقانون وللدستور الذي يجاهر بالمساواة بين الجنسين ! صحيح انها مسألة مبدئية ، لكنها تفضي مباشرة الى تمييز على صعيد الوقائع. فالفائزة في **مسابقة للنساء** لن تتمتع بنفس المزايا التي يتمتع بها فائز في **مسابقة للرجال** او مسابقة مختلطة .

عليهن ان يطالبن بأن تغدو المساواة في الاجور بين الرجال

---

١ ــ جيزيل حليمي من رائدات حركة «الاختيار» الداعية الى اطلاق حرية الاجهاض . «م»

والنساء حقيقة واقعة ، لا ان تبقى مبدا أخلاقيا مجردا .

وعلى المرأة ايضا ، كيما تحطم السور الذي يضربه الرجل حولها ، ان تفضح صورة ذاتها التي يردها اليها .

كثيرا ما يطرح علي السؤال التالي : أيتوجب على المرأة ان تمتنع عن اثارة الاعجاب بها ؟ على هذا السؤال أجيب على الدوام بأنه اذا كان معنى اثارة الاعجاب بالنسبة الى المرأة القبول بأن تصير المستهلكة الكبرى لجميع المنتجات ولجميع الوسائل المصنوعة لتحويلها الى موضوع ، والرامية في الوقت نفسه الى إحياء حركة السوق ، فانني اقول لا . لا للنرجسية . فالمرأة التي تثير الاعجاب لا تمر بالضرورة والحتم بمعاهد التجميل . وفي رأيي ، تملك المرأة الصادقة مع نفسها بيسر وطبيعية جاذبية كبيرة . وأن تكون المرأة ذاتها ، فهذا معناه ان تنبذ القوالب النمطية وأن ترفض الانتماء الى الصورة «المذكرة» ، الصورة التي يرجعها الينا المجتمع .

واذا عدنا الان الى السياسة ، وجدنا انفسنا امام السؤال التالي : كيف السبيل الى تنظيم تلك النضالات ؟ أبواسطة حزب ام مجموعات صغيرة أم بالنشاط العفوي ؟ منذ عام ١٩٦٨ والنضالات الهامشية والنشاطات المنتظمة تقوم بأعبائها مجموعات متخصصة (مجموعة الإعلام للسجون ، رابطة مساندة العمال المهاجرين ، حركة الاختيار ، الخ) اكثر مما تتولاها الاحزاب التقليدية الكبيرة . ان الاحزاب تتبنى ، توافق ، تقوم بدور مركز ارتباط قومي . لكن التأثير على الرأي العام وإثارته غالبا ما يتأتيان من نشاط له هو الآخر طابع مثير ومن طراز غير تقليدي : اضراب عن الطعام ، تظاهرات مثقفين ، الخ .

أدعوة الى العفوية اذن ؟ كلا ، فهي في رأيي مرادفة للتدمير الذاتي . فالعمل يؤول الى احتضار في حال رفض التنظيم والبنية التنظيمية ، كائنة ما كانت .

ابتكار وعطاء وبذل بكل تأكيد ، ولكن ايضـــا تصور معين وصلب للحرية .

لست أدري بعد كنهه . وأنا ما ازال أبحث . أعتقد ان هذا الزمن زمن البحث ، زمن ابتكار اطار لنضال النساء . اطـــار يستجيب لمطلب مستويي النضال الاثنين . والمفروض في النساء جميعا ان يفكرن وأن يبحثن . وعلى الاخص اولئك اللواتي أتيحت لهن الفرصة لخوض غمار المعركة ، ولانتزاع بعض الانتصارات ، وللمطالعة ... وباختصار ، اولئك اللواتي يملكن «سلطـــان المعرفة» . ان المرأة لا تجد سبيلها الى التحرر الحق ، رغما عـن الظواهر ، الا في عالم تتمتع فيه النساء جميعا بالحرية . وثمة شوط ما يزال يتوجب قطعه . وعلى عاتق النساء جميعا تقع مهمة قطع هذا الشوط متضافرات متضامنات . وخائنات هن النساء اللواتي يتهمن غيرهن من النساء بالعجز والوجل والسلبية . فهن يلتحقن في الواقع بالمعسكر الآخر في محاولة منهن لانجاز تحرر فردي ، ظاهر من تحرر ، او بديل . ولنقل بالاحرى : نجـاح فردي .

هذا لا يعني ان النجاح الفردي يعرقـــل بالضرورة مسيرة النساء الجماعية . واعتقادي ان التقدم والتاريخ ينسجان في آن واحد من النجاحات الفردية («الاقدار الخارقة للمألوف») ومـن الحركات الجماعية الكبرى . ومن نقطة الالتقاء يولد الدفـــع والدينامية . لكنني ارى ان على النساء المتحررات «فرديا» ان يلازمن الحركة باستمرار، وان يكن على اتصال دائم بأخواتهن، وألا يخفين شيئا من مشكلاتهن ومن الصعاب التي يصطدمـــن بها . فالمرأة التي تحرز من النجاح الاجتماعي ما يحرزه الرجل والتي تزعم انها لم تلاق قط في مهنتها تفرقة وتناحرا امرأة تغش . او انها تقدمت عبر سلسلة من التنازلات والمساومات التي تريد لها ان تبقى طي الخفاء . ومهما يكن من أمر فانها ، بموقفها هذا ، تفصل نفسها عن سائر النساء .

خذوني انا نفسي على سبيل المثال : انني استفيد من وضع محاباة لانني احتللت مكاني بين الرجال ولانني مصممة على الاحتفاظ به بتكويني كامرأة ، بلا غش ولا عقد ، بقدر ما استطيع. لكن في كل يوم يذكرني حادث تافه ما ، حركة ما ، كلمة ما ، بأنني لم أتحرر تمام التحرر ، وبأنه ما يزال علي ان اخوض معارك ، من اجل نفسي ومن اجل الاخريات .

وبعيدا عن كل تجريد ، انا أؤمن بحركة جماهيرية كبيرة ، حركة تلتقي فيها النساء قاطبة ، كائنا ما كان انتماؤهن السياسي واصلهن الطبقي وتبعيتهن .

حركة مشابهة لـ **«اختيار»** ، لكن على نطاق اوسع بكثير ، لا يكون هدفها وهب الحياة بحرية فحسب ، بل تجاوز ذلك الى ما هو أشمل : الوجود بملء الوجود ، مثل الرجل ومعه بآن معا .

ان للحركة الجماهيرية قيمة تربوية اكيدة . فهي قمينة بأن تعلّم النساء من جميع الآفاق والمستويات ، وبخاصة اولئك اللواتي لم يناضلن قط ولم يجرؤن قط على التحدث علانية ولم يفكرن قط بدينامية ما او ببنية ما للنضالات النسوية قمينة بأن تعلمهن كيف ينظمن انفسهن ويبتكرن اعمالا ونشاطات ويمضين قدما الى الامام .

أعتقد ان حركة كهذه ينبغي ان تقتصر على النساء وحدهن. واذا كنا نريد ان تلعب دورا مصلحا وان تساعد النساء على تدارك تأخرهن في قدراتهن على التحليل والكفاح ، فلا يجوز ان تكون مختلطة . فالاختلاط هو من صفة الحركات السياسية التقليدية . اما النساء ففي مستطاعهن ، بنضالهن في اطار حركتهن النسائية، وبعد تكوينهن «من الداخل» ، أن يندمجن بتشكيلات مختلطة اخرى .

غير ان صياغة النظرية النسوية الحديثة واختيار نضالاتها مهمة لا يمكن لغير النساء ان يقمن بها .

لا أحسب انه ثمة مكان ، في المعركة التي حددت ملامحها ، للانتماء الطبقي . وفي اعتقادي ان النساء البورجوازيات وغير البورجوازيات يستطعن على حد سواء ان يخضن الكفاح ذاته . ذلك ان الاضطهاد الذي يعانين منه جميعا ان اختلف كما ونوعا بالنسبة الى البورجوازيات عنه بالنسبة الى غير البورجوازيات ، فان مصدره بالنسبة اليهن جميعا واحد : الانتماء الى الجنس المؤنث .

لقد اهتم ماركس، هو الآخر، باستلاب النساء البورجوازيات. فهو استلاب موجود موضوعيا . وليس مرده الى تباين الطبقات، وانما الى تفرقة جنسية **في داخل** الطبقة الواحدة. وقد كتب يقول: **«ليست امرأة البورجوازي بالنسبة اليه سوى اداة انتاج»** . وهذا ما يمد جسرا ، متينا بما فيه الكفاية ، بين النساء من الطبقات كافة ، ولكن من دون ان يشكلن مع ذلك طبقة على حدة ، نظير البروليتاريا .

من الممكن الاعتراض بأن المرأة البورجوازية لا ترزح تحت نير اضطهاد طبقي . وهذا صحيح . لكنها تبقى مستغَلة ، مسيطرا عليها ، من قبل زوجها البورجوازي الذي يستخدمها كموضوع للتمثيل ، كعلامة خارجية على الغنى ، كوسيلة للنجاح الاجتماعي، وباختصار ك «أداة انتاج» . أهذا كاف كي تعي ، اجماليا ، **جميع** الاضطهادات التي ترهق النساء ؟ سأجيب : والمثقفون ؟ ذلك انني أحاكم الامور بقياس المماثلة . اذ ماذا يفعل المثقفون البورجوازيون ــ رجالا ونساء على حد سواء ــ حين ينضوون تحت لواء ثورة اشتراكية سوى انهم «يخونون» موضوعيا انتماءهم الطبقي ليتبنوا مصالح البروليتاريا ؟ وممَّ تتألف الطلائع الثورية كافة؟ من بورجوازيين لا من عمال، من مستغِلين لا من مستغَلين. من رجال ينتمون الى الطبقة الوسطى في غالب الاحيان . ولئن اختار المثقفون ان يكونوا واضعي نظرية الحركة العمالية واستراتيجيتها ، فهذا لانهم ــ كما يقال ــ «العقل النظري

للموقف» . أفلا يمكن ان يعقد رهان مماثل على النساء المنتميات الى الطبقات السائدة ؟ هذا سؤال أطرحه .

يحدث ان يعترض علي معترض ، بالقول : «انت تسبغين على النساء امتيازا تاريخيا مبالغا فيه . عين الامتياز الذي خص ماركس البروليتاريا به ، والذي يبدو عليك انك تنكرينه الان على الرجال . القدرة على شن نضال ثوري . فهل نحرر العالم بتحريرنا النساء ؟» .

أبدأ بالتوضيح بأنه من الافضل القول : «بتحرير النساء لأنفسهن» بدلا من «تحرير النساء» . اذ انه من الاهمية بمكان ان يأتي تحرر النساء من صنع أيديهن . وقبل كل شيء لانه لا وجود لمثال على مضطهَدين تحرروا عن طريق احد سواهم (لكن هذا لا ينفي اهمية اختيار التحالفات) . وبعد ذلك فحسب أجيب بوجه عام على السؤال فأقول : «أجل ، هي البداهة بعينها ... على المدى الطويل وفي نهاية المسار» .

للوهلة الاولى ، ومن منظار سطحي ، تبدو المعارك النسائية على الدوام هامشية واصلاحية . لكنها ، بتراكمها وبإرغام الآخرين على وعي وجودها ومطالبها ، تفرض التحليل الجذري فرضا وتوجب أعادة النظر في النظام . والنضال الذي تستتبعه يتجاوزها ليحتل مكانه ، في نهاية المطاف ، في الحركة الثورية الكبرى . وهي حركة تصير النساء قناتها ورمحها .

لنعد أدراجنا الى الاجهاض . ان هذه المشكلة تذكرني بجبل من الجليد ، ذي جذور عديدة متداخلة في أعماق وعي الرجال والنساء ولاوعيهم على حد سواء . ومعركة الاجهاض ، في بلد لا تعترف فيه القوانين ـ فضلا عن الاعراف والتقاليد ـ للمرأة بأنها ادركت سن الرشد ، يمكن ان تكون عاملا اساسيا ليقظة الوعي . وفي هذه الحال ، فان جملة من الاضطهادات الاخرى ، التي كانت تعاني منها المرأة الى الان معاناة «طبيعية» ، تعاش مذ ذاك فصاعدا

على حقيقتها ، اي كاضطهادات . وتلك نقطة تحول اساسية .

لقد قدمت امراة من منطقة انجر الى «الاختيار» وروت قصتها (القصيرة) . فهي حامل . وزوجها ، صاحب استثمارة زراعية صغيرة ، لا يريد ولدا . لكنه لا يريد ان يهتم بشيء . فالامر امر نساء ! ولتتدبر الزوجة امرها بنفسها! وهي تتدبر بالفعل امرها. بل تكتشف ان عندها قدرة ممتازة على تدبر امرها بمفردها . تلجأ الى الاجهاض . وبعد عودتها الى بيتها ترفض ان تهتم ، كما في الماضي ، بأعباء ثانوية تخص المزرعة . وتطالب بحصتها من تسيير المزرعة وبحق اتخاذ القرارات . وتربح .

والحق ان جميع المعارك النسوية تستدعي ، وان على مدى طويل نسبيا ، اعادة نظر شاملة لا في البنى القانونية والاقتصادية فحسب ، بل في العقليات كذلك . افليس في قيام ثورة ثقافية حقيقية تغيير للعالم ؟

يلفت بعضهم نظري احيانا الى ان المظهر الدرامي ، القروسطي الى حد ما ، لتجربتي الخاصة في الاجهاض (٢) يفسر تمردي والتزامي المطلق . واليوم لم تعد تحدث قصص كقصة اجهاضي بلا تخدير ... ومن ثم فان درجة يقظة الوعي أقل حدة بالضرورة. غير انني اؤكد انه ، اليوم كما بالامس ، لم يطرأ تبدل يذكر

---

٢ ــ تروي جيزيل حليمي في مكان آخر من كتابها «قضية النساء» انها حين قدمت من تونس ، مسقط راسها ، الى باريس ، حملت من خلال علاقة عابرة . كانت في التاسعة عشرة من العمر . وكان من المستحيل ان ترجع الى تونس لان والدها كان سيقتلها او سيقتل نفسه لانه لا يطيق ان يجد ابنته حاملا وعزباء في آن واحد . عمدت الى الاجهاض في مستشفى في باريس . وأجريت لها عملية قحط بلا تخدير . كان الالم لا يطاق . لكن الطبيب قال لها بتشف : «هكذا لن تعاودي الكرة !» . «م»

على وحدة النساء وعزلتهن ورعبهن وهوة جهلهن .
اذا لم تصدقوا ، فهاكم الرسالة التي تلقيتها قبل اشهر معدودات .

برويير سور واز

١٧ / ١١ / ١٩٧٢

السيد والسيدة و...
٩٥٨٢٠ برويير سور واز .
٣ اولاد :
ليونيل ١٨ سنة .
آرليت ١٦ سنة .
ميريام ٩ سنوات .
زوجي ٤٣ سنة ، سنكري .
انا نفسي ٤٣ سنة ، مرضعة في «المساعفة العامة» في برمان (طفلان) .
مات لي طفل بعمر ٦ اشهر ونصف ، ولو لم يمت لكان اليوم في العشرين .
الى الاستاذة حليمي
استاذتي ،
أفضل أن أروي لك قصتي في رسالة لا بالهاتف ، فأنا في حالة من الانفعال الشديد، وعلى هذا ستفهمينني على نحو أحسن .
كان ذلك في ١٧ خزيران ١٩٧٢ ، صبيحة يوم سبت ، في حوالي الساعة ٨ . كنت في المطبخ مشغولة

بتحضير غداء الاولاد ، حين قالت لي على حين بغتة بنتي الصغيرة ، ميريام : «ماما ، يوجد على الفراش دم كثير» (انها تقاسم اختها فراشها) ، وفي اللحظة نفسها جاء ابني ليونيل ليقول : «ماما ، اذهبي لرؤية آرليت في غرفتها . فهي في حالة شحوب شديد ، والدم يغطي كل شيء ؛ ان امرها لغريب» (كان ابني قد قدم الى غرفة اخته ليأخذ كنزة من خزانتها ، نظرا الى انه لا توجد خزانة في غرفته ؛ انه فتى ظريف) . استولى علي الذعر من ذلك الكلام ، وهرعت لأتبين الامر . فماذا رأيت ؟ ابنتي آرليت ، شاحبة كالاموات ، زائغة النظر ، تنزل على الدرج . «يا إلهي ، ماذا حدث لك ؟ في اية حالة انت ؟ ــ ماما ، اريد ان اغتسل» . ساعدتها قليلا . «دعي عنك هذا ، سأصعدك الى غرفتك وسأستدعي الطبيب» . ولما وصلت الى غرفتها ، ما كان أشد ذهولي حين رأيت الدم يملأ فراشها والارض . «هيا ، تعالي الى سرير ليونيل ، حالا» . غيرت لها ملابسها الداخلية ، ولم أطرح عليها سؤالا . ضربت على النافذة لأستدعي ابني ليونيل الذي كان لدى الجارة ، يساعد اخي في عمل ترميم الدار . صحت به : «اذهب واستدع الدكتور بسرعة . ليأت حالا» . وبعد ذلك جئت بماء كولونيا كي أحاول انعاشها خوفا من ان يغمى عليها بين ذراعيّ . في النهاية قلت لابنتي آرليت : «ماذا فعلتِ ، يا إلهي ؟ ارجوك أخبريني ــ ماما ، ماما . لقد ارتكبت حماقة . ماما ، ماما ، سامحيني ــ اذن ، لقد طرحت ؛ ما عليك يا عزيزتي ، انني اسامحك . الدكتور سيحضر . سيعالجك . الا انه ينبغي ان تذهبي الى المستشفى. لكن مع من، قولي لي بحق ربك ، مع من . لن أوبخك ــ ماما، انه جيران . . . ــ أواه ! يا إلهي ، يا للوغد ، يا للنذل.

لقد استغل براءتك ...» . وصل الطبيب فيما كنت الى جانب ابنتي ، وفحصها : «سيدتي ، ان بنتك مصابة بنزيف حاد . لا داعي للخوف ، هذه أمور تحدث كثيرا . ينبغي ارسالها الى المستشفى حالاً . سأقوم باللازم» .

وصلت سيارة الاسعاف ، وساعد ابني المرأة على انزال اخته . في اثناء ذلك ، اشارت لي ابنتي آرليت نحو معطف واق من المطر . «انه في داخله — لا عليك يا ابنتي ، لا تقلقي ، ستحاطين بالعناية الكافية ، ولن تعودي الى التفكير بالامر . سيرافقك ليونيل، وسأوافيك بعد ذلك مع خالك بييرو (اخـــي)» . وعادت تقول : «ماما ، ارجوك يا ماما ، لا تخبري بابا بشيء ، انني خائفة ... — لا ، لا ، لا تفكري بشيء ، يا عزيزتي . سأحميك» .

لقد اجبت ابنتي بهذا الجواب ، اعتقادا جازما مني بأنها قد طرحت ، وبأنه لا يمكن ان يوجد في المعطف الواقي من المطر سوى جنين ابن أشهر . لم تكن بي قوة لأنظر . كان الامر فوق طاقتي . وفي حوالي الساعة ١٣ ، ولم يكن زوجي قد علم بشيء بعد ، اذا بالطبيب يحضر من جديد . ولما رأيت على وجهه ظاهرا من القلق، هرعت نحوه : «ماذا هناك يا دكتور ، هل ساءت حالة ابنتي ؟ — كلا ، لقد وضعت ابنتك طفلا . وقد اخطرني المستشفى ان هناك مشيمة : يجب ان يؤخذ الطفل الى المشرحة ، الى الدكتور ب ...» . سمرتني هذه الكلمات مكاني من دون ان استطيع النطق بكلمة واحدة . «سيدتي ، يجب ان تتمالكي نفسك ، وأن تخبري زوجك بكل شيء» . اقتربت من زوجي كالماشية في نومها : «جان ، لدي شيء خطير ابلغك اياه . اقتلني

اذا شئت ، لكن ارجوك ، لا تمس صغيرتي آرليت. يجب ان تساعدنا . آرليت في المستشفى . لقد وضعت طفلا . انه في المعطف . انظر ، ارجوك، فأنا لا استطيع. لو نظرتُ لما تحملت الالم» .

تقدم ونظر في المعطف ، وفجأة سمعت زوجي ينتحب . عاد أدراجه نحوي وهو يقول لي : «يا لها من مصيبة ، يا الهي ، طفل بمثل هذا الجمال ، انا الذي كنت أحسب ابنتي في منتهى البراءة . لكن من الاب ، ليس هو الروح القدس على كل حال ! لا اسألك سوى شيء واحد ، اسم الاب» . فأجبته : «هو جيرار» . وبدوره قال لي : «هذا مستحيل ، هذا لا يصدق ، ابن اصدقائنا ، هو الذي كان يمكن ان يتناول جسد الرب من دون ان يعترف ، هو الذي كنا نضع فيه ثقة لامحدودة ولا نخشى منه على ابنتنا ولو ذهبت معه الى اقصى العالم ! » .

بعد ذلك حملنا الطفل وقصدنا جارة تمتلك سيارة. ودلف زوجي بمفرده الى المستشفى مع الدكتور . ثم عدنا ادراجنا الى البيت . ويا لها من مصيبة ، في الساعة ٦ من صبيحة ٢٠ حزيران ؛ فقد جاء رجال درك بونتواز ، مع دركي من بومون سور واز ، ليأخذونا من اجل الاجراءات القضائية . وهناك اعلنوا لنا بفظاظة ان الطفل قد قضى خنقا ، وابنتي الصغيرة المسكينة هي التي وضعت وحدها كحيوان متوحش . ومن خوفها ، شدت على راسه ، فمات اختناقا . لم تجرؤ على استدعائي من شدة خوفها . والمصيبة انني لم اسمع شيئا ، لم أسمع شيئا على الاطلاق . لقد مرضت بسبب ذلك . كان باب غرفتها موصدا ، وبما ان اليوم كان يوم سبت فقد اعتقدت انها نائمة . وأخيرا قال لي

رجال الدرك : «ليست هي المخطئة ، لكنه هو نذل . لا تحزني ، فكري بابنتك . فقد تألمت بما فيه الكفاية . ينبغي ان تذهبي لرؤيتها» . واليوم تلقينا دعوة استدعاء للمثول امام قاضي التحقيق ... في يوم كذا ... الساعة ٩ر١٥ . ينبغي ان أصارحك ، ايتها الاستاذة المحامية . لقد أجري تحقيق عنا . وقد شهد لصالحنا شهود طيبون . وعلى كل حال ، سيقول لك مختار قريتي من نحن ، وكذلك التجار جميعا ، ومساعدتي الاجتماعية ، الآنسة أ... ومديرتي الآنسة ف ... والآن ، أحدثك عن زوجي . ان بين يديه ذهبا . بأصابعه العشر يستطيع ان يفعل كل شيء ، وهو طيب للغاية . لكنه اذا ما غضب ، انقلب شريرا ، ولا يعود يقبل كلاما . اننا نخاف أشد الخوف منه . وما كانت ابنتي آرليت تخرج الا فيما ندر . ذهبت مرة واحدة فقط الى حفلة القرية الراقصة (كان ذلك في الاحد الاخير من شهر آب ١٩٧١) مع السيدة م... التي كانت ترافق ايضا ابنتها الى الحفلة ، وذهبت مرة او مرتين مع اخيها الى السينما ، وعلى الدوام برفقة واحد منا . الجيران جميعا سينبئونك بذلك . كانت فتاة رصينة ، دائمة الابتسام ، لطيفة مع الناس جميعا ، وهي تعبد الاطفال . ما كانت تربيته لتطرح مشكلة . ولاسيما انه كان في مستطاعي ان احصل على المساعدة من مديرتي . ان لدي الكثير من اغراض الرضع الذين أرعاهم ، وسريرا صغيرا لا يشغله احد ؛ وفي ايامنا هذه ، تغفر اشياء كثيرة . وأشد ما يحز في نفسي انه لم يخامرني ظل من شك في احتمال أن تكون ابنتي حاملا . وإلا لكنت تدبرت نفسي لأفعل شيئا ما . لقد انتبهت الى انها تزداد سمنة ، ولكن بما

انها ذات بنية قوية وممتلئة ، وبخاصة عند الحـــوض والفخذين ، فقد حسبت انها سمنة ناجمة عن الشراهة.
كنت اقول لها : «أقلّي مما تأكلينه من الكاتو والسكاكر، وإلا فستصيرين ، انا لا أريد كسفك ، مثل كوكو» (ابنة اخي زوجي ، وهي بدينة حقا ؛ وعلى كل حال ، ان جميع اقارب زوجي ميالون الى السمنة المفرطة ؛ كذلك لسنا، من ناحية أهلي ، بالنحفاء) . لو لم تكن ابنتي رصينة ، لكان انتابني القلق ، ولكنت قلت بيني وبين نفسي: «انها تخفي عني شيئا ما» ، ولكنت اخذتهـــا الى الطبيب ليفحصها من دون علمها .
جيرار ج... هو ابن اصدقائنا الذين يسكنـــون مقابلنا . والد لطفل في السادسة من العمر والآخر في الثانية ، وزوجته لطيفة للغاية . اهله في غاية الحزن منذ ان وقعت تلك القصة . تركهم ولم يعد اليهم قط . وقد علمت ان لديه محاميا . الجميع ينصحوننا بمقاضاته بتهمة التغرير بقاصرة . لكننا ، انا وزوجي ، نريد ان نتجنب ذلك . بالطبع ، عليه ان يدفع اكبر قدر ممكن من المال لصالح الايتام . اننا نشفق على طفليه وزوجته المسكينة ، لكن ليس عليه . لقد كانت لنا به ثقة كبيرة ، مما يتعذر معه ان نسامحه .
آمل ، ايها الاستاذة المحامية ، ان تساعدينا ، بوجه خاص ، على انقاذ ابنتنا العزيزة .
سأتصل بك هاتفيا ، كما هو متفق عليه ، يـــوم الثلاثاء ٢١ في الساعة ١١٫٣٠ او ١٢ .
نشكرك سلفا من كل قلبنا » .

التوقيع : السيدة و...

شيء رهيب ، ولكنه موجود ! وفي عام ١٩٧٣ ! في عصر التقدم هذا ، وعلى مسافة بضعة كيلومترات من باريس ! تلك الفتاة الصغيرة التي لا يزيد عمرها على خمسة عشر عاما ، الخائفة الى حد الرعب من والدها ، الخرساء مع امها ، التي وضعت «كحيوان متوحش عند طرف سريرها» ، والمتهمة فوق ذلك كله بقتل طفلها !... ومعها والدها ووالدتها واخوها البالغ من العمر ثمانية عشر عاما !

الى هذه الرضة ، التي اخشى الا تبل من عواقبها ابدا ، اضاف المجتمع محنة الاستجواب البوليسي ، ومانوية قاضي التحقيق ، والمواجهات ، وتكديس التفاصيل المتعلقة بالحياة الشخصية الحميمة ، والاسئلة المحرجة . هل كانت آرليت عذراء **قبلا** ؟ **أحقا** ؟ كيف مارست الحب ؟ ألديه ؟ أفي السيارة **ايضا** . وكم مرة ؟ والطفل ؟ لقد ارادت قتله... تلك هي البداهة بعينها. **لا جدوى من الانكار** ... هذا ما سيقال لآرليت التي ستحاول ان تجيب وتشرح بصوت مخنوق . انها لم تستيقظ . ما تزال تتخبط في الكابوس الدموي . كلا ، لم تشأ ان تقتله . كل ما هنالك انها لم تعرف . ما كانت تعرف كيف يقطع حبل السرة . كلا ... لم تسمع قط بالحب ، بالعلاقات الجنسية ... الحمل؟ كلا ، لم تكلم احدا بالامر . اجل ، كانت تخاف من والدها لفظاظته . أمها ؟ كانت هي الاخرى تخاف من الاب . هكذا هو الواقع . في المدرسة ؟ لا شيء . كلا ، لا وجود فيها لتربية جنسية . منع الحمل ؟ لم تسمع به قط .

آرليت طفلة كبيرة . بشرتها وردية ، ووجهها مستدير ممتلىء. لكن في عينيها الزرقاوين كالبحيرات ، غالبا ما ارى ألم اسئلة لا جواب لها ، اسئلة الطفولة الكبرى ، الاساسية . لمَ ذلك الالم ؟ لمَ ذلك الخوف ؟ لمَ هذا العالم ؟ هذا القلق الذي يهصرها هصرا ما امكن تسكينه الا بالفاليوم والمهدئات والمعالجة النفسية.

طفلها مات لان العالم من حولها لبث على صمته وعدائه ، وأنا أعتقد ان آرليت تبكيه . على كل حال ، لم تعد تعرف كيف تميز . مرة او مرتين قالت لي : «طفلي ...» .

اليوم لم تعد آرليت مجرمة قيد الافراج المؤقت . فقد استفادت ، شأن سائر أفراد أسرتها ، من قرار بألا وجه لاقامة الدعوى . وقد اخذ ملف القضية طريقه الى دائرة المحفوظات . وهذا امر هام . ووضع آرليت يتحسن . تبتسم ، تعمل ، تناضل . صارت عضوة دائمة في **«اختيار»** . لاول مرة في حياتها ، تجد نفسها وسط أتراب لها نشيطات ، عطوفات ، وبالطبع قريبات منها . وهذا سيفيدها كثيرا .

يبقى ان الصدمة صدمة . وثمة لحظات يغيب فيها من وجهها كل أثر للنور ، وتغيم نظرتها . كلا ، آرليت لم تشف ...

***

موضوعيا ، ارى ان تحرير المرأة معناه تحرير الرجل . لكن سأضيف على الفور : هذه المشكلة ليست أولوية ولا تستدعي الاهتمام بها على المدى القصير بالنسبة الى النساء اللائي يناضلن اليوم . قد يبدو ما اقوله متناقضا ، لكنه ليس كذلك . وهاكم تعليلي : ان المضطهِد هو الرجل ، الرجل وعلاقته بالمرأة . هدف نضالات النساء اذن واضح : نزع سلاح المضطهِد ، تجريده من امتيازاته .

الا تعتقدون ، والحالة هذه ، انه من اللامنطقي ــ بل مما يثبط العزائم ــ ان نصيح بالمضطهَدات المتقدمات في مسيرتهن : «حذار ! لا تنسين انكن تقاتلن ايضا من اجل مضطهِديكن !» . حتى وان تكن هذه الحرب تشتمل جدليا وعلى المدى الطويل على تحرر السادة ، فان استراتيجية هذا النضال لا يمكن ان يطرأ

عليها بنتيجة ذلك اي تعديل .

لا أعتقد بصريح العبارة انه في وسع الرجال ان يساهموا في نضالنا ، وان كانوا معنيين به في التحليل الاخير . خلا بعض استثناءات بكل تأكيد . وقد لا يكون ذلك اكثر من رهان نعقده. رهان آخر . لكن مع الاحتراس من كل وهم عاطفي . بالتزامنا جانب الحذر واليقظة ، بعقدنا الامل على ان يتوفر للرجال ايضا «العقل النظري» لتحررهم من خلال تحررنا .

لكن حذار من الحرية التي توهب للنساء هبة ! وما اكثر المناورين الذين لن يحجموا عن القول بكل زلفى : اننا ، نحن النساء ، ناضجات للاستعمار الجديد بدل القديم .

يستدعي تحرير المرأة تغييرا فيالبنى والعلاقات الاقتصادية. لكن كذلك تغييرا في الشكل «المذكر» للسلطة . بل ــ وذلك هو حجر محك معركتنا ــ ثورة في العقليات . عالم ينبغي تغييره في علاقاته ، في ثقافته . وعلى الرجل ان يتعلم من جديد كيفية العيش . الرجل الجديد سيكون حرا ، لانه لن يعود في وضع المضطهد . وكما ان البلد الذي يضطهد بلدا آخر ليس حرا ، كذلك لن يكون في مقدور الرجل ان ينسب نفسه الى الحرية الا اذا كانت المرأة تتمتع بها مثله بنصيب كامل . وبتحرر المرأة يمكن للرجل ان يحطم الغل الذي يشد على خناقه ، اي الواجب المفروض عليه بأن يكون على مستوى الصورة السائدة . وسيكون بوسعه ان يلقي ارضا أقنعته ، وأن ينسى متاعب الرجولة الظافرة ، تلك الاسطورة المرتد كيدها على اصحابها ...

ثمة امكانية لان تولد بين المراة والرجل مقاربة جديدة ، علاقة جديدة . وفي الواقع ، سيكون كل شيء قد تغير : الجنس ، تقاسم الاعباء ، اللغة . طريقة اخرى في فهم الحياة . تقاسم عادل ومسؤول بين حريتين متعادلتين .

ثورة نساء ؟ لا أعتقد . لكن النساء ، جناح سائر لثـــــورة
جديدة ، أجل !
بكل تأكيد ، أجل !

الفصل الاخير من كتابها «قضية النساء»

نضال النساء والثورة

بقلم آني وآن

١ ـ وزن التاريخ

لا تمثل النساء في ما يسمى **بالتاريخ** الا بصفة عاشقات او دساسات او مسممات مشهورات . يمر تاريخ النساء بالفراش، ويقرأ أفقيا . وبالمقابل ، فان تاريخ عظام الرجال ـ لم يبدأ الحديث عن غيرهم من البشر الا منذ عهد قريب ـ يقرأ عموديا . وهم لا يصورون الا وقوفا ، حتى وان كان الالهام قد نزل عليهم رقودا .

لم يُحفظ شيء عن النساء اللائي قاومن ، منذ ان وجد اضطهادهن ، الشرط المفروض عليهن. بالكاد تعليق قصير ساخر، ادهى وقعا حتى من السكوت . **والتاريخ** كما يعلموننا اياه يعودنا على اضطهادنا ويثبط كل همة فينا للتمرد. هكذا نتعلم، كما لو ان

الامر من البديهيات ، ان المرأة تخص في نظر نابليون الرجل كما يخص التفاح البستاني ، وان شريعة الافرنج كانت تحظر على النساء اعتلاء العرش ، وأن هنري الثامن ملك انكلترا كان قانطا من كون جميع اولاده اناثا... وبالمقابل ، يسدل ستار من الصمت على الصفات السياسية لكاترين الروسية او اليزابيت الانكليزية او ايزابيلا القشتالية ، ليكون التركيز ، كل التركيز، على صفاتهن الجنسية المضخمة كاريكاتورياً . وهوان الماضي قابل للاحتمال عند الاقتضاء لو كان يرد ، بالتوازي ، ذكر لتمرد اولئك اللواتي لم ينؤن تحت وطأته بسلبية . والحال ان ثمة اغفالا تاما لهـذا التمرد . واذا ما دار كلام عن الامازونيات فكأنما عن خرافة واسطورة ، ولا تمثل الساحرات الا بصفة شخصيات ثانوية في محارق محاكم التفتيش . اما المستنخبات فقد تعرضن ويتعرضن لسخرية لم يجرؤ احد قط على ان يقابل بمثلها اي حركة اخرى من حركات التمرد ...

ان اضطهاد النساء لا يصور ابدا على انه اضطهاد ، وهو لا يظهر الا على هامش حدث رئيسي . ولو كان اخذ بعين الاعتبار ، لكان توجب بالبداهة ان يُفضح المسؤولون عنه ، اي الرجال . هكذا نرى ان هناك بالنسبة الى الاولاد جميعا تاريخا ، وهو التاريخ الذي يتعلمونه في المدرسة والتجهيز ، تاريخ الرجال الذي يصم الجنس المؤنث بعلامة الدونية . وليس امام صغار البنات سوى دفاع واحد : الا يتعرفن انفسهن كنساء وأن يسعين الى التميز والتمايز بانحيازهن الى معسكر الرجال . ويواجه السود الموقف ذاته ، وقد نوه بذلك ، بين من نوه به ، جيمس بالدوين (مقابلة في «الاكسبريس» في ٢١ ـ ٢٧ آب ١٩٧٢) : «ماذا يتعلم الى يومنا هذا الطفل الاسود في المدرسة ؟ الموجزات المدرسية تصفه ككائن أدنى ، كطرزان دون . وفي البداية ، يحاول ان يقلد البيض . ثم يتبين انه لا يملك ان يفعل شيئا .

فيبقى زنجيا قذرا . وقد استغرقنا زمنا حتى قبلنا انفسنا بين بعضنا بعضا ، وحتى نتحابب فيما بيننا» .

ان كل مناضلة نسوية تعيش بدورها هذه المراحل الثلاث من الوعي : الهوان ، رفض تعرف نفسها في النساء الاخريات ، واخيرا المطالبة بهويتها . لكن نظرا الى ان النسوية ليس لها تاريخ رسمي ، فان كل امرأة تتمرد في البدء في معزل عن الاخريات . ان عليها ان تجد وتكتشف كل شيء بمفردها ، واذا ما بقيت بمفردها ، ما افاد تمردها شيئا الا في تسميم حياتها في خاتمة المطاف . واذا التقت نساء أخريات سبق لهن ان فكرن او كتبن ما فهمته ، فعندئذ يخيل اليها انها واجدة جذورها وتعرفا واخيرا مبررا للحياة . وتتلاقى في أرجاء شتى من العالم أعداد متزايدة من النساء ممن يتمردن على ما صنعه بهن عالم الرجال . لكن عالم الرجال ليس له مصلحة في ان يستذكر الافكار والنضالات النسوية تحاشيا لكل تراث ولكل استمرارية في التمرد الذي يضعه موضع سؤال . والى يومنا هذا لم تكن الظروف ناضجة لكي يكون تمرد النساء جماعيا ، بيد انها طفقت اليوم تتبدل .

٢ ـ حقوق لامجدية ينبغي انتزاعها :

هذه الظروف تتغير في الاقطار الراسمالية المتقدمة حيث تظهر تحديدا حركات النساء . فالنساء ، نساء الطبقة صاحبة الامتيازات ، يفزن اكثر فأكثر ببعض الحقوق الموقوفة على الرجال . حقوق سياسية ، وحق التعلم . وعندئذ بالضبط ، وعلى اعتبار تساويهن نظريا مع الرجال ، يجدن انفسهن في موقف موضوعي من الدونية ومن قبيل ذلك ان المراة المهندسة الحاصلة على نفس دبلوم زميلها المذكر تلاحظ انها لن تصل ابدا

الى نفس المنصب الذي يستطيع ان يصل اليه هو ، وانها هي التي تواصل في البيت ، سواء أكانت مهندسة ام لم تكن ، الكنس والمسح والطهي . انها تطرح على نفسها اسئلة بصدد التساوي الذائع الصيت بين الجنسين ، ويتضح لها انها لن تكون ابدا الا محدثة نعمة في مجتمع لا يمانع في منحها بعض الحقوق ، لكنه لا يسمح لها بأن تستعملها . وعندئذ تفهم ان النضال في سبيل محض حقوق لا يعني شيئا في ذاته . لكن لا بد ان تكون لها حقوق لتلاحظ انها لا تمثل سوى وهم تحرر في نظام استغلالي لا وجود فيه لتلك الحقوق فعلا الا بالنسبة الى المستغِلين .

ان الرائدات النسويات الاوائل ، اللائي ما كن يتمتعن بأي حق ، ما كن في وضع يؤهلهن لفهم ذلك . لكنهن اذ أتحن لنا بفضل نضالاتهن امكانية انتزاع تلك الحقوق ، قدمن لنا الوسائل لكي نفهم ان نضالنا لم يعد هدفه الحصول على بعض حقوق اضافية في ظل ذلك النظام الاستغلالي ، وانما التصدي لكل نظام تسود فيه اللامساواة في الحقوق . ثمة استمرار اذن بين نضالهن ونضالنا . ونحن ننتمي مثلهن الى طبقات لها امتيازاتها : فالواحدة منا تصل الى وعي الاضطهاد بسرعة اكبر طردا مع ما يتاح لها من وقت ووسائل .

ان الجيل الاول من المناضلات النسويات المحدثات لا ينجو بوجه عام من الاستغلال الطبقي فحسب ، بل ايضا ، والى حد ما ، من الاستغلال الجنسي ، وذلك ما دمن يرفضن الاطر التي تكون فيها العلاقة بين الجنسين مثقلة بالقيود والاكراهات ، اي الزواج والاسرة . انهن يقفن من الاساس على هامش المجتمع المذكر برفضهن ايضا الاندماج في هرم العمل وبنبذهن مخططاته الايديولوجية . بيد انهن يشعرن على الدوام بأنهن ضحايا شرطهن ، لانهن حتى وان نحين جانبا العوامل الخارجية المباشرة، فانهن يلبثن ، من جهة ، خاضعات لاعتداءات ذلك المجتمع التي

ترجعهن الى جنسهن، ومتمثلات من الجهة الثانية لعملية التكييف التي تثبتهن في دونيتهن والتي يناضلن ضدها خطوة خطوة .

لا تضم حركات النساء اذن نساء «حرات» كما قد يتخيل المرء ، بل على العكس تماما : فهي تضم نساء يحاولن ان يتحررن من ثوبهن الرث «النسائي» ، لا ان يضعن انفسهن اكثر من السابق تحت تصرف رغائب الرجال . ان المرأة «الحرة» توحي وكأن مشكلة الاضطهاد قد حلت ، مع انه لم يجر قط التصدي لها بصورة جماعية من قبل اولئك اللواتي تعنيهن مباشرة . وفي الواقع ، انها ما تزال تُستغل ويتلاعب بها من قبل الرجال . وهؤلاء الاخيرون يحاولون ان يستعيدوا وأن يحاصروا مطالبنا ، تلافيا من جهة اولى لخطر امكان شن النساء لنضال جذري ، وخدمة من الجهة الثانية لمصالحهم القصيرة الامد .

هكذا نعاين ان نضالنا في سبيل حرية الاجهاض ومنع الحمل يجري تفسيره بالمعنى الذي يخدم مصالح الرجال الجنسية . فما اكثر النساء اللواتي تطرق آذانهن من الان فصاعدا تهمة «التأخر» لانهن لا يتناولن أقراص منع الحمل ولا يضعن انفسهن تحت تصرف الرغائب المذكرة . ولن نكون مسرفين مهما الححنا على الطابع الكاريكاتوري لمثل هذا «التحرر» . فكلما تناولنا المزيد من اقراص منع الحمل ، تعاظمت حرية الرجال جنسيا ! ورغائبنا ليست منوطة بعدد أقراص منع الحمل التي نبتلعها ، وانما بتدمير المحرمات الجنسية التي ارسخت فينا . ولنكرر القول بأن نضالنا في سبيل حرية التصرف بجسدنا يحتل مكانه ضمن المنظور الشامل للنضالات التحررية .

اما اذا جرى عزله وجعل منه هدفا في ذاته ، فلا يكون له من معنى البتة . انه لا يضع في قفص الاتهام مجتمع الرجال ، بل يخدمهم . وبالمقابل ، فان لهم مصلحة في ان «يقسمونا» الى فئات متناحرة .

ان توصلهم الى اقناعنا بأننا ننتمي الى طبقة قبل ان ننتمي الى الجنس ، يعني تأليبنا بعضنا على بعض ، وحجب ما يوحد بيننا ضد عدو مشترك ما هو بالطبقة . انـــه كسب للوقت . فالمطلوب ابقاء النساء في معسكرات اضطهاداتهن الموضوعيـــة بإيهامهن بأن الاضطهاد موجود على الدوام في مكان آخر غـــير جنسهن . وعليه ، حين نؤكد اننا نعاني بصفتنا نساء ، كائنة ما كانت طبقتنا الاجتماعية ، من اضطهاد نوعي يوحد بيننا جميعا ويخترق الطبقات والاعمار والعروق كافة ، يأتي رد الفعل عنيفا من جانب اولئك الذين يضعون انفسهم في خدمة «الثورة» . لاننا اذ نطرح انفسنا كنوع مضطهَد ، نكون قد وقفنا بالحتم والضرورة موقف المعارضة حيال اولئك الذين يضطهدوننا .

٣ ـ جذور السيطرة .

هنا نكون قد ادركنا لب المشكلة . فعلى الرغم من جميـــع الحقوق المكتسبة ، ما نزال نحتل موقعنا كجنس ثان . والماضي لم يمت كما يراد لنا ان نعتقد . ولم يعد ثمة مجال لعقد الرجاء على ان الوضع سيتغير . والاسباب الموضوعية لوضعنا هي وتبقى ما كانته على الدوام في الازمنة الاولى للبشرية : ارادة سيطـــرة جنس على الآخر . وهذا لاننا ما نزال في الحضارة الابوية ذاتها، الموسومة بانقسام الجنسين ، الذي هو اقدم نموذج للاستغلال . ولهذا تعاود الحركة النسوية ظهورها من الان فصاعـــدا بقوة ما امكن لها قط ان تعرفها . وفرصها في التمكن من التصدي لجذور النظام المذكر بالذات اكبر : فما عاد ثمة مجال لان تندمج النساء المتمردات بهذا العالم ، بل امسى الهدف تدمير قوانينه وقيمه .

وبالفعل ، يجب ان نضع انفسنا في منظور حضارة ، لا في منظور النظام السياسي الراهن فحسب ، حتى نفهم مكان النساء

في النضالات الثورية الرامية الى «تغيير العالم» . ان هذا العالم يحمل تاريخا محددا ، ويطابق حقبة قصيرة من تاريخ النوع البشري الذي له ماض طويل ومستقبل نعجز نحن عن قياسه . هذا العالم موسوم بتقسيم العمل ، وبانفصال الجنسين ، وبتقدم جنس على الآخر «يضع علامة زائد على كل ما يضمه وعلامة ناقص على كل ما يستبعده» (**المجتمع المضاد للطبيعة** ، سيرج موسكوفيشي ، ص ٢٦٨) . انقسام وسيطرة مضت عليهما الوف من السنين حتى ليزعم الزاعمون انهما «طبيعيان» . والحال ان المؤلَّف الآنف الذكر يبين الى اي حد تكذب الملاحظة الرصينة للمجتمعات الحيوانية والبشرية وجود التناحر المزعوم بين الطبيعة والثقافة . واذا كانت الطبيعة والثقافة لا تقبلان انفصالا واحدتهما عن الاخرى ، واذا كانت واحدتهما تتضمن الاخرى ، فان الحجج التقليدية عن «طبيعة» النساء التي يزعم الزاعمون انها علة دونيتهن تمسي لاغية . فلئن يكن تاريخ الانسان منسوجا لحمة وسدى من التبدلات التي يحدثها في محيطه وفي نفسه ، فكيف نفسر امكانية بقاء جزيرة صغيرة من البشرية ــ النساء ــ تقودها غرائزها وتنصاع لقوانين النوع ؟ انه لتناقض فاضح غرضه تدعيم الاستعباد ، الثقافي بالبداهة ، لنصف البشرية .

ان واقعة حمل الاولاد وانجابهم لا تمثل في حد ذاتها ضعفا ، بل سلطة : سلطة تأمين بقاء النوع . ولئن أفلح نصف البشرية المذكر في ان يجعل منه عبودية ، فهذا لا يمت بصلة الى «الطبيعة» . بل من الممكن الكلام ، بالمقابل ، عن استيلاء على السلطة من جانب اولئك الذين حرموا منها «طبيعيا» . ونظرا الى اختلاف الاعمال التي يتولاها كل جنس (القنص للرجال، والقطاف للنساء) ، فقد كان الاولاد يشكلون ، من حيث كونهم يدا عاملة ، موضوع رهان بالغ الاهمية تتخاصم عليه فئتا المنتجين ، اي الجنسان . وقد كان للنساء في هذا الصراع ميزة على الرجال

لانهن هن اللواتي ينجبن الاولاد ويغذينهم في السنوات الاولى من حياتهم . وقد كان المطلوب انتزاع الصبيان من النساء ، على اعتبار ان تقسيم على اساس الجنس كان يضيف بصورة تلقائية البنات الى جيش النساء . والحال ان الوسيلة التقليدية لتجريد جماعة ما من سلطان لها هي السيطرة عليها . على هذا النحو يسيطر الراسماليون على البروليتاريين لاغتصاب ثمرة عملهم منهم .

«من اللحظة التي يحرز فيها كل جنس مؤهلات خاصة ويهيمن على مجال عمله النوعي ، تغدو الذرية المذكرة موضوعا لرهان جسيم . وفرض الرجال سيطرتهم في مضمار الحياة الجماعية يسمح لهم بالاستحواذ على موضوع الرهان» (المصدر الآنف ، ص ٣٢١) .

كان من الممكن للرجال ان يأخذوا بحل آخر، وهو ان يشاطروا النساء تلك السلطة ، وبعبارة اخرى ان يتولوا معهن أعباء رعاية الاولاد وتربيتهم . لكن المجتمع المذكر يفضل ألا يرى الى الحياة الا من منظار مفاهيم السيطرة .

ان الاستيلاء على السلطة يظل قائما ، حتى ولو أسدل عليه قناع . تشهد على ذلك المراوغات العامة بصدد الاجهاض . وفي الواقع ، يرمي مجتمع الرجال الى الاستمرار في وضع اليد على قدرتنا على الانجاب ، مع مواصلته ارغامنا على أن نتحمل وحدنا عبء الاولاد . ومن البدهي ان الحضارة المذكرة التي استملكت قدرتنا على الانجاب لغايات تقررها هي وحدها ليس لها من مصلحة في الاعتراف لنا بالحق في تقرير مصير جسدنا بحرية . ولهذا نراهم يعربون عن الرغبة في عرض كل امرأة تريد الاجهاض على خبراء . فعليها ان تبرر طلبها ، والخبراء هم الذين سيقبلونه او يردونه وفق معايير مجتمع الرجال . اما التدابير المرافقة لمشروع اباحة الاجهاض، كالاجر الاجتماعي المخصص للمرأة، فهي وسيلة اريبة لتعزيز عبوديتنا البيتية ، ولحصرنا في دعوتنا

الامومية ، مع تحرير الرجال والسلطات العامة من كل مسؤولية في تحمل عبء رعاية الاطفال بصورة فعلية .

انه موقف نموذجي للمجتمع المذكر : فهو يغتصب سلطة وقدرة بدلا من ان يتحمل عبئا يأبى تحمله .

وفي هذه الحال ، نستطيع ان نطرح السؤال التالي : أليس العنف والاستغلال الميزان للمجتمعات المذكرة ضربا من الاسقاط القلق للحرمان الاصلي الكبير الذي يشكو منه الذكور : استحالة انجابهم للاولاد ؟ ان أسطورة حواء ، التي خلقت من ضلع من آدم ـ وهذا قلب «طبيعي» ـ تبعث على التفكير على الاقل . كذلك فان طقوسا كطقوس المسارّة Initiation في المجتمعات القديمة بليغة الدلالة بصدد اوهام الذكور . فالهدف من هذه الطقوس انتزاع الابناء المراهقين من أمهاتهم لادخالهم في مجتمع الرجال . والرمزية احيانا مذهلة حقا : فالرجال يحاكون عملية الولادة ليجعلوا المراهق يولد على حياة الرجال . المجتمع اذن ينتزع من المرأة ملكية الولد الذي ادرك سن الرشد .

أيجب ان نغرق في عالم مذكر القيم الى حد تخترع معه «شهوة قضيب» (١) مزعومة لدى المرأة ، في الوقت الذي لا تذكر فيه كلمة واحدة عن شهوة الحمل الراجحة الاحتمال جدا التي تتسلط على عدد لا يستهان به من الرجال والتي تنعكس في طقوس حضارتهم وأساطيرها !

ان القوانين الاساسية لهذه الحضارة تبدو وكأنها ضمانات لتعزيز الاستيلاء على السلطة من قبل جنس على الآخر . هكذا نجد أصول القرابة في اساس وضعنا كمضطهَدات : حظر حب

---

١ ـ انظر رد كيت ميليت في مكان اخر من هذا الكتاب على فرضية فرويد هذه . «م»

المحارم ، قواعد الزواج الخارجي . وبذلك نصير مجرد حلقة لازمة في انجاب الاولاد وفي تحمل عبء تنشئتهم . اما الباقي فهو من شأن الرجال . اننا موجودات **لدى** الرجال ، مثلما تندرج المرأة في بشرية الرجال ، ومثلما يندرج المؤنث في المذكر الجمعي ما دام «المذكر يغلب المؤنث» . واذا ما شرعت النساء اللائي قامت الحضارة الابوية برسمهن وعلى حسابهن بانتهاك قوانين الذكور ، فان البناية برمتها تغدو مهددة . لهذا يتحفظ **تاريخ** الرجال من الاتيان بذكر تمرد النساء او يحيّده عن طريق تسخيفه . فالامر بالغ الخطورة بحيث ان افضل الحلول هو التندر عليه . لهذا يذود الرجال جميعا ، بمن فيهم اولئك الذين يزعمون انفسهم ثوريين ، بجميع الوسائل عن ذواتهم ضد الخوف الكبير .

٤ ـ النظريات التبسيطية : ضمانة اضافية

ان حد العمل «الثوري» بالميدان الاقتصادي وحده يعني الافتراض بأن سائر أشكال الاضطهاد الاخرى (الجنس ، العرق، العمر ...) قابلة للاختزال الى واحد منها : الطبقة . والحال انه من الواضح انه اذا كانت النساء يعانين من نقص الاستخدام ومن نقص الاجور (٨٠ بالمئة من الشغيلات مقابل ٥٥ بالمئة فقط من الشغيلة يكسبن أقل من ١٧٥٠ فرنكا شهريا)، فهذا لان رب العمل ينظر الى المرأة العاملة نظرة مغايرة ومستخفة .

لكن ما ان تقوم الثورة الاقتصادية حتى يتضح ان الاستغلال يعاود ظهوره ويعيد توطيد نفسه في أشكال مغايرة ، لانه لم يجر التصدي الا لواحد من اشكاله ، دون النظر الى جذوره . واذا كان يراد بأي ثمن تحديد اضطهاد اول ، او رئيسي ، فانه والحالة هذه اضطهاد جنس للآخر . انه اول مرتين : اول في

تاريخ البشرية وأول بالنسبة الى كل فرد .

وبالفعل ، ماذا تظهر لنا الملاحظة الاولية للواقع ؟ قبل ان يعرف الكائن الانساني الى اي عرق او بيئة او ايديولوجيا ينتمي، يعرف على الفور وهو يفتح عينيه فياطار الاسرة انه انثى او ذكر. وجهاز الوليد ولُعَبه وأولى الكلمات التي يسمعها ترجعه الى جنسه . وهو يفهم بسرعة ان قطبيه العاطفيين اللذين اليهما مرجعه ، أعني الاب والام ، تقوم بينهما علاقة تباين وتراتب هرمي . والام تعطيه مباشرة الدفء والحليب وحضورا متواصلا. اما الاب فظهوره أقل انتظاما ، والانتباه الذي يخصه به أقل . وسرعان ما يتبين ان السلطة انما تأتي من ذاك الذي «يعلي صوته» حين لا يسير امر من الامور على ما يرام . وفي اطار الاسرة يتعلم الطفل ان العالم تتحكم به هيمنة بعضهم على بعضهم الآخر . وفي شخصه بالذات تكون اولى تجاربه مع السلطة والهيبة : فتبعا لكونه ذكرا او انثى ، سيمسك بزمامها ، او على العكس سيرزح تحت وطأتها .

اما سائر الاستغلالات الاخرى فما هي الا **صور منسوخة** للسيطرة الاصلية التي نحن جميعا شهود عليها في الاسرة . فالبابا يناظره الذكور البيض والراشدون والبورجوازيون ، والماما يناظرها الاحداث والشيوخ والنساء والبروليتاريون والملونون ، والمسمون ب «الشاذين» الجنسيين .

وعلى هذا الاساس ، صبت نظريات الرجال جهدها على تحليل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين فئات محددة من الرجال . كما صبت الماركسية جهدها على تسليط الضوء على علاقات الاستغلال بين فئة من الرجال ، البورجوازيين ، وبين فئة اخرى ، البروليتاريين ، في داخل مجتمع الرجال وفي اطار النشاط الوحيد المعترف به : الانتاج الذي يدر كسبا . لا غرو اذن ألا يكون ماركس قد مس مشكلة اضطهاد النساء النوعي الا

مسا خفيفا . وانه لمن مستتبعات المنطق المذكر ان يكون ورثة ماركس قد طوروا أبحاثه في الاتجاه الذي يسمح لهم بأن **ينحّوا** الى المرتبة الثانية نضال النساء . ففي العالم المذكر يمكن ان يبدو الصراع الطبقي أوليا ، اذا اكتفي بتحليل اقتصادي للعلاقات الاجتماعية .

بيد ان الواقع الانساني لا يقبل اختزالا الى تفسير وحيد . وقد اظهرت التجارب من النمط الاشتراكي ان الاستغلال لا يؤول الى حل بمجرد محاولة تغيير العلاقات الاقتصادية بين البشر . والاخفاق الظاهر بقدر او بآخر الذي كان من نصيب الثورات التي قامت حتى الان يجد تفسيره الى حد كبير في الطابع المحدود والمحصور للنضال المشنون .

ان كل شيء يجري كما لو ان المساعي المبذولة ترمي الى حل الاضطهادات على اساس طبقات متتابعة ، أظهرها للعيان أسهلها كشفا . ان الحضارة المذكرة تبدو اشبه ببصلة هائلة الحجم من الاستغلالات المتناضدة التي تكمن نواتها العميقة ، الاصلية ، في السيطرة المفروضة على النساء . وقد حان الاوان في البلدان الراسمالية المتقدمة لتحليل تلك الاستغلالات جميعا وللبحث لها عن حل اجمالي. ان «الثورة» ستكون شاملة او لن تكون. ونضال النساء ، بدل ان يكون «ثانويا» ، سيكون بالاحرى «أوليا» بالنسبة الى جميع المضطهِدين الذين يمكن ان يضمهم تحت لوائه وان يجرهم في مساره . وفي الواقع ، اننا سنتحفظ في ان نتبنى لحسابنا تلك المفردات التي تلعب فيها الاولويات دورا كذلك والتي ترن كتناقض في فم «الثوريين» المأخوذين بالمساواة . واننا لنأخذ شديد حذرنا من النظريات . فهي تكرس في الوقت الراهن سيطرة بعضهم ، سيطرة «المفكرين» الذهنية على «الجمهور» ، وتغدو امبريالية بقدر ما يكون الجمهور مكرها على البحث عن قوانين ايمان بسيطة في كل مكان . على هذا النحو نجد ان النظرية الماركسية ، التي قننها المتدلهون الضيقو الافق بها في

الاتجاه الذي يخدم مصالحهم المذكرة القصيرة الامد ، قد أخرت نضال النساء ونضال المضطهَدين الذين لا يمكن لهم الرجوع الى المعركة الطبقية .

ان خوف الرجال كبير وله ما يبرره . فسيكون متوجبا على البشرية في أرجح الظن ، اذا ما ارادت الانتقال الى طور آخر ، أن تواجه ارهب صراع عرفته قط ، الصراع بين الجنسين . ان هذا الصراع موجودة بذرته في حضارتنا القائمة على استرقاق جنس للآخر وعلى العنف الدائم المفروض على هذا الاخير . وما امكن قط التوصل الى حل اي اضطهاد بدون عنف ، وليس هناك اي سبب يدعو الى الاعتقاد بأن الاضطهاد الذي تنوء تحته النساء، وهو اضطهاد سحيق القدم ومتوارث ابا عن جد ، سيجد حله على اساس ودي . فالنصف المبعد ، المنبوذ ، من البشرية سيحتاج حتى يهتدي الى نفسه الى ان ينفصل عن اولئك الذين سيطروا عليه . ولن يكون مناص من المضي الى آخر المسافة المختلقة التي تفصل بين الجنسين للوصول الى مساواة لن تكون، عن غير هذا السبيل ، الا ترميما خادعا . ان المساواة في ظل نظام يمسك فيه بعضهم بزمام السلطة لن يكون مؤداها الا صدقات رحيمة من قبل ذلك «البعض» يتمنن بها على أولئك اللواتي لا يمسكن بزمامها واللواتي لا يقررن شيئا ابدا .

عن «الازمنة الحديثة»
«النساء يعاندن»
عدد خاص
نيسان ـ ايار ١٩٧٤

المرأة في العالم

بقلم آن وجاكلين

لما كان التحرر الجنسي وتحرر النساءيسيران في خط متوازٍ ومتلازم ، فان الدراسة التالية ستتناول وضع المرأة والحرية الجنسية في أقطار معينة تتميز بتقدمها التكنولوجي (الولايات المتحدة الاميركية) او الاجتماعي (السويد) او الايديولوجي (الاتحاد السوفياتي) . ثم ستتناول موقف الجماعات التي تريد تغيير الوضع ، كائنا ما كان ، وتتمثل هذه الجماعات في الثوريين الماركسيين وحركة ايار في فرنسا والحركة النسوية .

ومن الواجب ، بخصوص البلدان كما بخصوص الجماعات ، تمييز الاسطورة من الواقع . والاسطورة لها فائدتها لانها تنم عن ايديولوجيا بعينها . ومن قبيل ذلك ان الولايات المتحدة كانت تعتبر بلد النظام الاومي الى ان انفجرت فيها حركة تحرر النساء

التي جاءت لتناقض تلك المخططات المجردة الباعثة على الاطمئنان.

والمفروض بالسويد ، وباسكندنافيا بوجه عام ، انهما موطن الحرية الجنسية . حرية ما تني تبحث عن نفسها ، على اعتبار ان الصحافة تنقل الينا بالتواتر انباء «جسارات» جديدة في بلاد الشمال .

وفي الاتحاد السوفياتي ، من المسلم به ان النساء جميعا يعملن . وقد راجت ، وفق المراد ، صورة المراة العاملة في تفريغ البضائع ، المرتدية ثياب العمل الزرقاء ، الرافعة باهظ الاثقال .

فهل تمت ، والحالة هذه ، تصفية «الانوثة الازلية» ؟

اما الحركات الثورية الماركسية فقد طرحت بحزم وتصميم مبدأ المساواة بين الجنسين . بيد انها في غالب الاحيان لم تتخط عتبة المبادىء . فهل حقق الثوريون الجدد ، اي اولئك الذين ابرزتهم الى الوجود أحداث ايار ١٩٦٨ بوجه خاص ، تقدما بالنسبة الى اساتذتهم في التفكير ؟

تبقى النسوانيات Féministes ، وهي كلمة لا تتمتع بسمعة حسنة . فلماذا ، وهن من المشكلة في مكان المركز ؟

١ ــ الولايات المتحدة .

تقدم لنا الولايات المتحدة نموذج المجتمع الاكثر تقدما على وجه البسيطة من وجهة النظر التكنولوجية . وهو وضع يترتب عليه غنى مادي وفكري عظيم ، وتنوع كبير ايضا .

وما يجري في الولايات المتحدة لا يمكن ان يتركنا في لامبالاتنا ؛ فهو بعينه ما نجازف بالوصول اليه يوم ندرك تلك المرحلة من التطور .

اما من منظور التحرر الجنسي فلنتذكر ان الولايات المتحدة

هي بلد معهد كينزي والنشاط الجنسي المختبري (تجارب ماسترز وجونسون) ؛ بلد الاقراص المانعة للحمل ، والادب الخلاعي المباع في المخازن العامة ، والهيبيين الباحثين عن نمط حياة جديد . بيد انه ايضا بلد الممكنات جميعا ، الطليعي منها والرجعي . ومن قبيل ذلك ان جمعية «جون بيرش سوسايتي» ترى في التربية الجنسية المدرسية «مؤامرة شيوعية جديدة ترمي الى تمزيق اللحمة الاخلاقية للشبيبة الاميركية» . وفي مجلة **استيقظوا** ، التي يصدرها شهود يهوه والتي تطبع في بروكلين بمعدل ستة ملايين نسخة تقريبا ، يحدث اب ابنه عن الاستمناء على النحو التالي :

«ثمة اطباء يزعمون ان هذه العادة لا تضر الجسم ، لكن لا يجوز ان ننسى ان الافكار والصحة الروحية ، وهي أمور لا يقيم لها العديد من الاطباء وزنا ، هي اهم من الصحة البدنية» .

فسأل الابن :

– أصحيح ان تلك العادة قد تودي بصاحبها الى الجنون ؟

– **ليس تماما** ، لكنها قد تحول بين الصبي وبين التوازن العقلي السليم والسيطرة على الذات» .

وهذا ان كان يذكرنا بشيء ، فانما بأن الولايات المتحدة ، التي تحتل المرتبة الاولى في العالم في البحث العلمي ، ليست بعيدة ايضا عن الامساك بقصب السبق في مضمار التعمية والتجهيل .

لقد رسخ ني أذهان الكثيرين ان تحرر المرأة بلغ درجة من الكمال في الولايات المتحدة الى حد أمسى معه هذا البلد مملكة النظام الامومي بالذات . ونحن هنا في قلب الاسطورة . وفي الواقع ، ليس للمرأة الاميركية اي سلطة فعلية في المجتمع الاميركي ، اذ أدخل في ذهنها ان من واجبها ان تحد عالمها وصبواتها ببيتها . ولا سلطان لها على العالم الا بوساطة الرجل

الذي تكون قد افلحت في شده اليها ، مثلها في ذلك مثل المرأة اللاتينية تماما .

في شروط كهذه ، لا يمكن ان تكون سلطتها الا سلطة كاذبة: سلطة مستعارة حين تكون هي سلطة المال الذي لا تكسبه بنفسها، بل يأتيها عن طريق الرجل ، وسلطة خطرة حين تكون هي السلطة التي تمارسها على أسرتها التي تخنقها تحت وطأة المطالب الاحباطية لتلك الحياة بالوكالة . وعليه ، ان البغض والخوف المتعاظمين اللذين يخالجان الاميركي تجاه المرأة ، كما يعكسهما الادب والسينما بوجه خاص ، لا يتأتيان كما يسود الاعتقاد من سيطرة مجاوزة الحدود للمرأة، وانما هما نتيجة ذلك التمجيد الاصطناعي للانوثة التي يفترض فيها انها لا تعرف سبيلا الى التفتح والتألق الا داخل جدران البيت .

تجد الفتاة نفسها في مواجهة مطلبين متنافيين : مطلب الاستجابة للصورة التي تقترحها عليها «الصوفية» المؤنثة المطابقة لايديولوجيا طهرانية ، ومطلب اكتساب خبرات وتجارب جنسية. فعليها في آن واحد ان «تحفظ نفسها» لذاك الذي ستعود اليه ذات يوم شرعا ، والا تبدو في الوقت نفسه في مظهر البريئة الساذجة . وهذا وضع نموذجي لتحرر كاذب .

ماذا يوجد خلف جميع هذه الصور المتناقضة لمجتمع واحد ؟ خلف هذا الاستهلاك النهم للجنس الذي تصاحبه اكثر أشكال الطهرانية رجعية ؟

حتى يقوم لدينا مشروع تفسير ، فلا بد ان ننظر صوب السلطة الفعلية وأن نفهم ما كنه اهدافها . والحال ان السلطة ليست بين أيدي العلماء : فمعروف كيف تتم غربلة النتائج العلمية حتى لا يمر منها سوى ما يخدم الايديولوجيا السائدة . والسلطة ليست ، بالاولى ، بين يدي المرأة ، الحبيسة ضمن إسار أسرتها . انما السلطة قبل كل شيء في أيدي اولئك الذين يبيعون ، اي في المنشآت والمؤسسات التجارية .

والحال انه من المعلوم ان تحرر اللغة والمخيلة في مضمار الجنس يفتح سوقا جديدة ما تزال في الطور الاول من الاستثمار. وهذه السوق تدر قدرا من الارباح يتعاظم بنقص التلبية الجنسية، لان الطلب في هذه الحال لن يزداد الا اهمية . والادب الخلاعي كما يعلن عن نفسه في الوقت الراهن (١) مرتبط بالحرمان الجنسي وبفكرة الحظر والنهي المميزة للجنس في حضارتنا . وبالطبع ، ليس الادب الخلاعي بظاهرة جديدة ، وانما الجديد انتشاره و«دقرطته» . وقد كانت موضوعته المأثورة على الدوام المرأة المصورة في صورة موضوع جنسي . وعليه ، سوف يجري الالحاح على دور المرأة كموضوع جنسي لرفع نسبة المبيعات ، وهذا ما يتناقض تناقضا فاضحا وشاملا مع تحرر المرأة التي تريد ان تصبح ذاتا .

بيد ان المرأة ـ الموضوع الجنسي لا تسمح فقط بترويج تجارة الجنس ، بل تصبح رمزا للاستهلاك بالذات ، والموضوعة الإساسية في الاعلان . ولنذكر هنا هذا الاعلان بين المئات غيره : «سيجاره ، امرأته ، سيارته» . حول المرأة ومن اجل المرأة يجري تنظيم الاستهلاك. وأخيرا ، وهذا أبرع مقالب المجتمع الرأسمالي، تغدو المرأة نفسها المستهلكة الكبرى ، وعلى الاخص بعد سجنها بين الجدران الاربعة لبيتها الكلي القداسة حيث تستولي عليها الحيرة حيال ما ينبغي عليها شراؤه لتشغل ذاتها ولتوحي الى نفسها بأنها موجودة فعلا . وهكذا تخدم المرأة الاستهلاك ثلاثا : انها تُشرى ، وتحض على الشراء ، وتشتري . وهذه اوالية لا يمكن للمجتمع الرأسمالي استغناء عنها .

---

١ ـ معلوم ان الولايات المتحدة امست اليوم ، وبعد رفع التحظير الشرعي عن الادب الخلاعي ، اكبر منتج ومصدر لهذا الادب في العالم . «م»

لقد سبق ان سلط الضوء على ذلك كله . لكن ثمة ما هـــو اخفى على النظر . فلزيادة المبيعات ، لا بد من زيادة الانتاج ، ولا بد من تشغيل الكوادر ، عماد النظام ، الى اقصى حد ممكن. وها هم علماء النفس في متناول اليد لدراسة خير وسيلة للحصول من كل واحد على الحد الاقصى من المردود . والشركة تعرف بوجه خاص كيف تغل اليها مستخدمها بعرضها عليه ، في سياق عمل محموم الوتيرة طردا مع ضراوة المزاحمة ، حياة أسفار عمـــل باذخة . انه انتصار علم أدارة الاعمال Management .

بيد ان مدراء الاعمال سرعان ما تبينوا انهم لا يشرفون على كل شيء لدى مستخدميهم : «اننا نراقب ونضبط محيط الرجل في العمل ، لكنه يغيب عن أنظارنا تماما حين يجتاز عتبة بيته» . هذا ما لاحظه بمرارة واحد من مدراء الاعمال . ولهذا ايضا فكـــروا بفرض رقابتهم على بيته ايضا ، وبخاصة على زوجته . فما هو اذن دور الزوجة المثالية للمستخدم من الكوادر ؟

«على الادارة ان تجهد لتنمي لدى زوجته موقفـــا بنـّاء ، مناسبا ، يحرر **كامل طاقة زوجها برسم عمله**» (و. هـ. هوايت الابن : **«مشكلة الزوجة»** فـــي **«دراسات مختارة في الزواج والاسرة»** ، الناشر ونش وماك جينس وبارينغـــر ، ١٩٦٢ ، ص ١١١ ــ ١٢٦) . فما السبيل الى تحرير تلك الطاقة ؟ لقد قام كاتب المقال باستجواب زوجات الكوادر انفسهن : فعلى زوجـة الكادر ان تنسى نفسها ومطالبها وأن تنحني امام مقتضيات مهنة زوجها ، بيد ان سلبيتها هذه «ايجابية» تماما لانها هي التـــي تستقبل الرجل المتعب ، وتؤاسيه وتشد عزمه .

«ان زوجة الكادر ، المعادية بحزم وتصميم لحركة تحـــرر المرأة ، تفهم دورها على انه دور «المثبـّت» المانـــع للارتجاجات ، دور الملاذ والملجأ في غير وقت العمل ، دور الاعتناء بالرجل واعادة مده بالحيوية اللازمة لمعركة الغد» (المصدر نفسه) . انها نسخة عصرية عن أستراحة المحارب ... فبما ان معظم الكوادر رجال

يعيشون في وحدة ، «فمن الضروري ان تتاح لهم القدرة على مسارة شخص ما بما لا يستطيعون بوحا به في المكتب» .

علاوة على دور المؤازرة المعنوية هذا ، من واجب زوجة الكادر ان تكون ايضا «اجتماعية» . فعليها أن تعرف كيف تتصرف في المجتمع ، وكيف تستقبل بلباقة جميع زملاء زوجها ، وكيف تساعد هذا الاخير بذكاء وصمت على الارتقاء .

في شروط كهذه ، ليست المرأة التي تنظر الى مهنتها الخاصة بعين الجد جديرة بتلك الادوار . وبالمقابل فان العمل قبل الزواج مزية بالنسبة اليها ، لانها بذلك تصبح اكثر اقتدارا على فهم عالم العمل ومقتضياته . وبما ان الكادر يتمتع ، بوجه عام ، بتأهيل جامعي ، فان زوجته تجازف بالافتقار الى يسر الحركة في المجتمع اذا لم تكن مؤهلة هي الاخرى جامعيا .

ان العديد من المؤسسات يستعلم قبل استخدام الرجل عن زوجته ، ويجري مقابلة معها ، بل يهتم بعضها حتى بالخطيبة . وتقدر احدى المؤسسات ان ٢٠ بالمئة من المرشحين يُرفضون بسبب نسائهم . واذا ما اظهرت المرأة عجزا عن التكيف مع مهنة زوجها ، فان المؤسسة ترحب بالطلاق . وقد تشجع عليه وتيسر السبل امامه بارسالها الزوج في أسفار اعمال في الوقت المناسب .

وعليه ، فان الزوجة الصالحة هي تلك التي ترهن شخصيتها وصبواتها بشخصية زوجها وصبواته من اجل حسن اشتغال النظام . ومن المؤكد ان المرأة التي تساعد زوجها على الارتقاء في مهنته بتنازلها عن صبواتها الشخصية قد وجدت على الدوام في الدوائر العليا من المجتمع . بيد ان هذه الظاهرة تمتد من الان فصاعدا الى الكوادر المتوسطة ، وتغدو ظاهرة عامة ، وتشكل على هذا النحو واحدة من السمات المميزة للمجتمع الصناعي . وقد كان من الممكن أن تؤدي **حركية الكوادر** ، التي هي سمة مميزة اخرى لذلك المجتمع، الى تخلع الاسرة . وقد رأينا انه لم يحدث

شيء من هذا القبيل ، لان الاسرة موجودة هنا **لإضفاء طابع انساني** على حياة الرجل المنهكة ، ولمساعدته على الارتقاء في مهنته ، اي على خدمة النظام .

ان هذا النظام **يفبرك** الزوجة التي تناسب تطوره : فثمة ايديولوجيا متكيفة تدفع بها الى القبول «بتحقيق نفسها» في ذلك التفاني وذلك النكران للذات . وزوجة الكادر التي كثيرا ما تكون قد درست في معاهد عالية لا يمكن ان تقبل بذلك الدور الا اذا توفر لديها الشعور بأنها ذات نفع وفائدة . ومن هذا المنطلق اطلق الاختصاصيون في علم نفس الادارة على ذلك التعاون الزوجي اسم **«الفريق»** : فمثل هذه التسمية توحي للزوجة بأنها تساهم بنشاط وفعالية في العمل المشترك .

ثمة طريقة اخرى مربحة للمجتمع لاستغلال النساء من حاملات الشهادات العليا ، وهي استخدامهن في اعمال «ثانوية»، فرعية ، نظرا الى انه لا يستهويهن ان يشققن طريقهن في مهنة من المهن . نعني هنا السكرتيرة المتخصصة ، الناجعة ، التي تعمل مقابل اجر متدنٍ ؛ وقد أقر استاذ جامعي بصورة مكشوفة بأنه يحبذ معاوِنة (لا معاونا) لانها تقبل بأداء العمل لحسابه من دون ان تحاول «الدوبلة» عليه . انها تلك التي يكال لها الثناء في مقدمات الكتب، تلك التي احاطت «المبدع» بتفانيها، والتي يرمي اليها بفتات من عرفان الجميل . وقلائل جدا هم الرجال الذين قد يقبلون بالتضحية بطموحاتهم الشخصية مقابل الاجر الزهيد الذي تتقاضاه اولئك «المعاونات» الموهوبات .

ومفهوم ، في شروط كهذه ، لماذا يعتبر العمل النصفي شكل العمل الامثل بالنسبة الى المرأة ، وذلك ما دام العمل لا يمكن ان يكون بالنسبة اليها الا نشاطا متمما او ثانويا . وبديهي ان النظام هو الذي يجني فائدة ذلك ، لا لان العمل النصفي يثبّت المرأة في دورها التقليدي فحسب ، بل ايضا لانه يضمن لارباب

العمل احتياطيا من الشغيلات غير المختصات ، القابلات للتسريح وفق المرام وحسب الظروف .

ذاك هو ما يختفي وراء «الصوفية» المؤنثة : فالدوران اللذان يخص المجتمع الاميركي المرأة بهما هما دور الموضوع الجنسي الذي لا غنى عنه لرواج المبيعات ، ودور المساعدة المتفانية التي لا غنى عنها لحسن سير المشروع بوساطة الزوج . ومن هذا يتبين لنا ان الفوارق بين الجنسين ليست في سبيلها الى الامحاء ، بل هي على العكس تتعزز وستتعزز اكثر فأكثر . ولم يسبق قط ان ازدهرت أحوال الرجولة والانوثة ازدهارها اليوم . والاحتيال العبقري يكمن في ايهام النساء بأنهن قد تحررن من الان بفضل بضعة قوانين ، مع ان كل الذي تغير هو اسم الاشياء ، لا الاشياء ذاتها . فالزوجان التقليديان صارا فريقا، والبيت لم يعد بالنسبة الى المرأة إلزاما ، وانما «اختيار» .

ان المجتمع الاميركي (والمجتمع الغربي بصورة متزايدة) مجتمع **رجولي اعلى** ، القيم الوحيدة التي تحظى بالتقدير فيه هي قيم مذكرة تقليدية : التنافس والعنف . اذ ان النظام كله مبني حول الرجل ، حول من هو شاب ، من هو قوي ، من هو منتج . والى جانبه تبقى المرأة، كالكوكب الدائر في فلك غيره، مستثمرته.

ثمة فيلم حديث الانتاج يقدم صورة كاريكاتورية عن الاسرة الاميركية «المثالية» : «طفل روز ماري» (٢) . فالزوج يبيع زوجته للشيطان ليشق طريقه الى مزيد من النجاح ، والزوجة الوديعة البريئة ، التي تثور ثائرتها عندما تكتشف المؤامرة الجهنمية ، تنصاع صاغرة في آخر الامر وهي تسترق السمع الى صريخ طفلها الشيطاني : ف «غريزة الامومة» اقوى من الاشمئزاز

---

٢ ـ للمخرج الاميركي ، البولوني الاصل ، رومان بولانسكي ، والقصة عن امرأة تنجب طفلا من الشيطان . «م»

والبشاعة . وينتهي الفيلم كما بدأ بأغنية هدهدة لتنويم الطفل .

٢ ـ السويد واسكندنافيا .

الفارق كبير بين الولايات المتحدة وبين السويد حيث تخاض جنبا الى جنب المعركة في سبيل الحرية الجنسية والمعركة في سبيل مساواة اكبر بين الجنسين . والحركات النسوية هي التي تقف بالفعل وراء حركة التحرر الراهنة. وقد سبق لهذه الحركات النسوية في مطلع القرن ، ابان مطالبتها من جهة اولى بحق الانتخاب ، ان استفادت من النضال الذي شنه من جهة ثانية البرلمان ضد الامراض الزهرية لتنظم حملة من اجل الاعلام الجنسي .

تقف في أصل تلك الحركات صحفية شابة ، إليزا اوتوسن ـ جنسن . وقد طافت بالارياف في السنوات العشرينات لتلقي محاضرات ولتزود النساء مباشرة بالمعلومات عن وسائل منع الحمل. وفي عام١٩٣٣ أسست **الرابطة القومية للاعلام الجنسي**. وتتالت الانتصارات القانونية الواحد تلو الآخر ، وفي عام ١٩٣٨ أبيح بيع الاكياس الواقية . وفي اطار **الرابطة القومية للاعلام الجنسي** ظهر تيار بالغ الحيوية للضغط على الحكومة والرأي العام من خلال المناقشات على موجات الاثير او شاشة التلفزيون ، وكذلك من خلال الاعلانات الجدارية والمحاضرات والافلام والكتب .

اما تلك التي كانت تتعرض للشتم والاهانة قبل اربعين عاما، لانها كانت تتجاسر على الكلام علنا وجهارا عن الجنس ، فقد أمست اليوم سيدة عجوزا محترمة يدعوها السويديون بعدم كلفة **أوتار** ...

وتقدم لنا مؤلفات ايف دي سان آنييس ، وعلى الاخص كتاب برجيتا لينر **الجنس والحياة الاجتماعية في السويد** ، جردة بالآراء والقوانين عن الزواج والاجهاض وحقوق الاطفال الذين يرون النور خارج اطار الزواج ، والاقليات الجنسية ، والتربية الجنسية .

ان أخلاقية حركة التحرر بسيطة : فالملذّ مطلوب . وتشير الدلائل الى ان الهوة بين الحياة الواقعية وبين الاخلاق في سبيلها الى الردم رويدا رويدا . وليس مرد ذلك ، كما يتخيل بعضهم بسذاجة احيانا ، الى ان النشاطات الجنسية اكثر تطورا في السويد منها في الاقطار الاخرى ، وانما الى انها تتم في مناخ أوسع من الصراحة . فمن الدارج والمألوف ان يصحب الشاب (او الشابة) صديقته (او صديقها) الى غرفته (او غرفتها) في المنزل الوالدي . وبوجه العموم ، تكون العلاقة هنا بين خطيبين ، او علاقة جدية في اغلب الاحوال . اما الحرية فانها تتوقف بالنسبة الى كل واحد حيث تبدأ حرية الآخرين . وقبل كل شيء حرية القرين الرسمي : فالاسرة بوجه عام ليست موضوعة في قفص الاتهام ، والخيانة الزوجية مستهجنة اكثر منها في اي قطر آخر، وبالتأكيد أقل انتشارا . وحرية الاطفال بعد ذلك : فثمة الحاح على المسؤولية المتمثلة في إنجاب طفل ، وبالتالي على اهمية تعميم استعمال الوسائل المانعة للحمل .

والمثال التالي سيوضح لنا مناخ المناقشات . وهو عبارة عن مقتطفات من بريد قلوب بالغ الخصوصية يتولى الاشراف عليه زوجان دانمركيان مختصان في علم النفس ، انج وشتين هاغلر ، وهما من اصحاب المؤلفات ايضا في مضمار التربية الجنسية . وقد ظهر بريد القلوب هذا او بالاحرى بريد الجنس في صحف واسعة الانتشار ، ذات اتجاه ليبيرالي .

داغبلادت ، اوسلو
٢٩ تشرين الثاني ١٩٦٩

انا فتاة في التاسعة عشرة ، أمارس الاستمناء منذ عدة سنوات ، مرة في الاسبوع تقريبا . وقد قرات في مكان ما ان ذلك قد يضر بالمرأة ، وانها لن تستطيع بعد ذلك ان تصل الى الالتذاذ اثناء الجماع . تلطفوا بالاجابة علي ، فأنا مكتئبة النفس ، ولا اجد اي معنى للحياة . لقد عاشرت صبيين ، وكنت احبهما حقا ، ولكن في كل مرة ارادا فيها الذهاب معي الى الفراش ، كنت اقطع العلاقة لخوفي من ألا أجني شيئا من ذلك .

التوقيع : مجهولة .

ايتها العزيزة المجهولة

لدينا نبأ سعيد نزفه اليك . فما قرأته محض كلام فارغ . بل العكس هو الصحيح ، فبالاستمناء تتدربين على الالتذاذ ، وهذا شيء مفيد . لكن عليك ان تدركي ان بلوغ الالتذاذ سيكون أشق بكثير في الجماع منه في الاستمناء . وذلك ، جزئيا ، لان الالتذاذ ليس متاحا للمرأة مثلما للرجل ، وعليها ان تجهد قليلا او كثيرا للوصول اليه ، ولأن معظم الرجال (والكثير من النساء) لا يعرفون ما فيه الكفاية عن افضل اساليب الجماع بالنسبة الى المرأة .

ومرد ذلك ايضا الى واقع ان لكل امرأة وسيلتها الخاصة لبلوغ الالتذاذ ، وثمة فوارق صغيرة او كبيرة بين امرأة وأخرى . وفي الواقع ، يتوجب على الرجل الحصيف ان يسأل المرأة التي يعاشرها ان تبين له كيف تستمني ، وعلى المرأة الحصيفة ان تبين ذلك للرجل . ففي ذلك فائدة جلى للشريكين . ومن سوء الحظ ان

الكثيرين من الناس يشعرون بالخجل او لا يثقون ببعضهم بعضا بالقدر الكافي ليفعلوا ذلك ؛ مع انهم خيرا يفعلون لو فعلوا .

على كل حال ، يجب ان تأخذي في اعتبارك واقع انه يتوجب عليك انت ان تعلمي الفتى الذي ستذهبين الى الفراش معه بالطريقة التي تحبذين وبالمواضع الحساسة فيك اكثر من غيرها» .

تستمني الفتاة اذن بتبكيت ضمير : فهي قلقة على مستقبل علاقاتها بالرجال وتبدو خائفة من الجماع . انها تعاني اذن من الكف والكبت ، مع انها اسكندنافية ، شأنها في ذلك شأن اي فتاة غربية .

اما الرد على رسالتها فيمثل فلسفة انج وشتين . فحسن معرفة الفتاة بجسمها قمين بتسهيل العلاقات الجنسية ، وليس الاستمناء غير ضار فحسب ، بل هو ايضا وسيلة ممتازة لتعرف الانسان ذاته ولاطلاقها من عقالها . ولنلاحظ ايضا ان انج وشتين يلحان على مسؤولية الفتاة في علاقاتها الجنسية مستقبلا : فليس دورها ان تستقبل حبيبها بسلبية ، بل عليها ان تدله على النقاط الحساسة فيها بفضل معرفتها بجسمها المتأتية لها عن طريق الاستمناء . ويعربان في النهاية عن اسفهما لان الثقة بين الزوجين ليست عادة كبيرة بما فيه الكفاية حتى يتحادثا بقلب مفتوح عن مشاربهما الجنسية .

وسيلحظ القارىء ، ولا بد ، النبرة النسوية الواضحة في الجواب .

ان الهدف الذي يرمي اليه انج وشتين ، بإزاحتهما النقاب بصراحة عما يجري في الفراش المجاور وباظهارهما ان المصاعب الجنسية ليست هي الاستثناء ، هو تحرير الافراد من الشعور

بالذنب . وقد آثار ظهور بريدهما مساجلات مثيرة للاهتمام في اسكندنافيا . وكان رد الفعل الاكثر تقليدية هو رد فعل الرجال الذين أعربوا عن الاسى لتجريد الفعل الجنسي على ذلك النحو من كل «رومانسية» . وهذا ما رد عليه المدافعون عن البريد بـأن الرومانسية بلا معرفة كذب وخداع . فنحن نعلم ان المرأة هي الاكثر «رومانسية» في الواقع ، بحكم الجهل لا اكثر . وانه لأمر مثير للاستغراب بالاحرى ان يصدر التحسر على تلك الرومانسية عن الرجال تحديدا ، مع انها ليست من سجاياهم .

لعل تلك الرسالة تنم ، خيرا حتى من الدراسات المتخصصة، عن واقع الحال في اسكندنافيا : فهي تتيح لنا ان نلاحـظ ان غالبية الافراد لم يتغلبوا بعد على ما يعانونه من كف وكبت . بيد ان الانتصار على الكلمات تجاوز طور الاختصاصيين ليشق طريقه الى الجمهور الكبير . ومثل تلك المناقشات لا مجال لها ، في غير البلدان الاسكندنافية ، الا في المجالات المتخصصة .

أرجح الظن ان الواقع الاسكندنافي سيخيب آمال اولئـك الذين يؤمنون بـ «الفردوس الجنسي السويدي» . وهم ينسون ان قماشة خلفية المسرح الذي تدور فيه معركة الحرية الجنسية هي الطهرانية البروتستانتية . فهيمنتها على الفرد ما تزال قوية (على القارىء ان يتذكر ان البروتستانتية اللوثرية في جميع أرجاء اسكندنافيا هي دين الدولة) ، وهي تغذي تيارات رجعية متعددة، مناوئة لكل تطور وجاهدة لعرقلته . وعلى هذا المنوال تقدر برجيتا لينر ان نصف الاولاد فحسب قد تلقوا تربية جنسية مناسبة .

وبالاصل ، انها محدودة حتى في هذه الحالة ، اذ لا تعالج الموجزات الرسمية الا جانبا واحدا من الجنس ، وهو التناسل ، ولا تتجاسر على التصدي لوظيفة اللذة . ونصف الفشل هـذا محتوم : فالمعلمون غير مؤهلين ، وهم بوجه عام اختصاصيون في العلوم الطبيعية ، وهم انفسهم يعانون من كف وكبت لا يسمحان لهم بتوجيه المناقشات مع تلامذتهم على نحو سليم وبسيط ؛ وهم

لا يستطيعون خلاصا ، شأنهم في ذلك شأن الموجزات المدرسية، من موقف مسبق ومتحيز يضع نصب عينيه اول ما يضع تهذيب الاخلاق . واكثر ما يوصي به المشرفون على التربية الجنسية المراهقين هو العفة .

«ان نجاح التربية الجنسية في السويد ما يزال سطحيا . والمراقبون الاجانب لا يتنبهون لذلك ، لكننا نعلم ، نحن الذين نتطلع الى تعليم رفيع المستوى فعلا، ان ذلك كله لا يعدو ان يكون طلاء خفيفا» (٣) .

وكذلك الحال فيما يتعلق بالمساواة بين الجنسين : فبالرغم من نقاش علني متواصل عن «دور الجنسين» ، وبالرغم من مشاركة الرجال في هذا النقاش على نطاق واسع ، ما تزال المرأة السويدية تعمل في خارج بيتها أقل مما تعمل الفرنسية، و١٦بالمئة فقط من النساء ممثلات في البرلمان ، والتجهيزات الاجتماعية غير كافية . وهنا ايضا لا تعدو مساواة المرأة ان تكون « طلاء خفيفا » .

لنحاول الان أن نفسر ذلك التحرر الجنسي الوحيد من نوعه في العالم ، وكذلك فشله النسبي . ان السويد بلد رأسمالي . بيد انها رأسمالية تصححها قوانين اجتماعية عديدة : وتلك هي الظاهرة «الاشتراكية ـ الديموقراطية» المميزة لاسكندنافيا ، تلك البقعة من العالم التي حملت فيها البورجوازية على محمل الجد اكثر منها في اي بقعة اخرى شعاراتها الداعية الى الحرية والمساواة والاخاء . وعلى هذا النحو خفت الى حد ملموس حدة المنازعات الاجتماعية القائمة فيها كما في اي مكان آخر . كذلك

---

٣ ـ المصدر الآنف الذكر ، ص ١٤٨ .

فان اسكندنافيا هي بلد التسامح ، وهو يأتي في طليعة القيم مع السلام .

لقد عاشت اسكندنافيا ، تاريخيا ، بمنأى عن اوروبا ردحا طويلا من الزمن ، ولم تنفتح بحذر على القارة العجوز الا مؤخرا . وتفسر الهجرة الضعيفة جدا اليها تجانسها السكاني الكبير . وقد تأخر فيها التصنيع ، ويبدو ان البورجوازية كانت هنا أقل تطورا وأضأل قوة مما في فرنسا . والحال ان القمع الجنسي في العصور الحديثة كان ، على الاخص ، من صنع البورجوازية، مثله في ذلك مثل دونية المرأة. فبحبسها النساء في بيوتهن ، اقصتهن عن عالم العمل الانتاجي والسلطة .

لم تعان الطبقة الفلاحية في اسكندنافيا قط من اضطهاد بورجوازية صلفة ، كما هي الحال في فرنسا : فقد كان كل مزارع سيدا في ارضه . والحال ان دور المرأة هام في مزرعة كبيرة ومعزولة نسبيا . ولم تسنح الفرصة للبورجوازية لكي تنقل ايديولوجيتها القمعية كاملة الى تلك الاقطار ذات الحضارة الزراعية. والحق ان التقاليد الفلاحية هي التي تنعكس في مسلك الاسكندنافيين : فطرة اهل الريف حيال الجنس ، والتسامح ازاء الاولاد غير الشرعيين .

قليلا ما يتصدى حتى اهل اليسار للاسرة . هكذا نجد «المساواتيين» ، أنصار المساواة بين الجنسين ، يطالبون للرجال بالحق في البقاء في البيت . وتصوغ ب. لينر هذا المطلب على النحو التالي : «صندوق للطفولة يسمح للأم او للاب بالمكوث في البيت خلال الاعوام الثلاثة التي تعقب ولادة طفل» (ص ٢٤) . ويتمنى بعضهم لو يتشاطر الزوجان العمل ، بحيث يكون دوام كل منهما فيه نصفيا . وتلك صيغة اخرى من «الفريق الزوجي» . ويتطلع بعضهم الآخر الى تقليص يوم العمل المتواصل لافساح مجال اوسع للحياة العائلية .

بيد ان ما ينساه المساواتيون في ظاهر الامر هو طابع المجتمع الذي يتقدمون فيه . مجتمع رأسمالي يبقى قانونه قانون الربح الاقصى . قد يعدلون النظام وقد يصححونه ، ولكنهم في اطاره باقون . والرأسمالية السويدية ، كائنا ما كان الاصلاح الطارىء عليها، تساورها الحاجات ذاتها التي تساور الرأسمالية الاميركية: بيع «الجنس» ، تشغيل الناس ونقلهم من مكان الى آخر حسب مرادها في مباراة على الصعيد الدولي . وهي بحاجة ، كما في الولايات المتحدة الاميركية ، الى امرأة طيعة ، مستهلكة ، تتطور في اطار أسرة مخدّرة .

وعلى وجه التحديد لان تحرر الاخلاق مرتبط بهذا السياق الرأسمالي ، فانه يبقى سطحيا ، مفككا ، جزئيا . ولهذا تبقى انتصارات المساواتيين محدودة ، وأقصى ما يمكنهم ان يفعلوه هو ان يخدشوا ، بموافقة السلطات ، بناء متينا . وتكمن القوة الكبرى للرأسمالية السويدية في ايلاء المطالب التحررية انتباها ورعاية ، وفي اظهار براعة فائقة في نزع فتيلها المفجر عن طريق دمجها بنظامها . وهذا التسامح الذي يميز المجتمع الاسكندنافي، كما تقدم بنا القول ، يفيد على الاخص في تثليم حدة النزعة الجذرية .

وبالفعل ، لا تكفي الاطاحة ببعض المحرمات الجنسية لتغيير الموقف العام للافراد من الجنس . فبنيتهم النفسية ، كما حلل رايش ، هي موضوع الخلاف . وليس لهذه البنية النفسية ان تتطور الا في أعقاب انقلاب ثوري . وما دامت مصالح النظام الاقتصادي والسياسي تعاكس في الواقع تحرر الافراد ، فلا مناص من ان يأتي هذا التحرر محدودا ومتناقضا . فالتحرر الجنسي هو في المقام الاول مشكلة جنسية ، وهذا شرط لازم ، ولكن غير كاف ، كما ستبين لنا التجربة السوفياتية .

وعلى الرغم من تلك التحفظات والتعقيدات ، فلا مراء في ان التجربة الجارية في اسكندنافيا ثرة بالتعاليم وقيد تطور دائم .

وينبغي ان نتجنب ، في موضوع السويد ، السقوط في شراك موقفين اثنين متطرفين : الا نرى اولا سوى التقدم على الآخرين فنتخيل انه لم يبق شيء يعمل ؛ وألا نرى ثانيا سوى النواقص قياسا الى المثل الاعلى فنستنتج انه لم يفعل في الحقيقة شيء. اننا نستطيع ان نجني اعظم الفائدة من المحاولات الاسكندنافية التي تمثل بالقياس الى تقاليدنا اللاتينية العتيقة تقدما ملموسا . ولا جدال في ان رياح الثورة الجنسية تهب علينا في الوقت الحاضر من الشمال الرأسمالي . تلك الثورة التي كانت ، كما سنرى عما قليل ، الامل الكبير الخائب للاشتراكية .

٣ ـ الاتحاد السوفياتي والثوريون .

ما المقابل الواقعي لأسطورة المرأة السوفياتية «المساوية» في كل شيء للرجل ؟ صحيح ان المرأة السوفياتية تلقى التشجيع على ولوج باب المهن الموقوفة تقليديا على الرجال ، نظير المهن العلمية ، لكن لئن تكن غالبية الاطباء في الاتحاد السوفياتي من النساء ، فهذا لان الطب مهنة غير مرتفعة الاجور ويرغب عنها الرجال ؛ لكنهن بالمقابل مهندسات اكثر منهن باحثات ، لانهن يؤدين الاعمال الروتينية اكثر مما يؤدين اعمالا ابداعية . ومشاركتهن في الحياة السياسية اوسع نطاقا منها في اي قطر آخر ، لكن ليس في عداد الوزراء سوى امراة واحدة ، وليس في عداد المكتب السياسي للحزب اية امرأة .

تقدم لنا عن المجتمع السوفياتي عن طريق السينما او الادب الصور التقليدية جدا لعالمين اثنين : عالم الرجال وعالم النساء. في فيلم **تسعة ايام في السنة** ، ثلاث شخصيات ، من الفيزيائيين

في المركز النووي الكبير في نوفو سيبيرسك ، رجلان وامرأة ، لهم اهتمامات شديدة الاختلاف بحسب جنسهم: فالرجلان مهووسان بعملهما وبالسياسة وبمستقبل العلم والعالم ، اما المرأة فلا هم لها غير مشكلاتها العاطفية ولا تجد «طريقها» في خاتمة المطاف الا في تفانيها الكامل لزوجها الذي قطع الاطباء منه حبل الرجاء بعد ان عرّض نفسه بغير تحرس للاشعاعات . صحيح ان المرأة متساوية في الوضع مع زميليها ، لكن الاختلاف في ردود افعالهم واهتماماتهم تقليدي جدا ، ويبدو ان مخرج الفيلم يجد ذلك امرا «طبيعيا» . وهو لا يشير البتة الى التناقض القائم بين تحرر نظري وبين ذلك الواقع التقليدي .

وبوسعنا ابداء الملاحظة نفسها بصدد **الدائرة الاولى** لسولجنستين . فالبطل الرئيسي ، نرجين ، على الرغم من التنغيصات التي يتعرض لها في السجن ، وربما بسببها ، ينمي عالمه الداخلي ويطوره بفضل رفاقية آخرين من طينته . وتشعر زوجته بالضياع بعيدا عنه ، بلا اصدقاء ، وفي حال من الضيق في وضع يكتنفه الالتباس : فهي تتشبث بحبل وفاء مصطنع يكلفها غاليا (من جهة اولى) وليس له او لم يعد له من قيمة (من جهة ثانية) في نظر نرجين . ويبرز التضاد ساطعا بين الحرية الداخلية للرجل المغلول ماديا وبين تبعية المرأة الحرة مع ذلك ماديا .

اما عن المهام البيتية ورعاية الاطفال فما يزال الاعتقاد يسود في الاتحاد السوفياتي بأنها من اختصاص النساء وحدهن . «من النادر جدا في الاتحاد السوفياتي ان يدفع الزوج بقناعاته المساواتية الى حد القبول بتحمل قسطه من الاعباء المنزلية . بل لنقل ان الوضع لم ينضج لذلك ، وان العديد من الزوجات السوفياتيات في موسكو لن ينظرن الى انفسهن الا بعين الخزي

لو امكن للجيران ان يلمحوا ازواجهن والمكنسة في أيديهم او وهم يغسلون الاطباق» (٤) .

واضح اذن انه من الممكن للنساء ان يشاركن بنشاط في الانتاج في قطر من الاقطار من دون ان يتوقفن مع ذلك عن لعب دور ثانوي ومن دون ان يتغير شيء في علاقاتهن التقليدية مع الرجال : والاتحاد السوفياتي يقدم لنا على ذلك مثالا .

اما في موضوع الجنس فالقول الفصل للطهرانية . سبق لماكارنكو ، المربي السوفياتي الرسمي ، ان كتب بصدد التربية الجنسية :

«ان البحث الحر والمبكر في المسائل الجنسية يقود الطفل الى تصور عقلاني فج للعالم الجنسي ... والتربية الجنسية يجب بالتحديد ان تكون تربية الحب ... لكن تربية من هذا النوع يجب ان تتم بدون تحليل صريح اكثر مما ينبغي ، وفي الصميم بذيء ، للمسائل الفيزيولوجية الصميمة» (٥) .

ومن الامثلة القريبة الينا زمنيا أن صحيفة سوفياتية حذرت قراءها من أخلاق الغرب قائلة :

«ان ثورة الغرب الجنسية المزعومة تضعف الاواصر العائلية بنبذها عددا كبيرا من المحرمات وبمطالبتها بحرية العلاقات الجنسية» (٦) .

---

٤ ــ آلان جاكوب ، «لوموند» ، ١٩٦٨ .

٥ ــ في عام ١٩٤٩ ، والترجمة في مجلة «طفولة» ، العدد ٣ ، ١٩٥٠ .

٦ ــ نقلا عن «لو نوفيل اوبسرفاتور» ، حزيران ١٩٦٩ .

وتكتب اخيرا صحيفة **ليتراتورنايا غازيتا** ، وهي صحيفة سوفياتية غير انتقادية ، في معرض تعليقها على نبأ عن تهريب منظم لأدب ولصور خلاعيةً (بما فيها **بلاي بوي**) ، تكتب شارحة : « ان سلاح الامبرياليين الجديد هو الادب الخلاعي (البورنوغرافيا) » .

وانها ، والحق يقال ، مفارقة غير منتظرة : فتحطيم المحرمات ما عاد يأتي من بلد الثورة ، وانما من بلدان الرجعية .

وبالفعل ، كان النظام السوفياتي في بداياته يعتبر تدمير الاسرة التقليدية نقطة اساسية من نقاط برنامجه . وكان الماركسيون قد اصدروا حكمهم بأن تلك الاسرة تتنافى والاشتراكية الحقيقية . «ان الاهمية التي تعلقها الثورة الاجتماعية على الثورة الجنسية يبرزها للعيان واقع ان لينين أصدر ، منذ ١٩ و٢٠ كانون الاول ١٩١٧ ، مرسومين بهذا الخصوص» (٧) . فقد ألغي الزواج ، وسُهّل الاستقلال التام للمرأة عن الرجل ، وأبيح بالتالي الطلاق والاجهاض ، لكن المساعي انصبت على تحاشي هذا الاخير عن طريق نشر وسائل منع الحمل . كذلك ألغيت القوانين التي تعاقب الجنسية المثلية .

وجرت محاولات لتطبيق أشكال حياتية جديدة في كومونات الشبيبة وفي رياض الاطفال حيث بذل اختصاصيون في التربية ما بوسعهم «لاعطاء نظرية الجنسية الطفلية مضمونا عمليا» . وكان لتلك القوانين وتلك التدابير دوي وصدى هائل في العالم .

لكن ما كانت القوانين تكفي . فقد كان التناقض كبيرا للغاية بين ذلك الموقف التقدمي وبين بنى الفكر التقليدية . والحق ان مسافة شاسعة تفصل بين اتخاذ قرار بنبذ الاسرة والتحرر من

---

٧ ــ و. رايش : «الثورة الجنسية» ، ص ٢٠٤ .

المحرمات وبين العادات التي خلقتها الحياة العائلية لدى الناس . وقد كان من المحتم ان تعبر تلك التناقضات عن نفسها في طور اول في وضع من البلبلة والفوضى لم يكن متوقعا ولم تتخذ الاستعدادات له : وبنتيجة ذلك اتضح ان الثورة الثقافية اصعب بما لا يقاس من الثورة السياسية . ويفسر رايش على النحو التالي فشلها : «كانت العلة الاولى لاختناق الثورة الجنسية غياب كل نظرية في الثورة الجنسية» (٨) .

في ابان المناقشات التي كانت قائمة آنئذ على قدم وساق حول أشكال الحياة الجديدة ، «احتكر المحافظون الحجج والبينات والادلة جميعا ، وأحس الثوريون والتقدميون احساسا واضحا بأنهم عاجزون عن التعبير عن «الجديد» بالكلمات . وقد حاربوا ببسالة ، لكنهم كلوا وسئموا في آخر الامر وأخفقوا في المناظرة، وكان مرد ذلك جزئيا الى انهم كانوا هم انفسهم أسرى تلك الافكار القديمة التي ما استطاعوا من إسارها فكاكا» (٩) .

وانضافت الى عدم الاستعداد الثقافي الصعوبات المادية : فالخدمات الجماعية التي كان يفترض فيها ان تقوم مقام الاسرة كانت تعمل على أسوأ وجه وكانت النوعية المقدمة من قبلها ادنى من نوعية البيت . وقد تجلى ذلك في المطابخ وفي «المغاسل العامة المتخصصة حيث كان الغسيل يسرق ويتلف اكثر مما كان يغسل» ، وفي دور الحضانة «حيث كان وضع الاطفال اسوأ مما في البيت» (١٠) . وسرعان ما غدت أجود دور الحضانة موقوفة عمليا على سادة العهد الجدد : الموظفين والستخانوفيين (١١) .

---

٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

١٠ ـ تروتسكي : «الثورة المغدورة» ، ص ١٤٨ .

١١ ـ ابطال العمل وضاربو الارقام القياسية فيه . «م»

معلوم ان الثورة السوفياتية اختارت ، لحل الصعاب الهائلة التي واجهتها ، سبيل السلطة والدكتاتورية، لا سلطة البروليتاريا ودكتاتوريتها ، وانما سلطة الطبقة الحاكمة ودكتاتوريتها (بعد صراعات داخلية غير قليلة العدد) . والانظمة الاستبدادية تقوم جميعها على عماد الاسرة . وهكذا بدأت مسيرة القهقرى . وكانت اول عودة الى التدابير القمعية في عام ١٩٣٤ : تحظير الاجهاض ، اعادة العمل بالقوانين المناهضة للجنسية المثلية ، اغلاق روضة فيرا شميت للاطفال . وانتصرت الرجعية ، وأعيد الاعتبار الى الاسرة ، وبدأ عهد من الطهرانية مفرق في الرجعية .

ويلح تروتسكي على هذا الفشل في الفصل الذي يكرسه للاسرة : «ان التبدلات المتعاقبة الطارئة على الاسرة في الاتحاد السوفياتي هي عينها التي تنم عن الطبيعة الحقيقية للمجتمع السوفياتي» (١٢) .

وفي الساعة الراهنة ، وبعد ان خمد كل نقاش ايديولوجي ، لم يبق شيء يذكر من الاندفاعة الاشتراكية الكبرى في الاتحاد السوفياتي الذي يكرس جهوده لتقليد منافسته ، الولاياتالمتحدة الاميركية . كان لينين يعرّف على النحو التالي الاشتراكية : «سلطة السوفييتات زائد الكهربة» . ويعيد تروتسكي صياغة هذه الجملة على نحو ساخر وبالغ القسوة : «سلطة البيروقراطية زائد ثلث الكهربة الرأسمالية» . وفي سباق الانتاج هذا يحتاج الاتحاد السوفياتي ، هو الآخر ، الى نساء طيعات : فلبثن كما كن عبدات بيتيات ـ سبق للينين التنديد بوضعهن ـ حتى تتاح لازواجهن حرية اكبر في العمل وفي شق طريقهم الى الارتقاء .

---

١٢ ـ تروتسكي : «الثورة المغدورة» ، ص ١٤٦ . (راجع النص بالعربية في «المرأة في التراث الاشتراكي» ، ص ١٨٨ . «م») .

من المفيد الان ان نعود أدراجنا الى اسباب عدم نضج القادة الشيوعيين المشار اليه في موضوع الجنس ، وأن نحاول الاحاطة بالعلل التي تستطيع تفسير انعدام وجود نظرية في الثورة الجنسية .

لنبدأ باعادة قراءة متأنية لما يرتئيه لينين بصدد المسألة .

يضع لينين بلا تردد قضية المرأة على سوية واحدة مع قضية البروليتاري :

«الحرية والمساواة للجنس المضطهَد ـ الحرية والمساواة للعامل ، للفلاح الكادح» (البرافدا ، ١٩١٩) .

او كذلك :

«لن يبدأ بناء المجتمع الاشتراكي الا لحظة نحصل على مساواة المرأة» .

ولمزيد من الايضاح :

«المساواة امام القانون ليست هي بعد المساواة في الحياة . ينبغي ان تحصل العاملة على المساواة لا امام القانون فحسب ، بل في الحياة ايضا» (١٣) .

ولا يكتفي لينين بهذه التصريحات المجردة ، بل يحلل بعناية

---

١٣ ـ لينين : «تحرر المرأة» ، المنشورات الاجتماعية ، باريس ، ص ٩١ .

وضع المرأة ك «عبدة بيتية» تهدر طاقاتها في «كدح غير منتج الى حد غير معقول، حقير ، مثير للاعصاب ، مبلّد ، وساحق الوطأة».

ويبين ، على الاخص ، مدى ما تمثل ذهنية الرجال المتأخرة من كابح لتحرر حقيقي للمرأة :

«ما يزال يوجد في عدادنا ، ايها الرفاق ، عدد كبير ممن يمكن ان نقول عنهم ويا للاسف : حكوا قليلا الشيوعي ، تجدوا الدعي الضيق الافق . ولكن يجب ان نحك في الموضع الحساس : ذهنيته تجاه المرأة... انهم يطلبون لأنفسهم الراحة والرغد . اما حياة المرأة في البيت فهي تضحية يومية بنفسها في سفاسف الاشياء . وسيطرة الزوج القديمة ما تزال قائمة في شكل مستتر ...» .

بيد ان لهجة لينين تتغير كليا عند الحديث عن الجنس . فعلى الرغم من انه ينكر ان يكون من دعاة الطهرانية والعفة ، يرى في الجنس موضوعا بورجوازيا ، وبالتالي مثيرا للشبهات ؛ فيصف نظرية فرويد بأنها «نزوة من نزوات الموضة الدارجة» ويلح على ضرورة تناول مشكلة الجنسين بوصفها «جزءا من المسألة الاجتماعية الاساسية» . ولهذا يؤنب الرفيقتين اينيسا آرمان في عام ١٩١٥ ، وكلارا زتكن في عام ١٩٢٠ ، وكلتاهما امرأة ، لانشغالهما بذلك الموضوع الثانوي :

«ان لائحة اخطائك ، يا كلارا ، لم تنفد بعد . فقد سمعت انك تهتمين بوجه خاص ، في أمسيات المطالعة والنقاش مع العاملات ، بمسائل الجنس والزواج ... انني لأرتاب في اولئك الذين تشغلهم باستمرار وعناد

مسائل الجنس ، مثلهم مثل الفقير الهندي في تأمله سرّته » (١٤) .

وتجيب كلارا زتكن متعللة ب «المشكلات والصراعات والآلام التي تعاني منها النساء من جميع الطبقات والفئات الاجتماعية» وب «العلاقات بين الجنسين» . «المشكلات التي كانت مستترة حتى الان تكشفت لانظار النساء ، في مناخ الثورة التي هلت بشائرها . وعالم العواطف القديمة والافكار القديمة يتداعى من كل جانب . والروابط الاجتماعية السالفة تضعف وتتحطم . وتظهر الى الوجود بذور منطلقات ايديولوجية جديدة ، لم يتحدد شكلها بعد ، للعلاقات بين البشر» .

ويأخذ لينين عندئذ لهجة السخرية :

« قولي لي ، أرجوك ، هل هذا هو الوقت المناسب لإشغال العاملات طوال اشهر كاملة بالحديث عن الكيفية التي يحِب بها المرء ويحَب ، او عن طرق المغازلة لدى الشعوب المختلفة ؟» .

ان الشبان بدورهم قد انتقلت اليهم عدوى تلك المناقشات بصدد مشكلة العلاقات بين الجنسين . وتحاشيا لـ«فرط الاثارة» و «هدر» صحتهم وقواهم ، يدعو لينين الى الاخذ بطرائق أقل ما يقال فيها انها تقليدية : الالعاب الرياضية ، الرحلات ، الدراسة. على هذا النحو لم تكن مشكلة تحرر المراة تمت بأي صلة في نظره ، كما تشير الدلائل ، الى التحرر الجنسي . وهذا مع ان

---

١٤ ــ نص حديث لينين مع ك. زتكن منشور في العربية في مجموعة «المرأة في التراث الاشتراكي» ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ . «م»

العلاقات الجنسية هي العلاقات الاكثر مباشرة ، والاكثر يومية ، والاكثر تمييزا ، بين النساء والرجال .

ويبدي لينين قلقه من مقاطعة النساء للثورة : «لماذا لا يعدّ الحزب في صفوفه اي مكان من العالم ، وحتى في روسيا السوفياتية ، قدرا متساويا من النساء والرجال ؟ لماذا هو ضئيل للغاية عدد العاملات المنتسبات الى النقابات ؟» .

وهذا مع ان الثورة بحاجة الى النساء : «فبدون ملايين النساء لا نستطيع ان نحقق دكتاتورية البروليتاريا وننصرف الى البناء الشيوعي» . والحل الذي يرتئيه لينين : انشاء منظمات نسائية تلعب فيها النساء الاعضاء في الحزب دورا رئيسيا ، لكن شرط ان تكون هذه المنظمات مستقلة عن الحزب ، ولو فرضا ، كيما تجتذب اليها النساء غير المسيّسات . وعليه ، ان المنظمات النسائية الشيوعية ، مثلها مثل منظمات الشبيبة والنقابات ، تلعب في المقام الاول دور جهاز ارتباط بين الحزب والجماهير غير المسيّسة .

اننا لنلقى لدى المنظّرين الماركسيين الآخرين التنائي ذاته عن المشكلات الجنسية . فلئن يكن ماركس الشاب قد كتب العبارة المشهورة : «العلاقة المباشرة ، الاكثر طبيعية والاكثر ضرورة ، بين الانسان والانسان هي علاقة الرجل بالمرأة . وتبعا لهذه العلاقة يمكن الحكم على درجة التطور الانساني»(١٥) ، فسوف يكتب في وقت لاحق عبارات يتضح فيها من نبرة المزاح الرخيص انه ينظر الى المشكلة من الخارج : «ليس للسيدات ان يتشكين من **الاممية** التي انتخبت واحدة منهن ... في المجلس العام . والتقدم الاجتماعي انما يقاس بالوضع الاجتماعي للجنس الجميل (بما فيه القبيحات)» (١٦) .

---

١٥ ـ «مخطوطات ١٨٤٤» .

١٦ ـ رسالة الى كوجلمان .

ونلحظ الذهنية عينها في مشاريع قوانين الحركات الثورية: نزعة حمائية مترعة بالنيات الحسنة وبالصيــــــغ المكررة المعادة والتقليدية . في **نقد برنامج غوتا** (١٨٧٥) ، يتحدث ماركس عــن «اقصاء النساء من فروع الصناعة الشديدة الضرر بصحتهـــــن البدنية او الجارحة **لحشمة الجنس المؤنث**» (التسويد منا) .

وحتى المؤلفون من أمثال بيبل ، الذي كرس كتاباً **المــــرأة والاشتراكية** (١٧) لمناقشة تلك المشكلات ، لا يمكنهم ان يتحرروا من الموقف الابوي عينه . «يجب ان تقبل المراة في جميع فـروع النشاط الموافقة لقواها وطاقاتها» (ص ٢٣٦) . لكن من الـــذي سيقرر ذلك وما هي تلك الفروع ؟ لا يقدم بيبل اي توضيح . وفي موضع آخر يتطرق بالحديث الى «فروع صناعية او أعمال لا يجوز فيها استخدام الفتيات لخطرها على صحتهن او علـــى وظائفهن الجنسية» .

ان النزعة الحمائية التي تغلف تلك القوانين مفهومة في زمن كان المطلوب فيه تخفيف عبء شروط العمل عن اولئك الذيـــن يعانون أشد المعاناة من الاستغلال الرأسمالي : النساء والاطفال. بيد ان تلك التقييدات ، التي تنصب لا على أفراد لاسباب فردية وانما على جنس بسبب جنسه ، قمينة بتأييد سيطـــرة جنس على الآخر .

ما يتضح من تلك النصوص هو المسافة بين الثوري وبين المراة التي يريد تحريرها . وفي الواقع ، انه هو الآخر أسير الاساطير المتداولة ، ولا يتوصل على الاخص الى التخلص من مفاهيـــم الانوثة والرجولة ، مع انها تعبر عن اضطهاد النساء . انه يبقى على تشبثه بتلك الفروق «الطبيعية» بين الجنسين ، ولا يعرفها

---

١٧ ـ نشرنا مقتطفات منه في مجموعة «المرأة في التراث الاشتراكي». «م»

على حقيقتها ، ولا يسعى الى توضيحها ، راضيا قانعا في هذا الصدد بالافكار الجاهزة .

وهذا ظاهر للعيان في أشباه تلك المواقف ، المبلطة بكل تأكيد بالنيات الطيبة : «هكذا تجرد المرأة من الانوثة التي فيها ، فتداس هذه الاخيرة بالاقدام ، مثلما يجرد الرجل في الكثير من المهن من كل صفة رجولية» (١٨) . ويصل الامر الى أوجه مع هذه الرؤية المستقبلية : «انها ستتلقى التربية ذاتها التي سيتلقاها الرجل ، الا في الميادين التي يتطلب فيها فارق الجنسين استثناءات»(١٩). أي استثناءات ؟

ولا يتطرق تروتسكي الى الجنس الا عن طريق الاجهاض ، «احد الحقوق المدنية والسياسية والثقافية الاساسية للمرأة» ولكن ما الداعي الى ان يضيف : «ما بقي البؤس والاضطهاد العائلي قائمين» ؟ انه تقييد اضافي زائد عن الحاجة .

ليس قصدنا هنا أن نقوم بنقد فردي يستهدف ماركس او لينين او بيبل فقد سبقوا في الواقع معاصريهم ، بمن فيهم الاشتراكيون منهم : فالهوة هائلة بين برودون الذي كان يقول بدونية المرأة التي لا علاج لها في الميادين كافة وبين ماركس . بيد ان الثوريين لم يوغلوا في تفكيرهم عن تحرر المرأة ايغال النساء اللائي كن يقترحن عليهم حلولا بوجل ، من أمثال كلارا زتكن او اينيسا آرمان . وما كن بمنظّرات ، وما كن يحسنَّ صياغة حججهن ، لكنهن كن «يحسسن» باضطهادهن بنفس العمق الذي «يحسه» به البروليتاري . وقد رد لينين مقترحاتهن بدلا من ان يأخذها في الاعتبار . ولكن أليس هو نفسه القائل : «نحن نقول ان تحرر العمال يجب ان يكون من صنع العمال انفسهم ، وعلى

---

١٨ ـ بيبل : «المرأة والاشتراكية» ، ص ٢٥٧ .

١٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٩٥ .

النحو ذاته ، يجب ان يكون انعتاق العاملات من صنع العاملات انفسهن » ؟

على هذا النحو لم تتلاق الحركتان النسوية والماركسية ولم تندمجا .

لقد لبث المنظّرون الماركسيون متمسكين اذن بمواقف مبدئية، لا تمت بصلة الى الواقع . فالاستمرار بالايمان بأنوثة وذكورة أبديتين ، والتهرب من مشكلة الجنسين ، ينبعان من خطأ واحد: الجهل بكنه الجنس المؤنث ، وعدم السعي الى تبديد هذا الجهل .

واذا توجهنا الان بأنظارنا الى الحركات الثورية في العالم الثالث ، تلك الحركات التي تتصدى للعنصرية والامبريالية ، يتبدى لنا انها لا تولي اهتماما يذكر للمظالم اللاحقة بالنساء في الاقطار التي تنشط فيها تلك الحركات ، مع ان هذه المظالم اظهر وأبرز للعيان في تلك الاقطار منها في الاقطار الغربية .

وحسبنا ان نمحص هنا ايضا موقف بعض الزعماء النافذين كي نقتنع بأن الثوري ثوري بالتمام والكمال الى حد معين : الحد الذي يفرضه على علاقاته بزوجته او النساء .

ان مالكولم اكس ، البطل المأساوي للنضال ضد التفرقة العنصرية في الولايات المتحدة الاميركية ، يختار اعتناق الديانة الاكثر اجحافا بحق المرأة . وعلاقاته بزوجته ، المتواضعة ، المتفانية ، المطيعة ، تعكس علاقات السيطرة بين الرجل الابيض والرجل الاسود . فنفي وجود الكائن الانساني ككائن انساني لاسباب تتعلق باللون ، يناظره بدقة نفي وجود الكائن الانساني ككائن انساني لاسباب تتعلق بالجنس . وكل مضطهَد من الرجال تعمره الثقة بأنه واجد من هو مضطهَد اكثر منه : زوجته .

في فيلم المخرج البرازيلي الرافض غلوبر روشا ، **ارض ثائرة**، تتولى امرأة ، رائعة القوة ، شبه «مسترجلة» ، النطق بلسان الفقراء ، لكنها تفسر على النحو التالي اختيارها : «هل تحسب

ان قدري ان أحارب وأقاتل هكذا ؟ انني أفعل ما أفعله لانـه ضروري . غير ان قدري ان اكون امرأة ؛ ان أتـزوج وأن أنجب اطفالا» . ان اي مبدع ، مهما دلل على أصالة وابتكار ، لا يستطيع ان يقلع عن أشباه هذه الصيغ المكررة المعادة .

وبالفعل ، يجري كل شيء وكأن الثوريين لا يقبلون النساء في صفوفهم الا بقدر ما يحتاجون اليهن ، وبقدر ما هو صحيح قول لينين ان «نجاح الثورة مرهون بمقدار مشاركة النساء» . وحالة الطوارىء تميط اللثام على حين بغتة عن مدى كون النساء بدورهن كائنات راشدة وناجعة. وليس من قبيل المصادفة اذا كانت فيتنام في الوقت الراهن واحدا من أقطار العالم التي تلعب فيها النساء دورا من المرتبة الاولى . لكن ماذا بعد الحرب ؟ هل سنشهد ، كما شهدنا في الاتحاد السوفياتي واسرائيل (٢٠) والجزائر ، تراجعا ونكوصا في انعتاقهن وعودة تدرجيـة الى الممارسات الاكثر تقليدية ؟

فما ان يتم احراز النصر حتى تغدو الطهرانية قاعدة متبعة : فالطاقات جميعا يجب ان تنذر لبناء الدولة الجديدة . وهذا جلي بوجه خاص في الصين حيث جعلت الثورة الجنسية همها الاول تحرير المرأة من استرقاق شامل وتفجير بنى الاسرة الصينيـة القديمة .

ان الوحيد الذي حاول ان يربط من جديد بين الماركسيـة والحياة الجنسية هو رايش . فقد سنحت له الفرصة ، بوصفه محللا نفسيا ، لكي يلاحظ ان مرضاه لا ينعمون بحياة جنسيـة هانئة ، ولكن لم يكن الحل «شفاءهم» الواحد تلو الآخر . فليس

---

٢٠ ــ لنا هنا اعتراض ، لا على واقع ان المرأة مضطهدة في اسرائيل ، وانما على إدراج «اسرائيل» في عداد الاقطار التي قامت فيها حركات تحـرر قومي . «م»

الفرد هو بيت القصيد ، كما يزعم التحليل النفسي التقليدي ، وانما المجتمع . والمجتمع هو ما ينبغي تغييره . وينطلق رايش من الاضطهاد الجنسي ـ الجوهري والاساسي في نظره ـ لينتهي الى الثورة ؛ وهو بذلك يتميز كل التميز عن الثوريين الذين يجعلون من المسألة الجنسية استطالة للثورة .

«ان الحياة الجنسية الضيقة ، البائسة ، التي يزعم الزاعمون انها غير ذات طابع سياسي ، يجب ان تدرس في علاقاتها بمشكلات المجتمع الاستبدادي . فليس ميدان السياسة الآدب الدبلوماسية ، وانما الحياة اليومية» (٢١) .

افترق رايش عن فرويد وانضم الى الماركسيين الذين ساعدوه على تأسيس «حركة السياسة الجنسية» في السنوات الثلاثينات .

وبوسعنا ان نعطي تفسيرا لموقف الثوري الذي ينفض يديه من مشكلة العلاقة بين الجنسين : فهو لو لم يقف ذلك الموقف اللااكتراثي لكان وضع نفسه بنفسه في قفص الاتهام .

ان الاستلابات تتراكم وتتناضد . وأكثر الاستلابات خارجية وأحدثها عهدا في تاريخ حياة انسان من الناس هو استلاب العلاقات مع رب العمل . وهو الاكثر قابلية للاكتشاف وللمكافحة من بين سائر الاستلابات . اما أشدها عمقا وأبعدها غورا فهو الاستلاب الذي يفصل بين الجنسين ، اذ يقوم من الولادة ويمد جذوره في أنأى مناطق أنانا وأكثرها لاشعورية ، بحيث يخيل الى الناس انه طبيعي وفطري .

---

٢١ ـ «الثورة الجنسية» ، ص ٣٣ .

انه اول الاستلابات ، وسيكون آخر ما يزاح منها . ويوم ينتهي الثوري من تحرير البروليتاريين جميعا ، والمستعمَرين جميعاً ، سيتاح له الوقت ليتبين انه ما يزال عليه ان يحرر نفسه .

٤ ــ حركة ايار .

كتب الظفر حتى الان للثورات في الاقطار الشديدة التأخر تقنيا . فهمها الاول ، وهي المطوقة ببلدان معادية وأغنى منها ، ان تردم هوة ذلك التأخر بأسرع ما يمكن حتى تبقى على قيد الوجود. ويبدو ان أنسب شرط للتصنيع السريع كان القمع الجنسي بفضل تعبئة القوى الحيوية في الانتاج ، كما سبق ان لاحظنا بصدد حضارتنا الاوروبية .

اما حركة ايار فهي ، على العكس من ذلك ، اول علامة على مناقضة تتصدى بصورة رئيسية للمجتمعات الصناعية المتقدمة.
كان ايار ١٩٦٨ في فرنسا املا باعادة اكتشاف علاقات الانسان بالانسان ، والرجل بالمرأة ، دونما اهتمام بالشرعية وبلا إكراه خارجي . وقد كان ايار بالاساس اكتشاف المقدرة على التواصل بين الجميع بحرية ، في اي مكان كان ، في الكليات والمسارح التي باتت مذذاك فصاعدا ملكا للجميع .

اما عن الجنس ، فلنعد الى الاذهان انه كان من جملة موضوعات المناقضة الطالبية قبل ايار : فقد كان الهدف الحصول على انظمة اكثر ليبيرالية في المدن الجامعية لاباحة زيارة الفتيان للفتيات ، علما بأن العكس ، اي زيارة الفتيات للفتيان ، مباح منذ زمن بعيد . وقد وزعت حركة ٢٢ آذار في نانتير ، ضمن ما وزعت من مناشير ، بيان رايش عن الفوضى الجنسية ، مع ان

الزمن قد تقادم عليه بعض الشيء ، اذ يعود تاريخه الى عـــام ١٩٣٦ . وهذا دليل على انه لم تكن قد توفرت الامكانية بعد لصوغ افكار جديدة واصيلة ، وان صار هناك وعي بالمشكلة ورغبة في طرحها على الملأ . ثم احتلت مقدمــــة المسرح معارك الشوارع وعمليات احتلال اماكــن العمل . وتناسى الاكثرون المسألـــة الجنسية ، ولكن ليس الجميع .

ففي السوربون افتتحت بصورة عفوية دار حضانة لمدة ٢٤ ساعة يوميا ، وذلك عندما قدم الآباء والامهات الشبان لاحتـلال السوربون ، حاملين معهم اطفالهم . وبفضل الهبات وحسن ارادة كل فرد ، أرجلا كان ام امرأة ، انتظم كل شيء على خير ما يرام ، وصار في مقدور الاهل ان يعهدوا ، بأطفالهم الى عناية الدار . وقام الدليل ، بلا ضجة ، وبالوسائل المتاحة ، على انه فــــي المستطاع تحرير الاهل في احسن الشروط بالنسبة الى الاطفال.

بيد ان هذه التجربة التي قيض لها النجاح بقيت خارجيـة بالنسبة الى الحركة : فللمرة المئة بعد الالف اعلنت مشكلــــة الشريكين الجنسيين والاطفال عن ظهورها، ولكنها لبثت هامشية، في مكانها المألوف ، ضمن سياق الحياة المسماة بـ «الخاصة» ، المفصولة عن الحياة «العامة» .

حين قدمنا الى السوربون لنقترح عقد اجتماع عن «المـــرأة والثورة» ، لاقى اقتراحنا ترحيبا ، لكن قيل لنا في الوقت نفسه ان نذهب للقاء العاملات في السوق (كما لو انه ليس ثمة ما يعمل حيث كنا موجودين ...) . وساررنا احد المحتلين ، وكان قــد شارك بقسط موفور في النقاش ، بقوله : «منذ خمسة عشر يوما ونحن ننظم مناقشات بصدد كل شيء ، وبغتة تذكرنا اننا نسينا النساء . فنظمنا اجتماعا حول وسائل منع الحمل» . لقد تذكروا اذن المرأة ، ولكن بوساطة أقراص منع الحمل ...

وهذا مع ان الطالبات كن حاضرات في كل مكان ، الى جانب

زملائهن : على المتاريس ، في لجان الاضراب ، في المدرجات المكتظة حيث كن يخطبن بكفاءة تامة . لكن لم يخطر ببالهن ان يبادرن الى صياغة مطالبهن الخاصة ، ولو كن فعلن لعرضن انفسهن لتقريع شديد : فتحرر المرأة يمر بطريق الثورة ، وعليه لا بد اولا من القيام بالثورة ، ثم يجد مصير النساء طريقه الى التسوية من تلقاء نفسه .

هكذا نجد غالبية النساء اللائي يشاركن بفاعلية في شتى الحركات السياسية معاديات بوجه العموم للحركة النسوية . لقد نجحن في شق طريقهن الى وسط «رجالي» ، والحديث عن اضطهاد المرأة يجرح آذانهن ، لانهن يرغبن في البقاء على اعتقادهن بأنهن حرات . مثلهن في ذلك مثل الخلاسي الذي يتنكر ، بعد قبوله في مجتمع البيض ، لأصله الملون ، ولا تعود به رغبة في الاحساس بأن العنصرية تعنيه بحال من الاحوال . ولكن بالرغم من تلك المشاركة النشيطة من جانب الطالبات، كان القياديون جميعهم من الرجال : ففي شارليتي على سبيل المثال ، حيث أقيم اهم مهرجان خطابي ، لم تتكلم أي فتاة .

حين التقينا بفتاة حساسة بالمشكلة وجدنا انفسنا امام حالة شبه خاصة : فرينيه ، المهتمة بتوزيع القاعات ، ابنة عامل ، وأسرتها لا تقبل بأن تشارك ، وهي البنت ، مثل تلك المشاركة في الحركة ، بل لا تقبل حتى بأن تتابع دراستها . وحين تفكر رينيه بوصفها نصيرة لتحرر المرأة، تستشهد للحال بسيمون دي بوفوار . والحال ان هذه الاخيرة لم تناضل قط عن غير طريق كتابها ، المستأهل للتقدير على كل حال : **الجنس الثاني** . فهي لم تلتزم شخصيا ولم تنخرط في اي حركة ، ولم تحدد اي وسيلة للعمل .

اما الفتيان فانهم لا يتبينون في غالب الاحيان اين جوهر المشكلة ، اذ تبدو لهم المساواة مكسبا ناجزا . وقد وصف لنا احدهم على النحو التالي مثله العاطفي الاعلى : «لا اريد لزوجتي ان تشتغل ، حسبي ان اكدح وأشقى انا ، وأمنيتي ان اكفل لها

حياة رغيدة تسمح لها بالبقاء مطمئنة في البيت لتعتني بالاطفال ولتفعل ما يحلو لها» . ولم ينتبه الى انه يتكلم بنفس لغة جده ، وهو الذي يريد ان يعيد النظر في كل شيء.

ان الطالبات هن اللواتي كن يتوقفن امام اعلاننا الجداري ، لأن التمرد على السلطة يعادل النطق بلغتهن ، وينبئهن بأن لهن مطالبهن الخاصة ، ويساعدهن على تعرفها :

ايها الطالب
يا من يعيد النظر في كل شيء
في علاقات العامل برب العمل
في علاقات التلميذ بالمعلم
هل فكرت ايضا بأن تعيد النظر
في علاقات الرجل بالمرأة ؟
ايتها الطالبة
يا من تشاركين في الثورة
لا تنخدعي مرة اخرى
لا تكتفي باتباع الآخرين
حددي مطالبك بنفسك .

من المرجح ان المسألة الجنسية كانت ستعاود طرح نفسها في خاتمة المطاف بكل وساعتها : ففي الاسابيع الاولى التي بدا فيها كل شيء ممكنا انصبت الجهود المحمومة على بناء عالم جديد ، وكان من المحتم ان تطرح مشكلة علاقات الرجل والمرأة ، كما حدث من قبل في بداية الثورة البلشفية .

لكن الوقت لم يتح لذلك . فقد دارت عدة مناقشات في الكليات ، ثم اغلقتها الشرطة الواحدة تلو الاخرى .

كثيرا ما قدمت تفسيرات لمشاركة النساء الحماسية في

الحركات الثورية ، بالرغم من انهن غير مسيسات في الازمنة العادية ، وترجع اغلب تلك التفسيرات السبب في ذلك الى قابليتهن الكبيرة للانفعال . اما نحن فنعتقد بالاحرى ان مرد ذلك الى ان كل وعد بعالم جديد ، كل اعادة نظر في العلاقات الانسانية التقليدية ، يمثلان بالنسبة اليهن املا بالتطرق اخيرا الى مشكلاتهن .

وعندما تنقشع حميا المعارك ، لا يبقى سوى اللجان والاحزاب وبنية بيروقراطية وطيدة لا تمحض النساء ثقتها ولا تستمع الا بشرود الى مطالبهن . وبدورهن يفقدن اهتمامهن ويسقطن من جديد في مستنقع اللاأبالية السياسية .

ان لجنة العمل المسماة «**اننا سائرات**» هي ، على حد علمنا ، ومن بين شتى الجماعات التي شاركت في حركة ايار ، تلك التي تطرقت الى المشكلة الجنسية بأكبر قدر من الجد والابتكار .

فقد لصقت على الجدران نصا اول : **العفو عن الأعين المفقوءة**، وهو يتألف من أطروحات ، ثم اصدرت نصوصا اخرى نشرت فيما بعد في كتاب **اي جامعة ؟ اي مجتمع** (٢٢) .

عبر تلك النصوص ، الفائقة الجمال في غالبيتها ، الباترة والشعرية في آن معا ، المتحررة من ثقل النثر الثوري المعتاد ، لا ترشح أيديولوجيا ناجزة مكتملة ، وانما بحث وتحرٍ . وتقبل الجماعة بامكانية مناقضة النصوص لبعضها بعضا احيانا ، لان في ذلك علامة العفوية والحرية المبدعة اللتين تكمنان وراء انشائها .

ان الخلافات تظهر حتى في تعريف المعركة التي يخاض غمارها :

«كانت الثورة البورجوازية حقوقية ، والثورة

---

٢٢ ــ منشورات لوسوي .

البروليتارية اقتصادية ، وستكون ثورتنا اجتماعية وثقافية» .

ويرد النص المعنون : **الصمت والعنف** بالقول :

«هذا صحيح ، لكنه غير كافٍ ؛ فثورتنا يجب ان تكون حقوقية واقتصادية **وجنسية**» .

وقد طرحت مشكلات الجنس والشريكين والاسرة بوصفها مشكلات سياسية ، مثلها في ذلك مثل مشكلات الاقتصاد او مشكلات العالم الثالث . ف « الرأسمالية تنتج مستغَلين ، والمجتمع الحالي ينتج لامتكيفين . وليس لدينا اي سبب للقبول بالواقعة الثانية تماما مثلما لا نقبل بالواقعة الاولى » . وأولئك اللامتكيفون معزولون ، ولهذا لا يدركون ان مصاعبهم هي مصاعب الغالبية .

كيف جرى تصور العلاقات الجديدة بين الرجال والنساء والاولاد ؟ وكبداية ، هل ثمة من داع لاستمرار وجود الزوج Couple ؟ ان النص المعنون ب «**الاستقلال الذاتي والاسرة والمجتمع**» ، بعد ان ينقد الاسرة البورجوازية وما يترتب عليها من ازدواجية خلقية ، يخلص الى هذا الاستنتاج الايجابي :

«ان حياة الزوج هي خير مدرسة للاتصال لمن يرغب فيه» .

لكن النص المعنون ب «**الجنس والزوجان والاسرة**» يرد بالقول :

«ليس الزوج مدرسة للاتصال . فاستحالة خلق

زوج الا على اساس علاقة زائلة ليست دليلا على استحالة العيش مجتمعيا . والمكانة المتميزة للزوج المكرسة علاقته رسميا هي وحدها التي تحمل في الوقت الراهن على الايمان بعكس ذلك» .

وهوذا في أرجح الظن تعريف يحاول التوفيق بين وجهتي النظر كلتيهما :

«الزوج عقد جنسي عفوي ، قابل للتحقيق في كل آن بين فردين . وليس له من وجود حقوقي او اقتصادي ، انما هو جنسي واجتماعي وثقافي» .

وبعد ذلك ، تحدد الروابط بين هذا الزوج وبين اولاده والمجتمع :

«لا يحق للزوج ان ينجب من دون ان يوقع عقد انجاب مع الجماعة التي تملك وحدها سلطة الموافقة على تلك الرغبة او ردها ، وسلطة اقامة ورعاية مؤسسات احتضان الطفل وتربيته ، وكذلك سلطة تحديد الوظائف التي يمكن او يجب على المنجبين ان يشغلوها في تلك المؤسسات» .

حل مبتكر وبسيط ، يميز الطفل بتجريده الاهل من حقوقهم عليه ، تلك الحقوق التي تنبع من كونهم فقط قد انجبوه ، وفي غالب الاحيان من دون ان تكون لهم رغبة حقيقية في انجابه . ويقيم على الاخص مسؤولية مزدوجة : مسؤولية الاهل تجاه الجماعة ، ومسؤولية الجماعة تجاه الاهل ، وفي هذا تقدم اكيد

بالقياس الى ايديولوجيا الثورة الروسية . ويبقى بعد كل شيء توضيح ماهية «الجماعة» ، ذلك الكيان الاجتماعي ـ الاقتصادي والثقافي الذي تحاول تحديده نصوص اخرى .

ان لجنة العمل ، لنلحظ ذلك ، تتميز بوجه عام بتسامح كبير ، وهي لا تهاجم اي حركة سياسية لانها تريد تجاوز طور المجادلات العقيمة . وثمة لهذه القاعدة استثناء : الهجوم العنيف على الحركة النسوية ، الذي يشغل الاطروحات الثلاث الاولى من النص المعنون بـ **«الجنس والتناسل والزوج والاسرة»** ، اي عين النص الذي يقدم تعاريف للزوج ولعلاقاته بالاولاد .

تبدأ الاطروحة الاولى على النحو التالي : «ان الحركة النسوية ، المنطلقة من مناقضة أصيلة للمجتمع الابوي ، قد أسهمت في خاتمة المطاف في اكتمال الاستلاب النسائي» .

وجاء في الاطروحة الثانية : «ان الحركة النسوية ، بتبنيها حربا عبثية ومستحيلة بين الجنسين منسوخة عن صراع أصيل وتاريخي بين الطبقات، تخلفت عن ركب الثورة، وخدعت أتباعها، وأوجدت التباسا في اللغة» .

وأخيرا تنتهي الاطروحة الثالثة على النحو التالي : «لقد جعلت الحركة النسوية من النساء شريكات ، عن طوع او لا ، في جرائم مجتمع الاستهلاك ـ الاضطهاد بحق العالم الثالث والطفولة واللامتكيفين والشيوخ» .

وان المرء لتأخذه الدهشة ازاء هذا العنف الذي يتهم ، لكن من دون ان يفسر .

والمفيد ليس ان نناقش هذه الاطروحات ، بل ان نحاول ان نفهم علة تلك العدوانية تجاه الحركة النسوية . فالفياديون، اولا، كانوا هنا كما في كل مكان آخر من الرجال . رجال يشعرون بأن لهم الحق في نقد حركات النساء ، كما لو انهم ليسوا خارجيين بالنسبة الى المشكلة . ترى هل كانوا سيدللون على الثقة ذاتها

بالنفس لو كان عليهم ان يدينوا ، وهم البيض ، حركات للسود؟ ثمة مجال واسع للرهان على انهم كانوا سيبدون المزيد من الحذر، اذ ما كان ليساورهم اي حرج في الاقرار بأنهم يشعرون بأنهم معنيون بالامر ولو بصورة غير مباشرة .

هذا ، بينما يميط الغضب على الحركة النسوية عن رفض : وبالتحديد رفض الاعتراف للنساء بالحق في مناقشة اضطهادهن وتقرير وسائل التصدي له وخلع نيره . ان صوغ أطروحات نظرية عن المساواة بين الجنسين لا يعني **عيش** هذه المساواة. لكن ان يدع الرجال النساء يعبرن عن انفسهن ويطرحن مطالبهن يعني الالتزام بعيشها، ويعني اعادة الرجل النظر في نفسه حالا وفورا، كما سبق لنا البيان . ومن الاسهل ، والحالة هذه ، إلزام النساء بالصمت واعلان بطلان محاولتهن اليتيمة للتحرر . وانه لما له دلالته الا تناقش اخطاء هذه المحاولة وأن تدان دفعة واحدة ، لانها لا تدان الا بوصفها تحررا نوعيا ، نسائيا .

٥ ــ نصيرات المرأة .

لنتطرق الى ذلك الغول الاسطوري ، النسوية . وكلمة «النسوية» هي بكل تأكيد واحدة من اكثر كلمات اللغة الفرنسية شحنا باللعنة والترذيل . وليست الحال كذلك في كل مكان ، وعلى الاقل ليس بالدرجة ذاتها . ففي انكلترا رفع تمثال لواحدة من أنشط العاملات في الحركة النسوية ، اميلين بانكهورست ، وذلك في قلب لندن ، في وسمنتسر .

بيد ان فرنسا بلد لاتيني . ففي حوض البحر الابيض المتوسط ، كما تلاحظ جرمين تيئون ، يكتسي اضطهاد المرأة

ابرز أشكاله ، ويرسي صلف الذكورة اعمق جذوره[٢٣] .

وتقع فرنسا بالضبط بين شمال اوروبا والبحر الابيض المتوسط . المرأة فيها لا تجبر على حمل الحجاب ، ولكن يندر ان ينظر احد بعين الاستحسان الى انعتاق النساء ؛ وحسبنا ان نذكر قانون نابليون الذي سجل بالنسبة اليهن تراجعا ونكوصا خطيرا ؛ وحسبنا ايضا ان نذكر حق الانتخاب الذي لم يمنح لهن الا في عام ١٩٤٤ ، اي بعد ثلاثة ارباع القرن من فوز الاميركيات في ولاية يومنغ به؛ وأخيرا التأخر في مضمار وسائل منع الحمل. وينبغي ان ننوه هنا ايضا بالمسافة التي تفصل الاسطورة ، التي تجعل من الفرنسية انسانة جريئة ، محنكة ، متحررة ، مشهورة باتقانها فن الحب ، عن الواقع .

وحتى نقيس مدى ذلك التأخر في فرنسا ، حيث لم يكن بد من انتظار نهاية الحرب العالمية الثانية حتى تنتخب النساء ، لنعد الى الاذهان انه ، بعد ولاية يومنغ في عام ١٨٦٩ ، بادرت زيلاندا الجديدة في عام ١٨٩٣ ، ثم استراليا الجنوبية في عام ١٨٩٤ ، واستراليا في عام ١٩٠٢ ، الى منح النساء الحقوق القانونية عينها التي يتمتع بها الرجال . ثم جاء بعد ذلك دور اسكندنافيا: فنلندا في عام ١٩٠٧ (اول بلد في اوروبا) ، النرويج في عام ١٩١٣ ، والدانمرك في عام ١٩١٥ . ولم يأت دور العديد من البلدان الاوروبية الاخرى الا غب الحرب العالمية الاولى : الاتحاد السوفياتي في عام ١٩١٧ ، وبريطانيا العظمى وألمانيا الجديدة في عام ١٩١٨ .

اما الحركة النسوية ، فان صفحتها من اكثر صفحات التاريخ مجهولية وخفاء . وهذا مع انها توافقت زمنيا مع حركات تاريخية كبرى اتاحت للنساء فرصة التعبير عن انفسهن واحراز بعض

---

٢٣ ـ جرمين تيئون : «الحريم وأولاد العم» ، لوسوي ، باريس ١٩٦٧ .

الانتصارات . وهكذا كان لا بد من انتظار الثورة الفرنسية حتى ترتسم المعالم الاولى لبداية الحركة : ففي فرنسا اخذ كوندورسيه ، وهو فيلسوف مناصر للمرأة ، على عاتقه في مؤلّفه **قبول النساء في حقوق المواطنية** مهمة اثبات ان الرجال قد «انتهكوا المساواة في الحقوق بحرمانهم بكل طمأنينة وهدوء بال نصف النوع البشري من حق المشاركة في رسم القوانين» ، وطالب للنساء بالمساواة السياسية التامة والكاملة .

وفي الفترة نفسها خاضت اولمب دي غوج ، وهي «ممثلة ، امرأة طموح ، شبه غانية ، شبه أمية ، فائرة الدماغ» كما يصفها ليون أبنسور[٢٤] ، نضالا لا هوادة فيه بالكلام وبريشة سكرتيراتها اللائي وضعن بإملائها **اعلان حقوق المرأة والمواطنة** . وباسم تلك الثورة التي تزعم انها تحرر النوع البشري ، تطالب بانعتاق المرأة وتعلن : «يجب ان يكون للنساء الحق في المنصة مثلما لهن الحق في المقصلة» . ولم يكن كذلك هو رأي الثوريين المناوئين لتدخل النساء في شؤون السياسة . وبسرعة كبيرة ، ومنذ ١٧٩٣ ، قررت الجمعية التأسيسية ، المتأثرة بكتابات عدو المرأة روسو ، اغلاق جميع النوادي النسائية وأمرت النساء بلزوم بيوتهن .

وانتقلت الشعلة الى انكلترا حيث حاولت ماري ولستونكرافت ان تقنع ابناء جلدتها بأن افكار الثورة الفرنسية تنطبق على النساء كذلك . وفي انكلترا تحديدا ، في مطلع القرن التاسع عشر ، اتسع نطاق الحركة النسوية مع النضال الاخاذ الذي خاضت غماره «المستنخبات» .

اما الولايات المتحدة الاميركية ، البلد الجديد ، فقد كانت فيه النساء اكثر حرية مما في اوروبا . وكان من المحتم ان تندلع

---

٢٤ ــ ليون ابنسور : «التاريخ العام للحركة النسوية» .

شرارة الحركة عند الاصطدام بالآراء والاحكام المسبقة للقـــارة العجوز : ففي عام ١٨٤٠ فوجئت مندوبات اميركيات ، قدمن الى مؤتمر دولي مناهض للرق في لندن ، بحجب حقهن في المشاركة في اعماله الا من رواق المتفرجين . وعند عودتهن الى الولايـات المتحدة ، صرن يربطن بين المعارك في سبيل تحرر السود والمعارك في سبيل تحرر النساء .

ان الحركة النسوية مرتبطة بتطور المجتمع الصناعي: فبفضل الآلة يغدو عمل النساء اليدوي التقليدي ضئيـــل الايرادية ، فيتخلين عنه رويدا رويدا . زوجة العامل نفسها تغدو عاملة ، وتذهب للعمل في الخارج ، في شروط بالغة القسوة . اما المرأة البورجوازية فلا يتاح لها ، بحكم التقاليد التي تبقيها اسيرة البيت وبحكم وهن تعليمها ، الوقت او الامكانية للعمـــل في الخارج . وعندئذ يظهر الى حيز الوجود **تناقض النسوية الاساسي**: فالعاملة لا تصبو الا الى ترك عمل مرهق، والبورجوازية تطالب على العكس بحق العمل الذي يحررها اقتصاديـا ويفسح امامها المجـــال للمشاركة في الحياة الاجتماعية .

بيد ان الكثيرات من العاملات في الحركة النسوية يؤكـدن تمسكهن بالمبادىء الاشتراكية ؛ وأشهر الامثلة على ذلك يتمثل في لويزا ميشيل ، المعلمة ، التي كانت تقف من حيث الوضـــع الاجتماعي على جسر بين المرأة العاملة والمرأة البورجوازية . غير ان ما يخيب آمالهن هو ما يشاهدنه من تأبٍ عن دمج كفاحهن في الكفاح البروليتاري . ووضع العاملات منهن هو بالفعل لا يطاق : فعليهن من جهة ان يتضامنّ مع أزواجهن ضد الطبقة الحاكمة وأن يتمردن في الوقت نفسه على أحكام هؤلاء الازواج المسبقة .

البورجوازيات اذن هن اللواتي يخضن معترك النضال النسوي في المقام الاول . وفي الحقيقة ، انهن متأخرات بمعركة واحدة عن الرجال. ففي الوقت الذي فهم فيه هؤلاء ان الحقوق البورجوازية ما هي الا كلمات ، فنقلوا الكفاح الى الصعيد الاقتصادي ، ما زلن

هن يطالبن بتلك الحقوق البورجوازية عينها ــ ورمزها الاول حق الانتخاب . وغالبا ما تشعر القياديات منهن وأكثرهن وعيا بأنهن معنيات ايضا بالنضالات العمالية ويبدين كامل الاستعداد لمؤازرتها ولمساندتها ، لكنهن يتلقين في بعض الاحيان ايضا مساندةالاحزاب السياسية اليمينية ، وهذا ما يجعلهن مشبوهات في خاتمة المطاف في أنظار الاشتراكيين . ومن قبيل ذلك انه حين انتقلت النرويج تحت ضغط الشعب في نظامها الانتخابي من اقتراع دافعي الضرائب الى الاقتراع العام ، سارعت البورجوازية ، تخوفا من اقتراع «حفاة الاقدام» الى منح النساء البورجوازيات حق الانتخاب لتعديل كفة الميزان من جديد .

ان صمت الذاكرة الجماعية بليغ الدلالة ، وأبلغ دلالة منه ايضا تشويهاتها وتحريفاتها . فهي لا تحفظ من المعارك النسوية سوى صورها الكاريكاتورية : فنصيرة المرأة لا يمكن ان تكون الا سيدة عجوز ، عدائية ، مثيرة للضحك ، وهذه ثالثة الاثافي من حيث انها امرأة . وهذه الصورة «الرسمية» للنسوية تهدف الى تثبيط همة اية محاولة جديدة للتمرد ، والى إحكام قولبة المرأة في الصورة المعاكسة ، صورة انوثة شابة ، جميلة ، طيعة وامتثالية .

اما الهزء ، وهو السلاح المفضل للمجتمع ضد مناقضيه ، فلا يكون الا أشد مضاء بالنظر الى ان المرأة ، المعوّدة منذ طفولتها على ان يحكم عليها بناء على مظهرها ، حساسة به منتهى الحساسية .

ان النسوية هي وعي المرأة لاضطهادها . وما هذا الاضطهاد باقتصادي او حقوقي او جنسي فحسب ، بل قد يكون ايضا وعلى الاخص سيكولوجياً . وبالفعل ، ان لكل امرأة الحق بحكم جنسها في معاملة خاصة ، هدفها ارساء عقدة نقص في أعماق نفسها . وهذا الاضطهاد وان يكن اكثر خفاء من ذاك الذي يقاسي

منه العامل ، فانه لا يقل عنه واقعية . والبرهان على ما نقول يتمثل في العنف الذي ترد به المرأة على ذلك الاضطهاد ، على نحو اخرق في غالب الاحيان ، اذ انها معزولة وتحس بأن لا تأثير لها على المجتمع الذي يحظر عليها التفكير باحتمال ادراج مطالبها في حركة جماعية ، مع ان مثل هذه الحركة هي وحدها التي تسمح ، بجمعها بين المشكلات، بيقظة الوعي وببداية نزع الاستلاب . وانما عندما يشاطر المرء تمرده مع آخرين تتم له السيطرة عليه، ويحوله الى حافز للعمل .

عند الاقتضاء نستطيع القول ان نصيرة المرأة الباعثة على الضحك والهزء هي بذاتها الدليل على اضطهاد المرأة : فهي طاعنة في السن بالضرورة لان المرأة لا تدرك انها ذهبت ضحية الغش الا في زمن متأخر ، بعد ان تذهب نضارتها فلا يعود احد يكيل لها الثناء ، وبعد ان يهجرها اولادها الذين من اجلهم ضحت بحياتها؛ وهي ساخطة وحادة الطباع بالضرورة لان الاوان قد فات .

ان الحركة النسوية هي العمل الجماعي الذي يتجاوب مع ذلك الوعي للاضطهاد ، وهي حركة تحرر ، وبهذه الصفة لها الحق في عين الاحترام الذي تلقاه سائر حركات التحرر .

بفضل الحركة النسوية تم الحصول على حقوق معينة ، وأهمها اطلاقا الحق في التعلم . وبعد ذلك الانتصار الاول خيل للكثيرات انه يكفي مذذاك فصاعدا الانتظار حتى تتبدد الاحكام المسبقة من تلقاء نفسها رويدا رويدا ، بعد ان تكون النساء قد قدمن الادلة على كفاءتهن . وجرى تصنيف «الاوائل» : الطبيبة الاولى ، المحامية الاولى ، الاستاذة الجامعية الاولى ، الطيارة الاولى ، الملاحة الفضائية الاولى ...

لكن الواعيات من النساء سرعان ما ادركن ان العقبات تعاود، كالسور السحري ، ظهورها في مكان آخر ، بالقوة ذاتها . فتلك الحقوق ، التي لم تكتسب الا بغالي الاثمان ، لم تستخدم من قبل النساء . والاستثناءات القليلة ما كانت الا لتؤكد القاعدة وتقدم

الذرائع لخصوم المساواة : فالمرأة باتت تتوفر لها الامكانيات جميعا ، فاذا لم تجن منها فائدة فهذا معناه انها مختلفة فعلا عن الرجل ، وان ذلك قانون من قوانين الطبيعة لا مرد له ولا يمكن اتيان شيء حياله .

وكانت بلبلة ، ودامت طويلا .

اما النتيجة العَملية فكانت استقالة النساء اللائي نجحت معهن محاولة تجريدهن من كل رغبة في اقتفاء آثار شقيقاتهن الكبيرات اللائي صرن هدفا للهزء والسخرية . وظلت الحركة النسوية على قيد الحياة رغما عن كل شيء واستمرت في منظمات نسائية شتى تنفي بالاصل ان تكون نسوية ، لكنها لا تتوصل الى تعبئة النساء في نشاط منسق متضافر . والحق ان اهداف هذه المنظمات متباينة تباينا شديدا .

بين تلك الروابط ، هناك تلك التي لا ترسم علامة استفهام حول المجتمع الراهن ، ولا تريد ان يكون لها اي طابع سياسي ، وتعمل في سبيل اندماج افضل للنساء في هذا المجتمع . انها تدافع عن الطبعة «الحديثة» للمرأة البيتية : مزاولة وجيزة للحياة المهنية بين الدراسة والزواج ، عشرة أعوام في البيت تنذر فيها نفسها لتربية الاولاد ، ثم العودة الى الحياة المهنية . وهذه، والحق يقال ، تسوية غير مضمونة النتائج لا تذهب ضحيتها الا المرأة : اولا في خدمة أسرتها ، ثم حين يباح لها اخيرا ان تفكر بنفسها ستجد انه من الصعب عليها ان تعود ، بعد انقطاع طويل الامد ، الى شق طريق لها في مجتمع تنافسي ومتراتب هرميا نظير المجتمع الصناعي .

ومن الصيغ الاخرى لذلك التصور العمل النصفي الذي تنقسم الحركات النسائية في موقفها منه . فحول العمل النصفي يبرز من جديد التناقض الذي سبقت الاشارة اليه : فالجامعيات والبورجوازيات يتطلعن الى نفس امكانيات العمل المتاحة للرجال

ويناضلن ضد عدم التخصص المترتب على العمل النصفي ، بينما ترى العاملات فيه على العكس تحسينا على المدى القريب لوضعهن الراهن الذي يعادل يوم عمل مضاعفا : يوم عمل المصنع ويوم عمل البيت .

لهذا فان العمل النصفي هو الحل الذي ينادي به «اتحاد النساء الفرنسيات» ؛ ويناضل هذا **الاتحاد** ، مقتفيا خطى الحزب الشيوعي وممتثلا للروح ذاتها ، من اجل تقديم سن الاحالة على المعاش بالنسبة الى النساء الى سنة الخمسين . وهذا مطلب متناقض ، يشهد مرة اخرى على قلة تفكير الشيوعيين الفرنسيين بمشكلة النساء : ففي الوقت الذي تتحرر فيه المرأة اخيرا من اولادها وتتأهب لان تعيش حياتها بعد وفاة زوجها في كثير من الاحوال ، يُحكم عليها بخمول التقاعد ، بـ «عمر ثالث» تستعيد فيه طاقاتها جميعا .

في هذا السياق ، تريد مجلة **اتحاد النساء الفرنسيات** ، Heures Claires ، ان تكون «نسائية» بملء معنى الكلمة : فهي تفسح اوسع المكان للموضة وارشادات التجميل وأطباق الطعام والعناية بالاطفال . وتعكس موضوعات المقالات الرئيسية اهتمامات الحزب الشيوعي . وفي عامي ١٩٦٨ و١٩٦٩ لم تنشر غير مقال واحد عن منع الحمل؛ صحيح انها ايدت فيه، بعد طول تحفظ ، اللجوء اليه ، ولكنها لم تأخذ موقفا واضحا وحاسما من الاجهاض . الجديد لا يأتي اذن من هذه الناحية .

ان الروابط النسائية المتقدمة على غيرها وعيا تقف الى يسار الاحزاب التقليدية ، كما في القرن الماضي ؛ فهي ترفض العمل النصفي، وترى في الاشتراكية، بامكانياتها وخدماتها الاجتماعية، حلا يتيح للمراة ان توفق ، نظير الرجل ، بين المهنة والحياة العائلية .

غير ان تلك الحركات جميعها تريد ان تكون جماهيرية ، وحتى لا تخيف المنتسبات اليها تستنكف عن اتخاذ مواقف جذرية ولا

تأتي بذكر الحياة الجنسية الا بتكتم وتحفظ شديدين . وحصان معركتها هو العمل ، وايديولوجيتها هي المساواة . وهذا غير كاف ، لان هذه الشعارات تتخذ مرجعا لها المجتمع البورجوازي، صنيعة الرجال . ولن نكون الا متمسكين بحبال الوهم لو عقدنا الامل ، في هذا السياق ، على تحرر النساء .

وعلى كل حال ، ان معظم تلك المنظمات مرتبطة علنا او سرا بحزب سياسي . وهكذا يتكرر المخطط الكلاسيكي : المواضيع الجدية و«السياسة الكبرى» للرجال ، والمواضيع الثانوية من عمل اجتماعي وصحة ، الخ ، للنساء .

والعمر المتوسط للنساء الاعضاء فيتلك المنظمات مرتفع بوجه عام . وهذا لان الفتاة التي في مقتبل العمر ، المتملقة من قبل المجتمع ، المشغولة بنفسها ، والمأخوذة بمغامراتها العاطفية، تكون ما تزال في طور الاوهام . ولكن مرد ذلك ايضا الى ان تلك المنظمات لا تهتم بالمشكلات التي تعنيها بصورة مباشرة : فمشكلتها الاولى هي جسدها ، والمنظمات النسائية تحاذر الكلام عنه جهارا .

الإحالات الايديولوجية المذكرة ، انعدام الجاذبية بالنسبة الى الشابات ، الارتباط بحزب سياسي : ان جميع نقاط الضعف هذهترجع علتها الى نقطة ضعف يتيمة، هي عدم وجود ايديولوجيا جذرية تتصدى لعقدتي المعضلة : الجنس والاسرة . والحال ان الروابط النسائية لا تدلل البتة تقريبا على جرأة وجسارة بصدد ذينك الموضوعين . ولهذا لا تتوصل الى نتائج في مستوى نشاطها .

ان النسوية الجديدة التي رأت النور قبل سنتين ونيف والتي تتطور بسرعة في أقطار الغرب ، تتميز بجلاء عن النسوية القديمة : فمواقفها جذرية ، والمناضلات في صفوفها شابات . وهاتان النقطتان مترابطتان ؛ فقد باتت النساء يعين في سن

مبكرة جدا اضطهادهن والاحراج الكاذب الذي يضعهن المجتمع أمامه : اما القبول بـ «قدرهن» الانثوي اي ان يعشن في كنف زوج وأن يعملن بـ «تفان» على تربية الاولاد الذين يحتاج اليهم المجتمع ، وإما تقليد «قدر» الرجل والنجاح في مهنة من المهن نظيره وركوب مركب «مساواة» مصطنعة ـ لانها مستحيلة ـ في الشروط الراهنة . وفي الحالتين كلتيهما تتحمل النساء تكاليف اختيار ما هو في الحقيقة باختيار .

يؤدي رفض الإحراج الى اعادة نظر جذرية في المجتمع . والجماعات التي ترى النور عفويا وتلقائيا ، من مدينة الى اخرى، ومن قطر الى آخر ، تنطلق من معطيات مختلفة : فهي ذات طابع سياسي في فرنسا حيث توجد تقاليد ماركسية وان لم توجد تقاليد نسوية ، وضعيفة التسيس على العكس في هولاندا او اسكندنافيا حيث الوضع بالمقلوب . ومن هنا كان انطباع البلبلة والتشوش الذي يساور المراقبين الاجانب . ولكن كل ولادة يكتنفها التباس .

والحال اننا امام ولادة فعلا . فالمرأة الجديدة ، مستقبل البشرية ، هي في سبيلها اخيرا الى الولادة ، وهي التي تقرر بنفسها شروط هذه الولادة .

٦ ـ خاتمة .

ليست الثورة الاقتصادية بذلك الدواء الناجع الشافي للامراض جميعا والذي سيسوي بمفرده تناقضات مجتمعنا الصناعي . فهذا المجتمع يتسم بثلاث ظاهرات مترابطة فيما بينها : الطبقات الاجتماعية ، والاسرة الحديثة ، والمدرسة كرمز لنظام تربوي . وقد افرزت او تفرز كل واحدة من هذه الظاهرات

مناقضتها الذاتية: فقد جعلت الماركسية الطبقة العاملة تعي هيمنة البورجوازية عليها ، كما كانت النسوية بالتوازي التعبير عن يقظة وعي لدى النساء بهيمنة الرجال عليهن . واخيرا ظهرت الحركة الطالبية مؤخرا لتناقض نظامنا التربوي . وهذه المناقضات هي التي تحمل في طياتها بذور التجديد ، بيد ان كل واحدة منهـا شقت طريقها على حدة . فهل تتوفر اليوم الشروط لاجتماعها ؟ لنرجع اولا الى اسباب اتحادها الفاشل .

لقد رأينا ان الاشتراكية والنسوية رأتا النور في زمن واحد تقريبا. وعلى امتداد القرن التاسع عشر كانت الحركتان تتلامسان من دون ان تلتقيا . فالنسوية التقليدية هي قبل كل شيء حركة نساء بورجوازيات راغبات في التحرر اقتصاديا ومطالبات بشروط عمل الرجال نفسها . اما العاملات ، الرازحات تحت نير اضطهاد مزدوج : الجنس والطبقة ، فلا يطمحن على العكس الا في هجر عمل غير مثير للاهتمام من اجل ظاهر حرية البيت . ولم يـر الاشتراكيون في النسوية سوى مطالب البورجوازيات اللائـي يخضن نضالات لا تعيد النظر في النظام بل ترمي الى العكس الى اندماج افضل فيه . ولم يشؤوا ان يروا النواحي المبرَّرة التـي كان ينطوي عليها تمردهن ، ولم يقيموا اعتبارا لتفكيرهن عنـد تطرقهم الى «مشكلة الجنسين» . وقد تطرقوا اليها بصفتهـم رجالا ، من الخارج . ولم يحاربوا على الاخص الاساطير الرجعية عن الانوثة والرجولة ، بل خُدعوا بها واخذوا في شراكها .

ان النسوية الجديدة لذات اتجاه اشتراكي وجذري راسخ . وتأتي المناضلات في صفوفها من حركات ثورية واشتراكية شابة حيث لاحظن مرة اخرى ان كل دورهن فيها كان تقديم قـوة مكملة ومساندِة . وهن لا يكتفين بطلب المساواة في الاطـار الحاضر ، بل يضعن هذا الاطار في قفص الاتهام ويتصديـن لمشكلتي الاضطهاد النسائي النوعيتين : الاسرة والحياة الجنسية. وانما بفضل هذه المناقضة الشاملة للمجتمع يمكن هذه المرة تجاوز

التناقض بين البورجوازيات والعاملات .

ان كل شيء يبيح لنا الاعتقاد بأننا نعاين هنا التباشير الاولى لظاهرة لن تفتأ في نمو وتطور ، لانها المرة الاولى التي تتوفر فيها للنساء الشروط المناسبة لمناقضة متروية ، متبصرة ، فعالة . وبالفعل ، تقف النساء في محيط دائرة السلطة ، حيث يعين أصفى ما يكون الوعي ما لا يراد ان يعطى لهن . وكما يوضح أ. تورين (٢٥) ، ليس العمال الاكثر معاناة من الاستغلال هم الذين يتوفر لديهم اقوى وعي طبقي ، وانما هم العمال المختصون والمهرة . وقد اكتفت نساء القرن الماضي ، الفارقات في استلابهن ، بالمطالبة بالحقوق المباشرة ، كحق الانتخاب وحق التربية .

وبنيل هذه الحقوق ، توفرت لهن المقدرة على فهم دور الحريات في المجتمع الديموقراطي ، وهو دور مموِّه للواقع عن طريق توكيد المبادىء .

وتلعب الجنسية Sexualité والتربية دورا راجحا في يقظة الوعي تلك . فالتحرر الاول هو تحرر الجسم ، وهو يبدأ بالنسبة الى المرأة في القرن العشرين . وبداية التحرر هذه كافية بذاتها لافهامها ان جوهر الامور يفلت منها هنا ايضا ، وأن التحرر الجنسي والاجتماعي متلازمان .

بفضل التربية التي يشجع المجتمع المرأة بفتور على الاستقاء من منهلها لحاجته الى شغيلة من كل اختصاص ، قابلين للقيام بجميع الاعمال ، تجد المرأة نفسها في الوضع عينه الذي يضع فيه تورين الطالب : «في داخل عالم التنظيم والتقنية وفي خارجه

---

٢٥ ـ أ. تورين : «حركة ايار او الشيوعية الطوباوية» ، منشورات لوسوي ، ١٩٦٨ .

معا» . واحباط الطالبة ، التي تصيب حظا من النجاح يعادل ما يصيبه زملاؤها في الجامعة ومع ذلك «تضحي» بعملها ومستقبلها فيما بعد لصالح عمل زوجها ومستقبله ، هذا الاحباط يقوم شاهدا حيا على تناقض المجتمع : فليس في المستطاع تعليم الافراد وخداعهم الى ما لا نهاية في آن معا ، وليس من المعقول الابقاء على الاستلاب على صعيد الوقائع مع اعطاء وسائل الخلاص منه على صعيد المبادىء .

وعلى وجه التحديد في الاقطار التي غدا فيها الوضع قابلا أشد القابلية للانفجار ، اي في الولايات المتحدة الاميركية ، دبت الحياة من جديد في التمرد النسائي .

ثلاث مناقضات

وتناظرها الفئات الثلاث من «القاصرين» في مجتمعنا: العمال والنساء والطلبة .

المناقضة العمالية وتعبيرها ، الماركسية ، هي الاقدم عهدا والاغنى بالتجربة نظريا وعمليا .

والمناقضة النسوية ، المماثلة للاولى قدما ، يكتنفها قدر اكبر بكثير من الالتباس ، لان استلاب النساء غير قابل للارجاع الى مخطط بسيط .

وهذا الالتباس عينه يسم بميسمه المناقضة الثالثة : فالطلبة لا يؤلفون طبقة . والمرء لا يبقى فتيا طوال حياته ، وهذا من قوانين الطبيعة . وبالمقابل ، يعين قانون آخر من قوانين الطبيعة لكل فرد جنسا طول أمد حياته . وعليه ، ان الشرط العمالي هو الذي يمثل ، على أجلى وأصفى نحو ، ظاهرة «اجتماعية» .

لا تستطيع هذه الفئات الثلاث التابعة للمجتمع الحديث ان تلتقي وتجتمع الا عبر مناقضة شاملة لهذا المجتمع . ولن يكون

ذلك سهلا ، لان الفوارق تهدد بنشوء دوغمائيات عديدة . لكن يبقى على كل مناقضة ان تتعلـــــم اشياء كثيرة من المناقضتين الاخريين .

فالماركسية ، كما لا تزال تؤوّل الى اليوم ، نظرية اجتماعية في المقام الاول ، وقد امكنها ان تبادر الى العمل بدون تحليـــل سيكولوجي معمق لان الاضطهاد الذي تتصدى له بسيط .

اما العلاقات بين الرجال والنساء فأشد تعقيدا بكثير : فهناك رجال ينتحرون من اجل امراة ، وليس هناك رب عمل ينتحر من اجل عامل ... والصلة العاطفية تخلط الاوراق . ففي وســـع العامل ان يشتغل لحساب رب عمله وأن يناضل ضده في داخل نقابته : فالامور واضحة . اما المرأة التي تشرع بالنضال ضـــد اضطهاد النساء ، فانها تجد نفسها منقادة الى تغيير جـــذري لعلاقاتها بالرجال ، وعلى الاخص بزوجها .

انها لمسألة جديدة لا بد من التصدي لها مواجهة . ومـــن الحلول المطروحة قيام حركات نسائية صرف ، كما هي الحال اليوم بوجه العموم. ومن الحلول الاخرى تنظيم المناقضة الجنسية ضمن نطاق الحركة الثورية ذاتها . ويذهب بنا الفكر هنا ، على سبيل المثال ، الى سيكودرامات (٢٦) مختلطة حقيقية يجـــري تمثيلها بين الرجال والنساء حتى يعي كل واحد استلاباته ويعزم على مواجهتها بدلا من تمويهها .

ان الجنسية هي نقطة التقاء تلك المناقضات : اذ ان لهـــا الاولوية بالنسبة الى النساء والى الشبان معا . وقد تجاهلتهـــا حتى الان الحركات الاشتراكية ، المشغولـــة في المقام الاول باستراتيجيتها الاقتصادية . وقد أحس آباء الماركسية بأهميتها،

---

٢٦ ـ السيكودراما : تمثيل نفساني ، وهو ارتجال تمثيلي موجّه ، هدفه قيام المرضى بتمثيل تصرفاتهم في الحياة . «م»

لكن الوضع لم يكن ناضجا ، وعلة ذلك الجزئية هـي ان المعنيين الرئيسيين ، النساء والشبان ، ما كانوا في حالة تؤهلهم للافصاح عن مطالبهم . والجنسية قمينة بأن تكمل المطلب العمالي وبأن تعطي الماركسية الراهنة من جديد البعد السيكولوجي الذي قد يمكنها من الخلاص من نشاف الشرايين . وبالمقابل ، ان الجنسية ظاهرة سياسية لا سبيل الى حلها بدون دراسة معمقة للجبريات الاجتماعية .

عن « بارتيزان »
تحرر النساء : العام الصفر

الامومة ونضال النساء

آن ك ...

البنود الاساسية في برنامج الكفاح النوعي للنساء الثوريات هي :

- الاستقلال الاقتصادي .
- الغاء العمل العائلي الاسترقاقي .
- الامومة الطوعية .

الاستقلال الاقتصادي

في الوقت الراهن يبيع الشغيل القادر على العمل قوة عمله ويحيا من أجره . والمرأة التي لا اطفال عندها تستطيع ان تفعل نظيره : وان يكن أجر المرأة ، مقابل عمل متساوٍ ، أقل من أجر

الرجل في غالب الاحيان . غير ان العمل المدفوع الاجر يعود مع ذلك على المراة التي لا اطفال عندها بوضع اجتماعي مشابه لوضع الرجل . وبالمقابل ، فان ولادة الطفل ينجم عنها اختلاف في الوضعين الاجتماعيين لكل من الرجل والمراة اهم بما لا يقاس من تفاوت اجرهما .

● ان إنجاب طفل او عدة اطفال يزيد، بالنسبة الى الشغيل، من احتمالات رزوحه تحت الاضطهاد ؛ فرب الاسرة الواعي لمسؤولياته يضطر في كثير من الاحيان الى العمل بأي أجر كان ، وفي اية شروط كانت ، كيما يتمكن من تأمين القوت لاولاده ؛ والتنقل او الابتعاد عن اسرته عليه أصعب ؛ وفقدان مصدر اجره اثناء اضراب او بنتيجة تسريح يمكن ان يكون فاجعا . غير ان الوضع الاجتماعي للأب لا يختلف عن الوضع الاجتماعي للرجل الذي لا تثقل كاهله أعباء عائلية .

● اما وضع المراة الاجتماعي فيطرا عليه بنتيجة الامومة تبدل اكثر جذرية : فرعاية الطفل في سن ما قبل المدرسة يقع عبئها بتمامه عليها بوجه عام ؛ وهذه المهمة، التي تستوجب حضور الام ٢٤ ساعة في اليوم ، لا يُعترف بها على انها عمل حقيقي ، ولا تسري عليها قوانين العمل من تعويض وتحديد للزمن وإجازات وضمان اجتماعي . ناهيك عن انها ترغم غالبية الامهات على ترك كل عمل مدفوع الاجر . وهذا ما يحكم على الام وأولادها بالتبعية الاقتصادية للأب ؛ ومن هنا يغدو الشرط الاجتماعي للمراة ــ الام شرط أمَة مسترقة .

الغاء العمل العائلي الاسترقاقي

ان اطلاق صفة «العمل الاسترقاقي» على ما يجري عادة تمويهه ، عن خطأ ، تحت تسمية **دور الام** او **حب الام** ، قد يصدم

او يجرح المشاعر للوهلة الاولى . غير ان الدور الذي يعزى الى الام يتألف من عنصرين متباينين للغاية ولا يمكن الفصل بينهما :
١ ـ العمل الواجب القيام به ازاء الطفل ؛ ٢ ـ حب الطفل .

هذا مع انه لم تجر العادة على الخلط بين العمل والحب . فحين تبدل المرضة ملابس المريض او تناوله الطعام ، تمارس عملا ؛ وحين تذهب لملاقاة خطيبها في موعد ، تعطيه وتتلقى منه براهين حب لا ضلع لها بنشاطاتها اثناء العمل . كذلك ، لا يتحدد حب الام لطفلها بالحساء الذي تعده له وتلقمه اياه ، ولا بالاقمطة التي تغيرها له : فهذا من عمل الحاضنة . اما حب الام فيتجلى في الاويقات التي تساورها فيها رغبة فعلية في ان تكون مع طفلها وفي ان تقدم له براهين الحب (المختلفة جد الاختلاف عن تنظيف إليتيه) وفي ان تتلقى منه نظيرها . هذا لا يعني ان الأم لا يمكن ان تقدم الحساء بسرور وغبطة لطفلها . فالمرضة التي تساعد المريض على الاكل قد يخامرها سرور بعملها ؛ ولكنها قد تفعل ذلك ايضا بلا لذة، وبخاصة اذا ما كانت متعبة منهكة ؛ وهذا شيء لا دخل له بالحب . ومن المحتمل الى ابعد حدود الاحتمال ان تقوم علاقة سيئة للغاية بين أم في البيت وبين اطفالها الاربعة، بينما قد تقوم علاقة جيدة بين أم وبين اطفالها الذين لا تهتم بهم الا ساعات قليلة في اليوم . إلامَ يمكن ان ينتهي الحب بين كائنين محكوم عليهما ان يعيشا معا بصورة دائمة ؟ لقد وصف المحللون النفسيون مطولا الكيفية التي يعيش بها الطفل علاقته بأمه المسترَقة والكلية القدرة (حياله) في الوقت نفسه . وقليل من الهيئات ومن الناس وضعوا تلك الاكتشافات موضع التطبيق العملي لينادوا بطرائق تربوية تشجع في آن واحد تطور الطفل ونزع الصفة الاسترقاقية عن الام .

ان للنساء دورا اساسيا يلعبنه في التغيير الثوري لنظام تربية الاطفال . ففي الساعة الراهنة تساوي قيمة عملهن البيتي ما كانت تساويه قيمة عمل القبائل التي تعيش على الصيد والقطاف:

عمل ينجز كل يوم بيومه ، بلا امكانية تخزين احتياطي ، وبلا امكانية مقايضات بواسطة المال . وفي كل طابق من بناية بثلاثين طابقا ، قد توجد أم تعدّ حساء وتغسل أقمطة وترعى طفلا رضيعا . فهل من الممكن ، في عصر التركز الشديد ، ان تتجمع نساء لتحسين مردود عملهن ؟ الحق انه على النساء في كل مكان، في البنايات والاحياء والقرى وأماكن العمل والجماعات الثورية ، أن يجمعن صفوفهن ويناقشن هذه المواضيع . وردا على اولئك الذين يقولون : لننتظر الاشتراكية ، نجيب : هل تنتظر الفيتناميات القضاء على العدو ليهتممن بأطفالهن؟ وردا على اولئك اللواتي يعتقدن ان ذلك صعب للغاية في الوقت الحاضر ، نجيب: أمن الاسهل على الفيتناميات ان يحفرن ملاجىء تحت الارض لمداود اطفالهن ام على الفرنسيات ان يجتمعن ليتدبرن مقرا وينظمن مذودا ؟

في فرنسا ، تنتحر ، كل سنة ، أمهات منهكات مع اطفالهن. في فرنسا أمهات لا يعرفن ، كل شهر ، كيف يتدبرن القوت لاطفالهن . في فرنسا يزداد ، كل سنة ، عدد الاولاد الجانحين ، غير الاسوياء عقليا ، والشاذين . **ونضال النساء** هو الذي يمكن ان يحدث تغييرا في مصيرهن ومصير اطفالهن .

من منظور هذا النضال ، يمكن تصنيف الامهات الى اربع فئات اجتماعية ــ اقتصادية :

● البنات ــ الامهات اللواتي لا تدر عليهن مهنتهن ربحا كثيرا ، والامهات اللواتي يكسب ازواجهن نزرا يسيرا . وفي غالب الاحيان ، لا تتوفر لهن في منازلهن اية وسيلة من وسائل الراحة والرفاه ، مما يزيد من عبء عملهن المنزلي . وكثيرا ما يضطررن الى الالتزام بعمل خارجي شاق وهزيل الاجر .

في هذه الحالة ، قد يجدن احيانا مذودا لحضانة الطفل . وهذه المذاود المطالب بها لتحرير النساء ليست سوى حل بديل قسري يسمح لهن بأن يقايضن ثماني ساعات من يومهن الاسترقاقي بثماني ساعات من عمل آخر . ان هؤلاء النسوة إماء يرزحن تحت نير استغلال مضاعف ، وشرطهن اسوأ بكثير من شرط العمال الرجال الذين يعانون من أسوأ ضروب الاستغلال . وهو كذلك شرط العديد من الفلاحات .

● الامهات اللواتي لا يعملن خارج بيوتهن ، وذوات الدخل العائلي المحدود . فان كان لهن كثرة من الاولاد، سقطن تحت عبء اعمال منزلية منهكة . وهن يقتصدن على حساب كل ما يمكن ان يسهل عليهن عملهن: فالمسكن المريح ، والادوات المنزلية ، والاطباق المطهية ، والملابس الجاهزة لم تخلق لهن .

● الامهات اللواتي لا يعملن خارج بيوتهن ، ولكن ذوات الدخل العائلي المعقول او المرتفع . بعضهن راض بمصيره ، قانع به . وبعضهن الآخر غير راض عنه لانهن منبوذات من حياة اجتماعية ـ مهنية ذات آفاق أرحب من آفاق بيتهن ، او لان النظام يجبرهن على ان يعشن حياة زوجية ، مع ان الحب قد تبخر من اجوائها . انهن المستهلكات اللواتي تصورهن الاعلانات راضيات مفعمات سرورا بمشترياتهن من المنتجات المعلن عنها .

● اخيرا الامهات اللواتي يمارسن مهنة تدر عليهن اجرا مجزيا . دخلهن العائلي المرتفع يسمح لهن بالاستعانة على مهامهن البيتية الاسترقاقية بخادمة ، ومهنتهن توفر لهن استقلالا اقتصاديا فعليا يختصر الشقة بينهن وبين الوضع الاجتماعي للنساء اللائي يعملن ولا اطفال عندهن .

لكل فئة من فئات النساء الاربع هذه طاقات ثورية متباينة :
فالنساء اللائي يعانين من فرط الاستغلال هن اكثرهن رغبة في تغيير الاوضاع القائمة ، أما المثقفات والمتاح لهن قدر اكبر من الحرية ومن وقت الفراغ ففي مستطاعهن ان يكرسن وقتهن وطاقاتهن للصياغة النظرية وللتنظيم العملي للمبادرات الثورية .
ومنذ نحو عشرين سنة ، بدأت النساء الفرنسيات يكتبن عن مواضيع تمس فعلا وحقا مشكلات النساء . وقد انتهت اليوم تلك المرحلة من الكتابات والافعال الفردية ، التي دشنها ظهور كتاب سيمون دي بوفوار **الجنس الثاني** ، لتبدأ مرحلة جديدة ، مرحلة عمل تبادر اليه جمهرة النساء . لكن على النساء ، بادىء ذي بدء ، ان يتحاشين العزلة ، وألا يدعن احدا يؤلب بعضهن على بعضهن الآخر ما دامت معركتهن واحدة . وانما في معرض ممارسة النضال ضد الرق العائلي ومن اجل الامومة الطوعية ستتميز النساء الثوريات عن النساء الرجعيات . كذلك سيتميز الرجال الثوريون عن الذكور الشوفينيين والمتعصبين لجنسهم من خلال التعاطف مع نضال النساء الثوريات ضد الرق العائلي .

الامومة الطوعية

ستستغرق النساء زمنا حتى ينظمن انفسهن من اجل تربية اولادهن ؛ لكن في وسعهن ان يرفضن انجاب الاولاد الذين لا رغبة لهن فيهم . في وسعهن ان يرفضن انجاب وتربية الاطفال الذين تطالبهن بهم الدولة من اجل اهداف لا تمت بصلة الى سعادة جميع مواطني الغد اولئك. وعلى النساء ان يقتصرن على انجاب الاولاد الذين يقدرن انه في مستطاعهن القيام بواجبهم في الشروط الراهنة الصعبة .

عليهن ، توصلا الى ذلك ، ان يعممن ويستخدمن الامكانيات التي تتيحها لهن وسائل منع الحمل . وما دام منع الحمل غير معروف على النحو الواجب وغير ناجع احيانا ، فان على النساء ان يناضلن في سبيل حرية الاجهاض الطبي . عليهن ان يناضلن ضد ممارسات السوق السوداء ، وضد الجراحة البيطرية او الجزارية المتمثلة في الاجهاض السري الذي يشجعه التشريع الحالي بخصوص الموضوع .

منع الحمل

يجب ان تعلّم وسائل منع الحمل بصورة منظمة ومنهجية لجميع النساء ولجميع البنات قبل البلوغ . وتعارض هذا التعليم القوانين والاديان والأعراف والعادات ، وكذلك الافكار المسبقة التصور لدى النساء انفسهن . ان القانون والنساء انفسهن ما يزلن يعتقدن ان الخوف من الحمل هو افضل ضمانة لبكارة بناتهم . وما يزال الحمل في راي الكثيرات القصاص الذي تستأهله اولئك اللواتي يجرؤن على ممارسة فعل الحب . ويبدو ان المشرعين ، والرجال ، والنساء انفسهن ، يتخوفون من ثوران طاقة جنسية لا يروى لها ظمأ اذا لم تعد المرأة تخشى الحمل ــ القصاص . وعبادة مريم العذراء ، أم المسيح ، تظهر للعيان ان المرأة المثلى هي تلك التي يفترض فيها ان تنجب من دون ان تمارس الحب ، بينما يتوجب على المرأة التي تمارس الحب ، المومس ، الا تنجب : فأعظم اهانة يمكن ان تنزل برجل هي ان يقال له : أمك قحبة .

اذا كانت ممارسة الحب فعلا لا يستدرك خطؤه الا بقبول الطفل ، ففي وسعنا الافتراض مع رايش ان النساء الراغبات في

ثلاثة اولاد ينبغي ان يمارسن الحب ثلاث مرات في حياتهن لا غير !!

ثمة دعاية مفرضة تصور للنساء ان «منع الحمل غير طبيعي» ، و«قد يكون خطرا» . فعلى المرأة ، حتى تكون ذات انوثة جذابة ، أن تصبغ شعرها ، وأن تطلي وجهها بمستحضرات التجميل ، وأن تقوّم ثدييها برافعات نهود خداعة ، وأن تشد بطنها بمشدات ، وأن تنتف شعرها الفائض عن الحاجة ، وأن تزيل رائحة ابطيها ، وأن تضع سدادات فرجية ؛ وكل ذلك هو «الانوثة الخالدة» ، لكن منع الحمل بالمقابل غير طبيعي !!

ان الالماع الى ان منع الحمل يمكن ان يكون خطرا ، مع ان العكس هو الذي ثبتت صحته ، يثير قلق العديد من النساء . فقد درجت العادة مثلا على المزاوجة بين لفظة السرطان وأقراص منع الحمل ، مع ان ذلك لا اساس له من الصحة . والخطر الفعلي الذي يتعرض له المدخن على صعيد الاصابة بسرطان الرئة قد جعل عضوا بارزا في الرابطة الدولية للتخطيط العائلي يطلق هذه النكتة : «من منظور الخطر ، احرى بنا ان نبيع اقراص منع الحمل في الاكشاك العامة وألا نبيع السجاير الا في الصيدليات وبناء على وصفة طبية» . وهذا صحيح ...

- ومع ذلك ، فان وسائل منع الحمل لا تُعلَّم للبنات وللنساء .
- ومع ذلك ، فان وسائل منع الحمل مقتَّرة ، بل محظرة على القاصرات .
- ومع ذلك ، كثيرة هي المستشفيات التي فيها جناح للامراض النسائية والتوليد وليس فيها خدمة استشارية بخصوص منع الحمل . وكثيرون هم الاطباء الذين لا دربة لهم ولا دراية في موضوع منع الحمل . والمنتسبون الى التخطيط العائلي هم

وحدهم الذين يحضرون دورات اعادة تأهيل . وكثير من الاطباء لا يعرفون بوجود بعض وسائل منع الحمل الا عن طريق اعلانات الدعاية المماثلة لتلك التي تروج لمساحيق الغسيل المشبعة بالخمائر .

- ومع ذلك ، فان ثمة قانونا غير مطبق يقضي بتسجيل اسم الزبونة على دفتر ذي أرومة مماثل لذاك الذي يستعمل من اجل «المخدر» ويفسح في المجال بالتالي امام رقابة بوليسية حقيقية . وقد بادر الاطباء والجمهور الى اجراء المقاربة : فذلك الدفتر الذي يقتضيه القانون أشبه ما يكون ب «لائحة المشبوهين» للنساء اللواتي يتناولن أقراص منع الحمل !

على النساء ألا ينجبن سوى الاولاد الذين لهن فيهم رغبة ، وعليهن ، توصلا الى ذلك ، ان يعرفن ويستطعن استعمال طرائق منع الحمل بحرية وبلا تحديد للسن وبلا رقابة بوليسية .

الاجهاض

نظرا الى التقصير الحالي في مضمار منع الحمل ، فان أعدادا لا تحصى من النساء يحبلن من دون ان تكون لهن رغبة في انجاب طفل (في فرنسا وحدها ينوف عددهن على مئة الف سنويا) .

ليس ثمة من فارق يذكر ، بالنسبة الى الغالبية العظمى من النساء ، بين ازالة بييضة غير مخصبة في كل دورة شهرية وبين ازالة بييضة مخصبة في بداية الحمل . والاسم الشعبي الرائج اصلا للاجهاض هو الطرح . فالجنين ينتقل من حجم عدسة الى حجم خوخة في اول الحمل . والمبادىء المسيحية التي كانت

سارية المفعول حتى القرن التاسع عشر تبدو بالحدس والبداهة صحيحة وقيّمة للكثيرات من النساء ، اذ يعتقدن انهن يحملن طفلا حيا في بطونهن من اللحظة التي يحسسن فيها بحجمه وحركته ، اي بين الشهرين الرابع والخامس من الحمل .

بيد ان النواب والاطباء والكهنة الكاثوليك لا يرون الامور على هذا النحو . ففي رأيهم ان تلك الكتلة الصغيرة من الخلايا التي بحجم عدسة والتي لا تستطيع حياة خارج الرحم هي حياة انسانية . والرغبة في اخراج هذه الكتلة الصغيرة من الخلايا من الرحم ، تعد ضربا من سبق التصميم على الجريمة . ذلك هو القانون .

حين رغب المشرّعون والاطباء والكهنة الكاثوليك انفسهم في تعديل القانون بحيث يبيح اخذ الكليتين او القلب من انسان في حالة الغيبوبة التي تسبق الموت ولكن ما يزال قلبه يخفق ، فعلوا ذلك . قدّموا حدود الموت . وبالمقابل يصرون على التمسك ، بالنسبة الى النساء ، بقوانين تتنافى وبيان حقوق الانسان : فحماية لحياة الجنين الانسانية المزعومة ، لا يتورعون عن انتهاك السر الطبي وحرمة الحياة الخاصة وحق تصرف الانسان بجسمه ليشوا بامرأة ترغب في الاجهاض .

ان هذا كله لفي منتهى العبث ومنافاة العقل بحيث ان الملايين من النساء يضربن صفحا عنه ويخالفن القانون . وفي محاولة لردعهن عن ذلك ، تفتقت عبقرية المشرعين عن روح جلاد معذب : فالقانون يطال بوجه خاص ويبالغ القسوة الاشخاص الاختصاصيين ، وتحديدا الاطباء (وكذلك من يزاولون مهنة طبية موازية) الذين ينصحون النساء بالاجهاض او يساعدونهن عليه . وحتى اذا كانت المرأة تعرض نفسها لخطر الموت او التشويه بطلبها للاجهاض بالطرق الخطرة ، فان القاعدة التي تنص على ان الشخص الذي لا يسعف شخصا آخر في حالة الخطر يقع تحت طائلة القانون لا تعود سارية المفعول : فعلى المرأة ان تتحمل تبعة

مغامرتها . لقد حدث مرة في قسم النسائيات في مستشفى كبير ان تعرضت امرأة حامل بطريق الخطأ لتصوير شعاعي للرحم (وفي ذلك خطر كبير على الجنين) ؛ لكن الاطباء رفضوا ، رغم الخطر ان يجروا لها عملية اجهاض . وقد قالت المرأة انها ستجهض نفسها بنفسها ، فتركوها تخرج نافضين أيديهم من المسؤولية : فلتكن هي المذنبة الوحيدة !

وبنتيجة ذلك كله ، يتعرض الاطباء المستقيمون لمضايقات شديدة اذا ما ساعدوا او أجهضوا امرأة . والاطباء الجشعون الى المال او الفاسدون هم وحدهم الذين ينظمون انفسهم لمزاولة الاجهاض . ورحم النساء هو منجمهم الذهبي . وبقوة مالهم وبالخدمات التي يؤدونها لزوجات كبار الشخصيات ، يتمكن هؤلاء الاطباء من الحفاظ على عياداتهم وابتناء فاخر البيوت .

ان عددا كبيرا من المجهضين غير الاكفاء والذين لا تتوفر لهم غرف عمليات يحاولون اجهاض النساء بوسائل خطرة بقدر او بآخر ، ولقاء مبالغ كبيرة في غالب الاحيان . وينجم عن ذلك عدد من الحوادث المميتة المعروفة لدى المشرعين والاطباء . وهم يطلقون على ذلك اسم بلية . وفي الواقع ، انها في نظرهم نعمة: فلولا ان الاجهاض يُمارس بتلك الطريقة الخطرة والمكلفة ، أفلا يهدد بأن ينتشر ويعم اكثر فأكثر ؟ كثيرون هم الذين يعلمون في دخيلة انفسهم ان الكثير من الاطفال غير مرغوب فيهم . ولكن ما همّ ؟ فالمطلوب ، كائنا ما كان الثمن ، جنود وعمال يتقاضون الحد الادنى للاجور وأرباب أسر اكثر انشغالا بإطعام اولادهم منهم بالمطالبة .

ان رحم المرأة ليس ملكا للدولة . وايقاف الحمل مسألة تسوّى بين المرأة والطبيب على انفراد . وما لم يغير المشرعون موقفهم ، فلا مناص من ان

– تستمر النساء في الاحتيال على القانون .

- لكن عليهن ان يتجنبن اللجوء الى خدمات المجهضين المتاجرين والجزارين .
- عليهن ان يحاولن ، ما أمكنهن ، الحؤول دون ابتزاز أموالهن من قبل الاطباء المتاجرين .
- وعليهن ان يساندن الاطباء الذين يقبلون بمد يد العون لهن بأسعار معقولة .
- وعليهن الامتناع عن أداء أجر لاستشارات الاطباء الذين يلقون عليهن درسا في الاخلاق بدلا من الاهتمام بمشكلتهن .
- وعليهن ان يمتنعن عن التصويت لنواب يسنون مثل تلك القوانين المجحفة بالنساء والمؤذية لهن .

مجلة «بارتيزان»
تحرر النساء ـ العام الصفر

المرأة بين التمرد والثورة

جرمين غرير

وجدت على مر الازمان نساء لديهن الاستعداد للتمرد على الدور الذي يفرضه عليهن المجتمع . وكان من أشهرهن الساحرات ، اي النساء اللائي يعزفن عن العلاقات الانسانية «السوية» ليعشن بصحبةحيوانات او اشخاص مقربين، مستغلات معرفتهن بالنباتات الطبية وسذاجة الفلاحين . وكان ذلك يقترن احيانا بالسحر الاسود او الابيض او عبادة الشيطان. واذا ما قرأنا بانتباه وترو محاضر محاكمات الساحرات ، تبين لنا ان بعض النساء قد لوحقن وقوضين لاسباب تتعلق فقط بنشاطات هدامة، لانهن كن يحرضن القرويين على شهر راية العصيان . وكان من ضمن العقوبات «كرسي الاتهام» ، اي ارهاق المتهمة بالاستجواب، وكان ذلك شكلا بدائيا من المعالجة النفسية القمعية وتقابله اليوم تقنية الصدمة الكهربائية .

ان «كرسي الاتهام» ذاك مثال نموذجي على الصلف المذكر .
ويتجلى رفض اخذ مآخذ النساء بعين الاعتبار في الكيفية التي يؤوّل بها المحافظون مبادراتهن الرامية الى تغيير أوضاعهن . فهم لا يجدون لهذه المبادرات من تفسير سوى اتهامهن بشهوة القضيب والكبت والشذوذ . وكم ستغتني معرفتنا بتاريخ الحركة النسوية عندما نتعلم ان نقرأ بين سطور محاكمات الساحرات والاشكال الاخرى لاضطهاد المرأة . لقد انتسبت الكثيرات من النساء الهرطوقيات ، وعلى سبيل المثال عضوات «أسرة الحب» (١) ، الى شيع دينية لما كانت تقدمه لهن من هامش حرية أوسع . ولقد كان هناك بالتأكيد قسط من النزعة النسوية في تواطؤ العرّابات بغية خداع الازواج الاثرياء لصالح زوجاتهم او بهدف تسهيل الزنى والاجهاض . ولم تخضع النساء المثقفات على مر العصور للسيادة المذكرة الا على مضض . وفي سالف الازمان كما في ايامنا هذه ، كانت تربيتهن ، لا سيادة الذكور ، هي التي توضع بوجه عام في قفص الاتهام .

ان شطرا لا يستهان به من الجنسية المثلية النسائية ، وعلى الاخص اذا ما اقترنت بميول الى الاسترجال ، يمكن ان يعتبر تمردا على الدور المفروض على المرأة والذي لا يترك لها من خيار سوى السلبية والرياء والدسيسة ، كما يمكن ان يفسر على انه تعبير عن رفض الطابع الفظ والميكانيكي للشهوة الجنسية المذكرة.
وتنم جميع أشكال الجنسية المثلية النسائية عن محاولة ايجاد حل بديل للعلاقات التقليدية بين الرجل والمرأة ، حتى وان انطوت تلك

---

١ ــ «أسرة الحب» شيعة دينية انكليزية ، كانت بدايتها الاولى في هولندا بزعامة هندريك نيكلاز . وكانت ترمي الى لمّ شعث الكائنات البشرية والتوحيد بينها على اساس تصوفي .

الاشكال على بنية هيمنة وسيطرة ، وأن يكون السحاق الشكل الاكثر تواترا لتلك العلاقة البديلة ، ففي ذلك دليل او شبه دليل على ان شبح الذكر لا يتسلط على تلك العلاقة . بيد ان فضول الجمهور البذيء وتعليقاته المهيمنة على ذلك الشكل من العلاقة لا تسمح للجنسيات المثليات بأن يجعلن منه فعلا سياسيا . وما ينجم عنه من تأثم واحساس بالذنب وعار يحض السحاقيات على اخفاء أفضلياتهن ، او حتى على التماس الاعذار والمبررات لها بنسبها الى نزوع فطري او الى خطأ في التربية . وليس من المستبعد ، بالفعل ، ان يكون عجز المرأة عن اداء الدور المفروض عليها تقليديا راجعا الى فشل عملية تكييفها وأقلمتها . بيد ان ذلك لا يحول بينها وبين ان تختار بصحو فكر الجنسية المثلية اختيارا عزيزا كريما ، رافضة من ناحية المبدأ كل احساس بالعار او الدونية . فالمرأة التي تمارس الجنسية المثلية تستطيع ان تجاهر بأنه ما من حل آخر مقبول ، وأن تفاخر بنمط حياتها . لكنها ، لسوء الحظ ، كثيرا ما يضلّها ويعشي على بصيرتها نفس التصور الخادع عن «الحالة السوية» الذي يضرب غشاوة على ابصار اولئك الذين ينتقدونها .

ان النساء اللائي أتيحت لهن الفرص لتحصيل تعليم عالٍ واللائي بحوزتهن ما بحوزة الرجال من شهادات هن اللائي يعين أحدّ الوعي القيود المضروبة على جنسهن . ففي مؤسسات التعليم العالي التي تنتهج سياسة الفصل وعدم الاختلاط الجنسي يسود جو غريب لتمرد اخرس . فأغلب النساء المدرّسات عزباوات وصلاتهن واهية بالجنس الآخر . وتشتبه الطالبات في غالب من الاحيان بنزوعهن الى الجنسية المثلية ، ومن المؤكد ان قوة العلاقات التي تربط بينهن تحمل على الافتراض بوجود تجاذب وتعاطف . لكنني أعتقد ان الاكراهات التي تفرضها أولئك النسوة على انفسهن في ميادين اخرى تستتبع ، في ما تستتبع ، الكف الجنسي . فلقد رفعت ذات يوم الطالبات في معهد جامعي ،

حُبستُ فيه لعام كامل من الزمن قبل ان أتمكن من الهرب منه ، الى المديرة قائمة بشكاويهن وتظلماتهن بلغة لا تخلو من فظاظة في التعبير . وقد رفضت المديرة والاستاذات اخذ العريضة في اعتبارهن ، واشتكين فضلا عن ذلك بأنهن يفعلن كل ما بوسعهن لاسعادنا وبأننا بالتالي قد جرحنا مشاعرهن . وقد يذهب الفكر بالمرء الى ان رفض استعمال منتجات التجميل والاغراء هو شكل من التمرد النسوي . وقد كانت بعض اولئك الاستاذات الموقرات يغالين في لامبالاتهن بمظهرهن الخارجي الى درجة غير مألوفة . كذلك كن يضربن عرض الحائط بآداب اللياقة . ولست انسى واحدة منهن كانت في منتهى السمنة ، وما كانت تحجم مع ذلك عن التبختر في ثوب استحمام احمر فاقع ، وعن اطلاق الغازات والتجشؤ على مائدة الطعام بحضور زميل لهن مذكر أصابه ذهول وشحوب ازاء ما رأى . وقد شاهدتها بنفسي تسقط ارضا قطعة من الحلوى ثم تلتقطها وتعيدها الى صحنها وتتابع ازدراءها بكل طمأنينة . وبدلا من ان أفترض ان اولئك المخلوقات البطوليات يشكين من اختلال توازن وراثي ، أعتقد ان صوتهن الجهير وثقل مشيتهن هما رد فعل متعمد ومقصود ضد النعومة الانثوية . ومما كان يسهّل لامتثاليتهن وجود نموذج مقولب في انكلترا للمرأة الارستقراطية الريفية التي تمتطي صهوة الخيل وتمارس رياضة الصيد والطرد وتستعمل الادوات الزراعية مثلها مثل اي رجل . لكن القليلات من تلميذاتهن كنّ يقتدين بمثالهن ، اذ كنّ في اكثريتهن ما يزلن يغالبن نتائج البلوغ والمراهقة ويتطورن وفق المعايير التقليدية للانوثة ، على الرغم من جهود أستاذاتهن لحثهن على لعب الهوكي وعلى نيل علامات افضل من علامات الصبيان في نهاية السنة .

ان هذا الشكل الضمني واللاشعوري من التمرد النسائي قد فات أوانه وبات غير مجد . ولو قارنا بينه وبين تواتر الجنسية

المثلية وتخنث الرجال في المؤسسات الجامعية المذكرة ، لامكننا تأويل هذا التواتر على انه رد فعل ضد النموذج المقولب للرجل الصلب والقوي العضلات . لكن ما دامت هذه المسالك غير معقلنة وغير منهجة ، فستبقى محض ظاهرات فردية ، بل ربما عوامل عصابية وغير ذات تأثير اجتماعي . على اننا نشهد لدى المثقفات ، وهن الاوفر حظا وامتيازا من غيرهن ، بداية تعقيل وتنهيج . ولا يسعني هنا ان اعيد رسم تاريخ المستنخبات . بيد ان اكثر من مناضلة معاصرة واحدة تتذكر ولا بد سيدة عجوزا فذة جاهدت عبثا لتزرع جرثومة التمرد في نفسها . وانا لنشاهد بين الحين والآخر على شاشة التلفزيون واحدة من اولئك السيدات المسنات وهي تتحدث عن ذكرياتها ، او نقرأ نعيها في «التايمز» وهن لا يذكرننا باستمرارية الحركة فحسب، بل كذلك بالبراعة التكتيكية وبالدينامية المرحة لأولئك النسوة اللائي كن يرتدين تنورات داخلية ومشدات خصور وقبعات . والحق ان التقدم منذ ذلك الزمن لم يكن أحادي الشكل . فالموضة قد تنوعت تنوعا شديدا ، بدءاً من الزي الفلامي الى الانوثة المفرطة ؛ وعادت بطلات الروايات يتشحن بإهاب الاثارة الجنسية والانوثة المتيمة بعد ان مر زمن كان نموذجهن فيه المرأة المرحة الجريئة الصلبة العزيمة . وقد بدأت الموجة الثانية من الحركة النسوية ـ التي اليها ينتمي هذا الكتاب ـ مع ابحاث بتي فريدان حول الردة الجنسية في فترة ما بعد الحرب ، تلك الردة التي طردت النساء الاميركيات من المصانع لتعيدهن الى البيوت . ان السيدة فريدان مجازة بامتياز من «سميث كولدج» ، وقد نالت منحة دراسية لاجراء أبحاث في قسم علم النفس بجامعة بركلي . وهي امرأة مشهورة بكفاءتها وبمزاياها الثقافية . وما اكتشفته اثناء السنوات الخمس التي استغرقها تأليف كتابها حفزها على تأسيس واحدة من اعظم المنظمات النسوية نفوذا في الولايات المتحدة الاميركية ، أعني **المنظمة القومية للنساء** التي تنتسب اليها اكثر من ثلاثة ملايين عضوة

والتي لها مكاتب في العديد من المدن . وقد انفصلت في ابان ذلك عن زوجها الذي كانت قد اهدته كتابها . وحركتها هي الوحيدة التي تعترف بها السلطات السياسية ، وهي التي تقدم البرنامج وعضوات المجموعات واللجان النسائية التي تشارك في شتى اعمال الكونغرس . وغني عن البيان ان ما تقترحه بتي فريدان لا يمت الى الثورة بصلة . وتقوم نظريتها على الاحباط الذي تعاني منه المرأة المثقفة التي تقع في فخ النظريات الفرويدية التي تزعم ان الفيزيولوجيا تعين مصير الانسان . الجنسية في نظَر بتي فريدان تعني الامومة ، وهذا خلط يترك أثره على ما يبدو في سائر الحركات النسوية التي ، اذ ترفض دور المراة الجنسي التقليدي ، تجد نفسها منقادة الى ان تعلي من شأن النشاطات غير الجنسية للمرأة على حساب طاقتها الليبيدية — وهذا خطأ ستترتب عليه عواقب وخيمة . ان بتي فريدان تمثل نخبة النساء الاميركيات من الطبقة الوسطى ، وتريد الحصول على تكافؤ الفرص في ظل النظام القائم ، اي حرية النساء في أن تصيبهن قروح وأمراض في شرايين القلب . وقد استأنفت الحملة في سبيل اقرار «قانون الحقوق المتساوية» — وكانت تلك الحملة قد بدأت عام ١٩٢٣ — وفي سبيل الغاء القوانين التي تحظر الاجهاض . ومحاجّتها لا تخلو من براعة وثقب نظر . فهي تؤكد ان تحظير الاجهاض اعتداء مخالف للدستور على الحياة الخاصة ، ومساس بحرية التعبير ، الخ . واقتناعها راسخ بأن امراض ربات البيوت العصبية ستزول يوم تندمج النساء بالمجتمع ، ويغدو أفقهن هو أفق الامة بالذات لا أفق بيتهن (٢) . وقد افلحت في حمل صحيفة **نيويورك تايمز** على الالتزام بما عرف عنها من موضوعية

---

٢ — بتي فريدان : «صوفية النساء» ، نيويورك ١٩٦٣ .

وعدل وعلى الغاء التمييز بين الجنسين في اعلانـــات عروض الاستخدام . بيد ان ذلك لم يلغ التمييز بين الجنسين على صعيد الوقائع ، بل كانت النتيجة الوحيدة ان عدداً اكبر من النساء قد أضعن وقتهن هباء في ترشيح انفسهن لوظائف ما كان لهن من أمل البتة في شغلها . والحق ان تدابير من هذا النوع ستبقـــى محض تدابير شكلية ما دام المستخدِمون الذكور يفضّلون علـــى المستخدمات حتى من قبل «ربات» العمل . وقد قاطعت «المنظمة القومية للنساء» كذلك منتجات شركة كولغيت ــ بالموليف احتجاجا على سياستها التمييزية في الاستخدام ، لكن من دون ان تشن هجوما عاما على صناعة منتجات التجميل التي تلقى رواجا منقطع النظير ، اليوم اكثر من اي وقت سبق ، بفضل سياسة اعلانية مذلّة للمرأة ــ علما بأن تلك المواد التجميلية عديمة الجدوى بالمرة سواء أغلا ثمنها ام رخص . كما اقتحمت «المنظمة القومية للنساء» بارا في فندق بلازا كان لا يقبل النساء الا في ساعات محـــددة وبصحبة رجل فحسب .

لم تتأخر العضوات الذكيات في «المنظمة القومية للنساء» عن ادراك محدودية اهدافهن وتكتيكهن . وقـــد كانت تي ــ غريس اتكنسون من أبرز الشخصيات التي تخرجت من صفوف تلـــك الحركة . وهي تقود اليوم الفئة الاكثر جذرية من النخبة النسوية، وتتزعم منظمة تدعو الى الغاء الادوار الجنسية، وهي منظمة مغلقة من داعيات يبذلن ما بوسعهن للترويج لفكرة مجتمع بلا زعيم ، متحرر من مواضعات الحب (رد فعل الضحية على الاغتصاب) ومن الحيازة الزوجية ، وحتى من الحمل الرحمي . ولغة اولئـــك الداعيات لا تخلو من تحجر دوغمائي ، ولا بد ان تبدو مخيفة للمرأة العادية . ان الرجل في أنظارهن هو العدو ، وما دام الرجـــال متشبثين بتصورهم عن دورهم بلا تعديل ، فان الحق حليفهن . ولكن ليس صحيحا مع ذلك انه لا بد ، للقيام بثورة ، من نظريـــة ثورية . فالنظرية التي تنصمم بدالة النظام الاجتماعي القائـــم

مهددة بعدم التلاؤم مع واقع وضع قيد التطور . ومن الخطر ادانة الجنسية بداعي التكتيك الثوري بحجة انها مزيفة وانها تفضي في الوقت الراهن الى العبودية . ان الجنسية هي مواجهة يمكن ان تتولد عنها قيم جديدة . والرجل عدو مثلما ان الفتى المحشـــو الدماغ بعقيدة معينة لانه يرتدي بزة عسكرية معينة عدو لفتى آخر يشابهه في جميع النواحي ، الا في البزة . أفلا يمكن ان نحاول التوفيق بينهما بتجريدهما من بزتهما ؟

لقد رأت معظم المجموعات الفتية من حركة التحرر النسائي النور في قلب اليسار الجامعي . ففي **نيو ليفت ريفيو** (٣) نشرت جولييت متشيل في عدد تشرين الثاني ـ كانون الاول ١٩٦٦ بيانا هو ، بلا مراء ، اكثر بيانات الاشتراكية النسائية تلاحما وتماسك منطق . وقد امسى هذا البيان ، منذ ذلك الحين ، وفي أشكال شتى ، اساسا للنظريات الاشتراكية في الموضوع ، وان كان يفتقر الى الفعالية التكتيكية . يرتكز بيان «النساء ـ الثورة الاطـــول امدا» الى مبادىء ماركس وبيبل وانجلـز . وبخلاف سائـــــر المنظّرات ، لا تتبنى المؤلفة انتروبولوجيا انجلز المشكوك فيها ، بل تصر على تمحيص دقيق للوقائع القابلة لان يقام عليها البرهان . «ان ضعف النساء الجسماني لم يبعدهن عن العمل الانتاجي ، بل على العكس ، فضعفهن الاجتماعي هو الذي قضى عليهن ، فـــي الحالات موضوع الدرس ، بأن يكنّ أولى ضحايا العبودية» .

ينجم عن ذلك ان التصنيع المتعاظم لا يضمن للمرأة استخداما انتاجيا ، اذ لم يكن ضعفها الجسماني هو الحائل بينها وبينه ، وانما تطور الملكية الخاصة ، وعلى الاخص ملكية وسائل الانتاج ، هو الذي قضى على النساء بوضعية استرقاقية يمثلن فيها وقت

---

٣ ـ مجلة «اليسار الجديد» . «م»

الفراغ بالوكالة . ويتحدد هذا الدور بالافتراض بأن الاسرة أبوية بالضرورة، وبتشويه الانجاب ومسخه الى محاكاة ساخرة للانتاج، وبتحريف الجنسية الى استغلال سادي. ان وظيفة المرأة الوحيدة هي مجمَعة الطفل (٤) . واذا كان يراد لوضع المرأة ان يتغير ، فلا بد من اعادة النظر في هذه البنى الاربع : الانتـــاج ، التناسل ، الجنسية ، المجمعة . ولعل واضعة البيان تحدس بنتائج نشاط النساء في الحركات الاشتراكية ، فتسعى الى دمج النسويـــة بالثورة البروليتارية ، مع علمها بأن ما من شيء ، في الجماعات السياسية او الانظمة الاشتراكية القائمة ، يشير الى ان مثل ذلك العقد سيُحترم : «ليس المفروض بالاشتراكية ان تلغي الاسرة ، بل ان تنوّع العلاقات المعترف بها اجتماعيا والمضغوطة اليوم بالقوة في ذلك الاطار المتصلب . ان ثمة حاجة الى كثرة من المؤسسات بحيث لا تكون الاسرة الا واحدا من مظاهرها الممكنة . ولا سبيل الى الغاء الاسرة بدون حل بديل . فمن الممكن ان يوجد أزواج بلا تساكن ، ومعاشرة دائمة مع اولاد ، وعزاب يربون اطفالا ، وأطفال يدربهم على حياة الجماعة والدان بالتبني بدلا من الوالديـــن الطبيعيين ، ومتحدات قائمة على اساس أواصر قرابة موسعة ، الخ . ان جميع أنماط الحياة هذه قابلة لان تأخذ صفة رسمية ومشروعة ، وينبغي ان يُترك اختيارها لحرية الافراد . ولن نكون الا واهمين لو حاولنا ان نحدد مسبقا كنه تلـــك المؤسسات ، فتعييننا لما ينبغي ان يكون عليه المستقبل تفصيليا هو ضرب من المثالية ، بل ــ وهذا ادهى ــ ضرب من المثالية السكونية . بينما الاشتراكية صيرورة ، تطور . وكل تحديد للمستقبل هو تحديد تاريخي بأسوأ معاني الكلمة . والشكل الذي ستتلبسه الاشتراكية منوط بالشكل الذي ستكون عليه الرأسمالية لحظة انهيارها ...

---

٤ ــ مجمعة الطفل Socialisation : تكييفه مع حياة الجماعة . «م»

ولن يكون انعتاق النساء في ظل الاشتراكية نتيجة للعقلانية ، بل فتحا انسانيا عبر المسيرة الطويلة من الطبيعة الى الثقافة التي هي تعريف التاريخ والمجتمع» (٥) .

كانت ايفلين ريد قد حاولت في عام ١٩٥٤ ، بقدر اكبر بكثير من السذاجة ، ان تثبت في **نشرة حزب العمال الاشتراكي** ان نضال النساء ضد الاضطهاد هو مظهر من صراع الطبقات . وقد سعت الى ان تبرهن على ان التنافس الجنسي وتحول النساء الى موضوع هما محض نتيجة للرأسمالية البورجوازية . وقد استحضرت صورة مجتمع بدائي ما كان فيه وجود لا للاستغلال الجنسي ، ولا للملكية ، ولا للتنافس ، وما كانت فيه مواد التجميل سوى وسائل تثبث من الهوية . وقد رأت في ميتولوجيا الانوثة الازلية دعاية متعمدة نظمها رأسماليون عطاش الى المال في القرن التاسع عشر ، ورفعت الى الاوج في القرن العشرين . وارجح الظن ان الفكرة صحيحة ، لكن نقطة ارتكازها الوحيدة هي قناعات المؤلفة ، دونما دليل اثباتي ، مما يخيب أمل كل قارىء مهما حسن ظنه ، اللهم الا اذا كان خلوا من اي روح نقدية . وقد جمعت مقالاتها عام ١٩٦٩ في كتاب بعنوان **مشكلات تحرر النساء: مقاربة ماركسية** . وقد جاء عرض الافكار فيه متمذهبا الى حد التزمت ، ومرفوقا بانتروبولوجيا عسفية ، وشاهدا على فاقة ثقافية تدعو للاسف ، بينما يتميز مقال جولييت متشيل بالمقابل بتماسك مرموق في العرض .

لم تكن النساء اللائي ناضلن في المجموعات الاشتراكية واثقات من ان تحرر الطبقة العاملة سيستتبع تحرر طبقتهن .

---

٥ ـ جولييت متشيل «النساء ـ الثورة الاطول أمدا» ، في «نيو ليفت ريفيو» ، تشرين الثاني ـ كانون الاول ١٩٦٦ ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

فقد أبطل ستالين مفعول القوانين السوفياتية الاولى التي كانت تبيح الاجهاض والطلاق الفوري . وكانت مكافآت الامومة خيانة سافرة (٦) . وليست زيادة عدد النساء الطبيبات في الاتحاد السوفياتي سوى امتداد لاستخدام النساء في قطاع الخدمات(٧). وبالمقابل ، لا تتمتع النساء اللائي يستخدمن في البناء بأي تأهيل مهني ولا توضع تحت تصرفهن معدات آلية (٨) . اما في الصين فان تجنيد النساء في الجيش وحظر استخدام مواد التجميل وترهات الزينة والتأنق لم يحسّنا بصورة من الصور وضعهن كخادمات للاسرة، على الرغم من الغاء أسوأ مظاهر نظام المحظيات. وفي صيف ١٩٦٧ ، اثناء المؤتمر القومي لـ «طلاب مجتمع ديموقراطي» ، حررت النساء بيانا يعبر عن مشاعرهن . وقد دعت سوزان سورثهايم ، التي وصفت الاجتماع في **الناشيونال غارديان** ، الى فكرة تعاون بين المجموعات المذكرة والمؤنثة ، وارتأت انه من الواجب ان يدعى الرجال الى حضور اجتماعات النساء ، على اساس الافتراض بأن المشكلة محصورة بتصور سيء للادوار الجنسية . وقد عكس البيان آراء النساء من أترابها . وكانت النتيجة التي خلص اليها :

«١ – ... يجب ان يعترف اخوتنا في **«طلاب مجتمع ديموقراطي»** بأنه من واجبهم ان يجدوا حلا لمشكلات شوفينيتهم المذكرة في علاقاتهم الخاصة والاجتماعية والسياسية .

«٢ – يتضح من اجتماع **«طلاب مجتمع ديموقراطي»** ذاك ان

---

٦ – وليم رايش : «الثورة الجنسية» ، نيويورك ١٩٦٩ ، ص ١٥٣ – ٢٦٩ .

٧ – ليونيل تايغر : «بين رجال» ، منشورات روبير لافون ، ص ١١٠–١١١ .

٨ – كيريل تدمارش : «الحق في العمل الشاق» ، في «التايمز» ١٦ ، ٢ ، ١٩٦٧ . انظر ايضا «النساء في الاقتصاد السوفياتي» ، ت. دودج ، بلتيمور ١٩٦٦ .

كفاءات النساء وامكانيات مشاركتهن لا تستثمر بما فيه الكفاية .
اننا ندعو النساء الى المطالبة بمساهمة كاملة في جميع نواحي الحركة ، بدءاً من لصق الطوابع الى شغل المناصب القيادية .

«٣ ـ ينبغي ان يأخذ المسؤولون في اعتبارهم الدينامية التي تخلق **الزعامة** وأن ينموا ويرعوا جميع الطاقات التي تقدمها النساء للحركة .

«٤ ـ ينبغي على جميع الادارات الجامعية ان تعي ان قوانين الحرم الجامعي هي قوانين تمييزية ضد النساء وان تتخذ الاجراءات لحماية حقوقهن ...

«اننا ننشد تحرر الكائنات الانسانية قاطبة . والنضال في سبيل انعتاق النساء يجب ان يشكل جزءا من النضال العام في سبيل الحرية . اننا نعترف بما سيواجهه اخوتنا من صعوبة في التغلب على ردود أفعالهم اللاارادية ذات الطابع الشوفيني ، واننا لعلى استعداد كنساء لان نتحمل مسؤولياتنا كاملة ولأن نساعدهم على حل ذلك التناقض .

«الحرية الان ! اننا نحبكم» (٩) .

وتشاء سخرية المصادفة ان تنشر **نيو لفت نوتس** في عددها التالي خطابا لفيدل كاسترو في اتحادية نساء كوبا برزت فيه بمنتهى الوضوح نقاط الضعف في تلك السياسة . فبعد ان أقر بمساهمة النساء في النضال الثوري وشكرهن على حمل السلاح الى جانب الرجال ، راح يحثهن على الرجوع الى مهامهن البيتية . «من سيطبخ للولد العائد من المدرسة للغداء ؟ من سيعتني بالرضيع وبالطفل الذي لم يبلغ السن المدرسية ؟ من

---

٩ ـ نقلا عن «نحو حركة تحرر انثوية» بقلم بيفرلي جونز وجوديث براون، نيو انفلند فري برس ، ص ٢ .

سيحضّر طعام الرجل لدى اوبته من عمله ؟ من سيقوم بالغسيل وبالعناية بالبيت ؟» (١٠) .

في خريف ١٩٦٧ ، بات واضحا ان النساء يعدن النظر في وضعهن . فقد حررت اربع فتيات من «الاتحاد الطالبي للعمل السلمي» ، المنظمة الرئيسية لليسار الكندي الجديد ، تقريرا جعلن عنوانه : **اخواتنا ، اخوتنا ، أحباءنا ... اسمعوا** ، وكان منطلقهن فيه فكرة ماركس القائلة ان التقدم الاجتماعي قابل للقياس بوضع النساء الاجتماعي . وينم التقرير عن حيرة ازاء الاختلاف الفعلي بين الجنسين ؛ فواضعات التقرير يجهلن ما اذا كان الاجحاف يلحق بالنساء منذ الولادة وبحكم تكوينهن بالذات ، لكنهن عقدن الرجاء على تذليل هذه العقبة انطلاقا من الايمان بصحة الفكرة الماركسية القائلة ان التقدم يكون بتخطي تلك التمييزات التي لا صلة لها بالوظيفة الاجتماعية . وقد أعدن توكيد النقاط الاربع في محاجّة جولييت متشيل ونظريتها عن الاصل الحضاري لوضع المرأة. ومن جديد نجد انفسنا امام تعريف يطفح مرارة لدور النساء في حركات اليسار المتطرف ، ذلك الدور الذي حدده ستوكلي كارميكايل : «ان موقف النساء الوحيد في التنظيم هو الخضوع التام» . وبالفعل ، جاء في التقرير :

«ان بعض النساء في الحركة على استعداد للقيام بالثورة . نحن نفكر بأنفسنا . نقرأ ، نكتب ، نناقش كيما ننتج التحليل والنظرية اللازمين لتلك المهمة . وسندنا في ذلك التجربة . وأكثر ما يحفزنا احساسنا الاحباطي بأننا مستبعدات ، وهذا ما

---

١٠ ـ نيو لفت نوتس ، آب ١٩٦٧

يقسرنا على اخذ زمام المبادرة ...» (١١) .

ان المرء لا يزداد الا اقتناعا بأن هذه النزعة الجذرية لا تعدو ان تكون في أذهانهن سيرورة ثقافية عندما يجد البيان متضمنا قائمة بالكتب التي تتوجب قراءتها ، وهي قائمة اولى من سلسلة ستكون لامتناهية الطول . وما دام الامر يتعلق بحركة جامعيين وجامعيات ، فلا عجب ان يكون مثل هذا النهج عديم الجدوى بالنسبة الى العدد الكبير من النساء اللائي لم يتعلمن قط كيف يتمثلن الافكار المجردة واللائي لا قيمة في نظرهن للمحاجّة المنطقية لانهن لا يفهمنها ولا يملكن المقدرة على ممارستها . واكثر الجوانب قابلية للنقد في هذه الحركة التحررية الجامعية ادعاؤها بأنها تتولى قيادة بروليتاريا نسائية كثيرة العدد ، وتبنيها لبنى تنظيمية مستعارة من منظمات الرجال وغير موائمة للنساء . ناهيك عن ان المناضلات فيها لم يستوعبن كافي الاستيعاب ، على ما تشير الدلائل ، المدى الحقيقي لاستقطاب الرجل ــ المرأة ، ولم يقرأن في **سوفييت ويكلي** ان اعضاء معهد الدولة للتربية افصحوا عن قلقهم من ان يؤدي نقص الثقافة التربوية لدى النساء الى نشوء جيل من الصبيان يفتقر الى الحس اللازم بالسلطة المذكرة (١٢) .

ان هذه النزعة الاكاديمية تكاد ان تكون صفة مميزة لمعظم مجموعات التحرر النسوي في الجامعات . فتي ــ غريس اتكنسون ، التي اسست مجموعة نخبوية باسم **نصيرات المرأة** ، تنشط ايضا مع منظمة **الحقوق الانسانية للمرأة** ، وهي جمعية ترعى الابحاث التاريخية بصدد شرط المرأة . ومن المفيد ان

---

١١ ــ جودي برنشتاين ، بيغي مورتون ، لينا سينر ، ميرنا وود : «اخواتنا، اخوتنا ، أحباءنا ... اسمعوا» ، نيو انفلند فري برس ، ص ٧ .

١٢ ــ سوفييت ويكلي (الاسبوعية السوفياتية) ، ١٧ـ٥ـ١٩٦٩ ، ص ٥ .

نتذكر ان بعض المستنخبات اللائي فارقن الحياة منذ زمن بعيد كن يمولن هن ايضا مشاريع من هذا النوع ، ويوزعن منحا دراسية على النساء اللائي يرغبن في ان يصبحن مهندسات . ولمعظم المعاهد الجامعية النسائية مؤسسات مساندة من ذلك النوع ، وقد كانت مساهمتها في تحرر المرأة شبه لاغية بوجه الاجمال .

اول هجوم على بيان ١٩٦٧ جاء بقلم رجل ونشر في **نيو لفت نوتس** في عدد كانون الاول . وقد اشار الى خطورة اسناد منصب قيادي الى امراة لا يتوفر لها الاعداد الكافي ، لانها ستكون والفشل في سباق ، ولن تزداد بنتيجة ذلك الا شعورا بالنقص والدونية (١٣) . ناهيك عن ان النساء لا يملكن ، في رأيه ، ان ينفصلن عن الرجال لانهن بحاجة اليهم . ودورهن ان يكن اكثر تواضعا وتسامحا ومحبة . وأعرب عن اعتقاده بأنه من الضروري اولا ان تحوز النساء تأهيلا كافيا قبل ان يتطلعن الى تحمل مسؤوليات قيادية في الحركة ، وبأنه في مستطاعهن ان يحتفظن بأسمائهن الاصلية بعد زواجهن . وبدأت حملة احتجاج تتوالى من قبل النساء الوديعات في منظمة **طلاب مجتمع ديموقراطي**، وانقلب الاحتجاج الى تهديد في المؤتمر القومي التالي . وفي عدد ١٠ حزيران ١٩٦٨ من **نيو لفت نوتس** نشرت مارلين ويب وصفا لاذعا لوضع النساء من اعضاء **طلاب مجتمع ديموقراطي** ، وقد أجج صدق هذا الوصف من جذوة الاستياء والسخط . ولم تدع كاتبة المقال الى انفصال وقطيعة ، وانما الى مجهود من العمل الاضافي اثناء الوقت غير المحتكر في الضرب على الآلة الكاتبة وتوزيع النشرات والمصادمات مع رجال الشرطة والرعاية البيتية

---

١٣ ــ رسالة بلا توقيع ، في «نيو لفت نوتس» ، كانون الاول ١٩٦٧ .

للرجل الثوري(١٤) . وقد أثار الهيجان النسوي في اجتماع ١٩٦٨ غضب الرجال . وأخذت النساء يدركن انهن لن يفزن بالحرية بقتالهن في سبيل الآخرين . ورد عليهن الرجال بالحجج التقليدية ضد النساء المسيطرات، وأدركت النساء الطابع الماكر للاستقطاب، فقر عزمهن على رسم استراتيجية جديدة .

اعدت عضوتان قديمتان في الحركات الجامعية تقريرا عن مثل تلك الاستراتيجية . وكانت صحيفتهن ، **صوت حركة تحرر النساء** ، قد بدأت بالصدور ، كما كان بيانهن ، **نحو حركة تحرر نسوية** ، قد أذيع . وجاء اعتقال كارول توماس ، للمرة الثانية ، والحكم عليها بالحبس لفترة طويلة ، ليحيطا شخصها بطابع درامي .

لقد بدأت واضعة البيان بمهاجمة البيان السابق . فقد نددت بما انطوى عليه من روح امتثالية غثة ، وقارنت بينه وبين مواقف المجالس البلدية من معاملة السود . وقياسا على **القوة السوداء** التي كانت اول رد فعل ناجع ضد تشريع ابوي النزعة ، دعت الى **سلطة للنساء** تكون رسالتها الاولى تنمية ثقة النساء بأنفسهن وتطوير استراتيجية نسائية أصيلة . وقد لفتت بركلي جونز الانظار الى ان الطالبات العضوات في **طلاب مجتمع ديموقراطي** كن من صاحبات الامتيازات اللائي يجهلن ما القيود التي تضرب على النساء طردا مع تقدمهن على الطريق الذي يقودهن الى «الطفل والمطبخ» . ونوهت بحاجة النساء الى خوض معاركهن الخاصة لتسليط الضوء على المشكلات الحقيقية طبقا لمبدأ **طلاب مجتمع ديموقراطي** القائل: «المواجهة هي مصدر صحو الذهن السياسي» . اما النساء اللائي حالفهن النجاح في فرض انفسهن على حركات

---

١٤ ـ مارلين ويب : «لنا عدو مشترك» ، في «نيو لفت نوتس» ، ١٠ حزيران ١٩٦٨ .

يهيمن عليها الرجال فما توصلن الى ذلك الا باستخدامهن مركزهن المتميز وبتضحيتهن بأنفسهن على مذبح القيم المذكرة . ولم يعد لهن من حق في الكلام باسم اخواتهن اكثر مما لرجل المال الاسود الحق في الكلام باسم اخوته في هارلم . ولكن حتى هـؤلاء العزباوات ، اللائي ما زلن يحتفظن بدينامية نسبية ، مرتهنات المصير بالرجال ، مصدر الحظوة الاجتماعية ، الى حد اضحت معه حياتهن كابوسا لا يملكن لا صحو الفكر ولا عزة النفس لنبذه واطراحه . وقد رسمت الكاتبة ، بصفتها امرأة متزوجة ، صورة بشعة لما ينتظرهن . ثم حددت تكتيكا سياسيا من تسع نقاط اضحى الايديولوجيا الاساسية للمجموعات الفتية في حركة التحرر النسوي .

«١ ــ على النساء ان يرفضن الانتساب الى حركات اخرى غير حركاتهن . ولا يسعهن ان يعقدن الآمال على اعادة تنظيم بنية المجتمع قبل ان يعاد النظر في بنية العلاقات بين الجنسين . ومن المحتمل ان تكون اللامساواة في العلاقات البيتية مصدر الداء كله . فالرجال يقارفون القبائح ، ويتحملون بجبن شتى ضروب التشويه الروحي ، ثم يلوذون ببيتهم متوقعين ان تعاملهم زوجاتهم باعجاب واحترام ، وربما بحب . وفي هذه الشروط لن ينظر الرجال ابدا وجها لوجه الى هويتهم الحقيقية ومشكلاتهم الحقيقية ، ولا نحن كذلك ...

«٢ ــ على النساء ، الواقعات في كثير من الاحيان تحت تأثير الخوف من القوة الجسدية ، ان يتعلمن كيف يحمين انفسهن ...

«٣ ــ علينا ان نرغم وسائل الاعلام على التزام الواقعية ...

«٤ ــ على النساء أن يتبادلن تجاربهن الى ان يفهمن ويحددن ويفضحن على نحو علني وسافر شتى تقنيات السيطرة التي يستعملها الرجال في الحياة الخاصة والحياة الاجتماعية . ومن الواجب ان تنشر تلك التقنيات وتذاع الى ان تغدو معرفة

مشتركة . ولا يجوز من الان فصاعدا ان تقف المـــرأة مبلبلة ، محتارة ، ومنزوعة السلاح حينما تناقش زوجها ...

«٥ ـ ينبغي تنظيم مشارك يمكن فيها للنساء أن يتحررن من أعبائهن ، مما يوفر لهن الوقت للتفتح نفسيا ...

«٦ ـ على النساء ان يتعلمن تاريخهن، لان لهن تاريخا يسعهن ان يتباهين به وكفيلا بأن ينمي في بناتهن عزة النفس ... فثمة نساء شجاعات قد حررننا من العبودية الكاملة وأتحن لنا امكانية الوصول الى وضع أحسن . ولا يجوز لنا ان نسقط مجهودهن ، بل يجب ان نستلهمهن ، وأن نمكنهن من استئناف القتال فـــي سبيل قضيتهن . ثمة سوق للادب النسوي، التاريخي او سواه. فمن الواجب تغذيته ...

«٧ ـ على النساء اللائي يتمتعن بكفاءة علمية ان يقمن بأبحاث حول الفروق الفعلية فـــي المواهب والملكات والامزجـــــة بين الجنسين ...

«٨ ـ لقد نحت المتطرفات جانبا ، وبازدراء ، مطلب الاجر المتساوي للعمل المتساوي ، لكن من الواجب اعادة الاعتبار اليه لان اللامساواة وسيلة استعباد ...

«٩ ـ في هذه اللائحة التي لا تزعم الكمال ، أخص بالذكر قوانين الاجهاض» (١٥) .

من الممكن ان نوجه الانتقاد الى جهل البند ٧ لان الابحـــاث المشار اليها قائمة على قدم وساق منذ نحو خمسين عاما . اما البند ٢ فسهل التنفيذ ما دام في المستطاع شراء الاسلحة ، وما دام فن الكاراتيه يمثل في برامج مدارس تخريـــج المبتدئات . وبالمقابل ، تكمن الصعوبة في إبطال الحاجة الى اللجوء الـــــى

---

١٥ ـ جونز وبراون ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٠ ـ ٢٢ .

العنف ، اذ ان ذلك هو الامل الوحيد للكائن المتحضر . لكن لا يرد ذكر لذلك حتى يومنا هذا في استراتيجية الحركات النسوية .

القسم الثاني من **نحو حركة تحرر نسوية** حررته جوديث براون ، الباحثة المساعدة في الطب النفساني في جامعة فلوريدا. وقد وصفت بدورها وضع المراة من الطبقات الوسطى في **طلاب مجتمع ديموقراطي** ، وأيدت الاطروحة القائلة ان الزواج هو بالنسبة الى المرأة معادل الاندماج بالنسبة الى السود ، مستخدمة في ذلك المشابهة بين المرأة والزنجي التي لاقت رواجا شعبيا وان تكن من الاساس خادعة . وقد اقترحت تأسيس مشارك نسائية خالصة للنساء الثوريات من دون ان تدرك ان ذلك لا يختلف عن أديرة القرون الوسطى التي كانت تقدم للنساء مكانا لتفتح شخصيتهن الثقافية والاخلاقية ، ولكن من دون ممارسة اي تأثير او ضغط على النظام القائم . والعزوبة التي تدعو اليها كتكتيك تزيد من قوة هذه المشابهة . ولا تتبدل الموازاة بالدعوة الى الجنسية المثلية والاستمناء كحلين بديلين للاندماج . وينتهي البيان بندب لمصير كارول توماس من دون ان يوضح هل استهدفت كامرأة . ولم ترد اشارة الى التهمة التي استدعت اعتقالها . لكن من الممكن ان نعتبر ان لذلك بين النساء الثوريات قيمة ما .

«ليس محكوما علينا بالشلل السياسي لنبرر الخمول ، وانما نحن طائفة مضطهَدة . علينا ، دونما تسويف ، ان ننشىء حركة نسائية ، لانه يتوجب علينا ان نكافح النظام القائم بطاقاتنا جميعا. علينا ان نحرر انفسنا كي نفلت من قنوط وضعنا في الاسرة ، ومن رؤيتنا القدرية الخاصة بنا كملعونات من جملة ملعوني الارض ، وكي نمارس غضبنا الاجتماعي في كل مرة ينطفىء فيها نور . علينا ان نوحد جهودنا كي نحطم دمى ذلك النظام الاجتماعي القابلة للفناء اجتماعيا وعسكريا ، وأن نهب وقوفا في وجه

الكلاب المستكلبة التي تحكمنا في كل زمان ومكان» (١٦) .

لقد اكتشفت النساء ، الجادات في اثر انفسهن ، على حين غرة ترسانة اسلحة جديدة في كتاب ماسترز وجونسون الذي نشر في عام١٩٦٦ تحت عنوان **الاستجابة الجنسية لدى الانسان**. وكانت ميتي آيلجرسون اول من اشار بحماسة الى النتائج التي تترتب على ذلك الكتاب بالنسبة الى تحرر المرأة . وتبنت رأي الرائدة الدانمركية عضوة في مجموعة نصيرات المرأة: آن كودت. والاطروحة التي تعرضها في **أسطورة الرعشة المهبلية** والتي تقول ان النساء قد حكم عليهن ـ بنتيجة جهل فرويد ورايش السيكولوجي ـ بالبرودة الجنسية ولُطخ سلوكهن الجنسي بالخزي والكذب ، أطروحة صحيحة ولا غبار عليها قطعا . لكن الاستنتاجات التي تستخلصها من ذلك والتي تزعم ان الخطأ كان متعمدا ومقصودا بغية تدعيم تفوق الرجل ، وان المهبل لا دور له في لذة المراة الجنسية ، وان الرجال لا يصرون على الايلاج الا لانه لذيذ لقضيبهم (وهذه الحجة هي بمثابة رد نسوي على الانانية المذكرة) ، قابلة للنقاش ، وهذا أقل ما يمكن ان يقال فيها ! «ان الرجال يخشون ، اذا ما حل البظر محل المهبل كأساس للذة المرأة ، ان يصبحوا فائضين عن الحاجة جنسيا ...» (١٧) .

ان المرء ليتساءل اي نوع من الرجال عاشرته آن كودت . فمعظم الرجال يعرفون اهمية البظر ويشمئزون ويستكرهون ان يكونوا مجرد ادوات جنسية . والرجل الذي تتوقع منه المرأة ان يكون في حالة انتصاب دائم ليس اكثر حرية من المرأة التي يفترض فيها ان يستجيب مهبلها لرعشة كونية عند اول ايلاج

---

١٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

١٧ ـ آن كودت : «اسطورة الرعشة المهبلية» ، نيو انغلند فري برس ، ص ٥ .

لقضيب كذاك . وهاجس العنة الذي يتولد عن تلك الاساطير يعادل هاجس البرودة . وتدل افتراضات آن كودت على انها تدرك طبيعة التضليل الذي وقعت ضحيته ، ولكن من دون ان تدرك طبيعة التضليل الذي يعاني منه الرجال . والاستنتاج الذي تخلص اليه غريب فعلا : « **السحاق** : فعلاوة على الاسباب التشريحية الصرف التي يمكن ان تحث النساء على طلب بنات جنسهن كشريكات جنسيات ، يخشى الرجال ان تطلب النساء عشرة النساء بغية تفتحهن انسانيا . والاقرار بواقع الرعشة البظرية يعني تسليط شبح الخطر على الجنسية الغيرية التأسيسية . فالمضطهِد يخشى دوما وأبدا ان يتحد المضطهَدون ، وفي حالتنا الخاصة ، ان تفلت النساء من سيطرة الرجل السيكولوجية . وبدلا من ان يتصور الرجال انه يمكن ان تقوم في المستقبل علاقات حرة بين الافراد ، يأتي رد فعلهم خوفا مرضيا من احتمال انتقام نسائي ، كما تظهر ذلك قضية ف. سولاناس» (١٨) .

يتساءل المرء ، اذ يقرأ الجملة الاخيرة ، من اطلق النار على من . ففي معظم الحالات ، يقوم الالتحام الفئوي بين الرجال ويستمر دونما علاقة جنسية ما بين اعضاء الجماعة . فما الجنسية بقوة تلاحم . ولا تظهر الجماعات الجنسية المثلية في مجتمعنا الحالي تلاحما او تعاونا ، وان يكن من المتعذر علينا ان نتكهن بما ستكون عليه العلاقات الجنسية المثلية وبما ستؤول اليه في ظل وضع لا تقترن فيه بالشعور بالاثم وبخبث النيات . وأخطر فرض يترتب على ذلك الطرح للامور هو القول بأن الخدر المهبلي لدى المرأة الاميركية من الطبقات الوسطى في مطلع النصف

---

١٨ ـ المصدر نفسه .

الثاني من القرن العشرين هو صفة ثابتة دائمة من صفات المزاج الانثوي . ونظرية آن كودت تلزم النساء جميعا بمثل هذا الوضع وتحكم عليهن به . وما لم تُجر تجارب في تاهيتي او في اي مكان آخر غريب عن ثقافتنا ومجتمعنا ـ هذا اذا كان ما يزال له من وجود ـ فلن نعرف الى اي حد يتعين ذلك الخدر ويتحـــــدد تشريحيا. وطبقا لتجربتي الخاصة ، فان الرعشة البظرية المقرونة باثارة مهبلية أبعث على الرضى من رعشة تتأتى من اثارة البظر وحده . ومهما يكن من امر ، فان الرجل اكثر من مجـــرد اداة جنسية .

لقد كتبت نانسي مان تفنيدا لمقال آن كودت ، نشرته **نيو انغلند فري برس** . وقد حاولت ان تفسر انعدام الرعشة لــدى المرأة بالقول بأننا لا نحسن سلوك السبيل الصحيح اليها ، ولا نتفهم الطبيعة الاساسية للظاهرة . وقد ارادت ، في الاستنتاج الذي خلصت اليه ، ان تبث الامل في نفوس النساء اللائي لا رغبة عندهن في اللجوء الى الاستمناء او في تعاطي السحاق . قالت : «انني لعلى يقين بأن معاناة الكثير من الناس في بلادنا من تجارب جنسية محبطة ليس مردها الى اتفاق الظروف والصدف . وانما العلة في الازدراء الذي تقابل به بوجه عام اللذة الانسانية المضحى بها على مذبح منطق الربح . من الجلي الاكيد ان الكائن البشري يملك امكانية التحكم باستجاباته الجنسية وتحمل مسؤوليتها . لكن من العبث الذي لا طائل فيه ان تلقي المرأة التبعات والاخطاء على كاهل الرجل ، والعكس بالعكس ... فالجنسية والعمـــل والحب والاخلاقية والتضامن الجماعي ، وكل ما من شأنـــه ان يعود علينا بالارتياح العاطفي ملغوم ومستغَل من قبل تنظيمنــــا الاجتماعي . هذا ما يجب علينا ان نكافحه . حين لا نتفاهم مـــع شريك جنسي ، ففي وسعنا ان نتركه . ولكن ماذا نستطيع ان

نعمل اذا كان البلد بأسره يسيء استغلالنا ؟» (١٩) .

ان هذا الاعتدال ، المتعارض مع الغبطة المتشفية التي تلقي بها آن كودت بقضيب الرجل الى سلة المهملات ، لم يحم نانسي مان من سخرية الصحفيات النسويات وشراستهن . فقد اتهمتها جولي باومغولد في **«نيويورك»** بالمطالبة بالقضيب (٢٠) . وفي الواقع ، وبالرغم من الموقف الساخر الذي وقفته الصحافة ، تدين حركات التحرر النسوي بشهرتها ودويها حتى يومنا هذا لوسائل الاتصال الجماهيري . وقد تمخضت شهية الصحافة الجامحة الى كل ما هو جديد عن المفارقة التالية : نشر أخبار المبادهات النسوية جنبا الى جنب مع الاعلانات عن مراهم التجميل ومزيلات روائح المهبل وسائر المنتجات المشابهة التي تلقى رواجا شديدا . وحركات التحرر النسوي مصدر جيد للمقالات المثيرة لما اشتهر عنها من فساد وضلال وانحطاط نسائي ، وللضجة التي ترافق ما قد يصدر عنها من حماقات .

لقد ذاع صيت تلك الحركات في صيف ١٩٦٨ ، لا لان النساء تنظمن ضمن مجموعة متلاحمة في نطاق اليسار الجديد فحسب ، وانما في المقام الاول لأن فاليري سولاناس اطلقت النار على اندي وارهول . فاذا بأخبار **جمعية اقصاء الرجل** تنازع على حين بغتة جريمة قتل روبرت كيندي على احتلال الصفحة الاولى من الجرائد . لم يكن هناك ، باستثناء سلوك فاليري سولاناس نفسها ، ما يوحي بأن تلك الجمعية قد مارست نشاطا قط . وقد كان من السهولة بمكان وصفها بأنها استعرائية عصابية وشاذة ، كما كان الحادث نفسه امرا مألوفا في وسط وارهول ، مما كان يحتم

---

١٩ ـ نانسي مان : «Fucked - up in America»

٢٠ ـ جولي باومغولد «You've come a longway, Baby» في «نيويورك» ، ٩ـ٦ـ١٩٦٩ .

تحريف المعنى المقصود من وراء اطلاق النار عليه . ويقرأ الناس كتبه عادة حبا منهم للاثارة ، لكنهم لا يلقون فيها سوى حقائق منفرة مستكرهة. وقد فهمت ، اكثر من اي طالبة جامعية اخرى، مشكلة الاستقطاب والهوة التي تفصل بين الرجل والمرأة والتي تحول دون قيام علاقات سوية بينهما اذ تحكم عليهما بديناميس حرب لا مخرج منها . وكانت تدعو الى انتهاج استراتيجية ممجوجة ومثيرة كيما تتمكن النساء من استرداد حقوقهن كاملة ككائنات انسانية : استراتيجية ابادة الرجل . ولعل طاقة تي - غريس اتكنسون الجامحة وصلابتها الشرسة في فضح رغبة الرجل في التشبث بتصوره عن الانثى الخالدة ، في الوقت نفسه الذي يصارع فيه بضراوة يائسة تثبيتا لادعاءاته الناجمة عن تمحوره حول القضيب ، هما اللتان قادتاها الى مقاطعة **المنظمة القومية للنساء** كي تؤسس حركة اكثر جذرية ، وهذا في الوقت الذي كانت فيه الاصلاحيات يعطين شعاراتهن طابعا أشد حدة وهجومية. ومن الممكن ايضا ان نعزو اليها انشاء W.I.T.C.H (اي «المؤامرة الجهنمية الارهابية النسائية الدولية») التي كان هدفها الدعاية عن طريق الفضيحة . وقد كان لتظاهرات احراق مشدات الصدور وتحطيم نماذج مصغرة لمبنى **تشيز منهاتن بنك** واقتحام مخازن **بريد فير ماديسون سكوير غاردن** من قبل نساء متنكرات في ملابس ساحرات وممتطيات مقابض مكانس ، نجع كاف في ظل نظام قابل للتأثر والانجراح بطرائقه العنفية الخاصة، مما أدى الى تدهور أسعار الاسهم في البورصة بنسبة خمس نقاط . لكن الخوف من «**القوة البوليسية التكتيكية**» ومن أشكال القمع الاخرى ارغمت اليوم تلك الحركة الاعلانية على التخفي والعمل في السر .

تبنت حركات التحرر النسوي ، بعد الضجة الاعلانية الساخرة التي أحاطتها بها الصحافة ، موقف حذر وريبة من الصحافة ، ولكن لم يؤد ذلك الى تحسين صورتها في أنظار

الجمهور ولم يجنبها المثول في صحافة يوم الاحد ومجلات الاثارة.
وفي الواقع، ان غياب الاعلان اعلان رديء، ولاسيما في ظل وضع اعتادت فيه النساء على قراءة الصحف قراءة بالغة السطحية يفوتهن معها القسم الاعظم من التهكم والاستهزاء. وقد كان الناس الذين يعون هذا التهكم الضمني يشعرون في كثير من الاحيان بقدر من التعاطف مع الضحايا اللواتي تسيء معاملتهن غاية الاساءة صحافة استغلالية. اما النساء فكنّ يجدن عزاء وسلوانا في معرفتهن بأن شيئا ما هو قيد الحدوث، حتى ولو كانت طبيعة الحدث غير واضحة. وفي كل مرة تنشر فيها الصحف احتجاج امرأة على النظام الضريبي الذي يمنعها من مزاولة مهنتها بصفتها امرأة متزوجة او على الطغيان الجنسي والاكاذيب المرتبطة به، يأتي رد الفعل واسع الابعاد وتمتد المساجلة على عدة أعداد. حسبنا ان نأخذ مثالا مقال فيفيان غورنيك في **فيلاج فويس** (٢١). ومقابل كل امرأة توجه رسالة الى هيئة التحرير، توجد مئات من النساء اللائي لا يستطعن ذلك. وفي كل مرة يعرب فيها رجل عن تهكمه او خوفه، يهب مئة رجل لدعم وجهة نظره. وليس لنا الا ان نأمل ان تقرر أعداد متزايدة من النساء عرض آرائهن في الصحافة بدلا من ان يسمحن للآخرين بالكتابة في موضوعهن. ومن الممكن ان يمتد هذا التأثير الى التلفزيون الذي لا تعرف حاجاته من شبع. ولا يهم ان يكن منتجو مواد التجميل هم الذين يمولون البرامج التلفزيونية النسوية. فهم بذلك انما يدفعون نفقات دفنهم. وعلى كل الاحوال، ليس شتم الصحفيين وتنحيتهم جانبا بوسيلة جيدة للدفاع. فالزجر هو سلاح المضطهِد، لا سلاحنا.

---

٢١ ـ فيفيان غورنيك: «اللحظة الكبرى التالية في التاريخ هي لحظتهن»، في «فيلاج فويس» (صوت القرية)، ٢٧-١١-١٩٦٩.

ثمة حركات تحرر نسوي كثيرة اخرى في الولايات المتحدة تضم خريجات الجامعات وينوف عددها على خمس وعشرين ، لكنها منظمات محلية لا تهتم بغير شؤونها . ومنها جماعة **الجوارب الحمر** التي تكونت ردا على ما تقابل به نصيرات المرأة من تهكم واستهزاء من قبل الرجال . وتسعى هذه الحركة الى توعية النساء من منظور ماركوزي . وهناك كذلك حركة ١٧ اوكتوبر التي من اعضائها آن كودت وشولاميت فايرستون ؛ والخلية ٥٥ ؛ والحركة البوسطنية للتحرر النسائي بزعامة آبي روكفلر التي القت محاضرة حضرتها خمسمئة امرأة من اللواتي يتدربن على الكاراتيه ؛ **ومؤتمر وحدة النساء** الذي لا يضم ــ للاسف ــ سوى خمسمئة عضوة . وما تزال الحركة النسوية تنقسم على نفسها الى نحل متعادية ، لكن يسعنا ان نرى في ذلك مؤشرا على الدينامية كبديل عن القوة .

في بريطانيا ، تنشأ اليوم في عموم الضواحي البورجوازية بتحريض من ربات البيوت المثقفات ، وفي الجامعات ، حلقات **دراسية لتحرر المرأة** ، ولا تتميز هذه الروابط بتلاحم في الايديولوجيات ، كما تفتقر طرائقها وأساليبها الى الخيال والفاعلية. وقد اصدرت **الحلقة الدراسية لتحرر المرأة في توفنل بارك** صحيفة باسم **شرو** Shrew ، وتوزيعها رديء للغاية . وقد اتصلت خمس مرات هاتفيا لأحصل على أعداد قديمة ، ولكن بلا جدوى ، فعدلت . ويوم تظاهر عدد من السيدات الجليلات اثناء انتخاب ملكة جمال العالم حاملات يافطات تقول : «نحن لسنا اشياء جنسية» ، وهو توكيد ما كان احد يماري في صوابيته في الظاهر ، فوجئن مروّعات بمشهد طالبات جامعة **وارويك** يغنين ويرقصن حول رجال الشرطة . وقد رجونهن العدول عن هذا الاستعراض ، لتنافيه مع حسن التربية وصورة المرأة التي لحقها من الاصل ما لحقها من هوان ! وقد اعرب

العدد التالي من **شرو** عن الاسف لمسلك اولئك المتحمسات المتزمتات ، مفترضا بحسن نية انهن من ربات بيوت كوفانتري ، ومن أمهات الاسر الكثيرة التعداد ، اي على وجه التحديد من اولئك النسوة اللائي تتنطح الحركة لتحريرهن . وفي الواقع ، ان فرع كوفانتري هو من الفروع النادرة التي تتردد عليها زوجات عمال ليشرحن وضعهن لفتيات لهن نصيبهن من الامتيازات، وهذا مثال يحتذى من قبل غيرهن من صاحبات الامتيازات من النساء اللائي لم يتعلمن بعد كيف يطالبن بشيء آخر غير ذلك التجريد الذي يسمى بـ «تكافؤ الفرص» (٢٢) .

غير ان الحركة النسوية الجديدة ، رغم الفوضى والافكار المغلوطة ، ما تني في اتساع متزايد . فالمسرح النسوي الجديد ، الذي ترعاه **ذوات الجوارب الحمر**، يملأ **فيلاج فميت** في نيويورك. وبالرغم من ان فكرة تعلم العنف المذكر كضرب من التكتيك الثوري او ممارسة العزوبة لا تغري سوى القليلات من النساء ، تظاهرت الزوجات والامهات حول سجن **هدسون ستتيت** معلنات عن عدم رغبتهن في تقاضي نفقة غذائية . وكما لاحظت غلوريا ستينم ، تم توسع حركة التحرر بفعل العدوى اكثر منه بفعل التنظيم (٢٣) . وهي اليوم اوسع نطاقا وأكثر عمقا من التنظيم السري الذي تنشر منشوراته دار **نيو ــ انغلند فري برس** ، بل حتى من تنظيم بتي فريدان النسائي . ففي مساجلة جامعية أتيحت لي الفرصة للكلام

---

٢٢ ــ تضم الحلقات الدراسية لتحرر المرأة خمس مجموعات اليوم . وتنشر مجموعة نوتنغهام صحيفة باسم «المرأة الاشتراكية» ، ومجموعة بريستول صحيفة اخرى باسم «كفى تعني كفى» . وقد ضم مؤتمر انعقد في اوكسفورد من ٢٨ شباط الى ١ آذار ١٩٧٠ زهاء ٥٠٠ مساهمة مع ٤٠٠ طفل و٥٠ رجلا .

٢٣ ــ غلوريا ستينم : «سياسة المدينة» ، في صحيفة «نيويورك» ، ١٠ آذار ١٩٦٩ .

فيها مؤخرا ، سقط اقتراح مناهض للحركة النسوية مع ان غالبية الحضور والمصوتين كانوا من الذكور ، علما بأن الحركة النسوية كانت قد منيت قبل خمسة أعوام بالهزيمة في مساجلة حول الموضوع نفسه ، رغم ان الحجج كانت اقوى وأبرع . وكنت قبل اسبوع قد تحدثت في مركز لتربية الراشدين في **تيسيد** ، امام جمهور مختلط ورزين . وقد عبرت نساء خجولات وعصبيات بحضور أزواجهن عن آرائهن في مواضيع تعتبر «هدامة» للغاية. وتمردت ممرضات ، وأضربت مدرسات ، وصار للتنورات أطوال مختلفة ، ولم تعد النساء يقبلن على شراء مشدات الصدور ، وصرن يطالبن بالحق في الاجهاض ... وهذا العصيان ما ينفي يشتد ساعدا ، وقد يتحول الى ثورة .

***

ليس رد الفعل هو الثورة . وحين يتبنى المضطهَدون طرائق المضطهِد ، وان استخدموها لصالحهم ، لا نستطيع الكلام عن ثورة . مثلما لا نستطيع ان نتكلم عنها حين تقلد النساء الرجال، والعكس بالعكس ، ولا حتى حين تتراخى قبضة القوانين المناوئة للجنسية المثلية ، وتتلاشى الفروق في اللباس، وتتقارب المسالك. ومحاولة رد الاستقطاب واختزاله على مستوى التشريع ليس لها من راجعية على سلطان الميتولوجيا الجنسيةعلى العقول والقلوب. ان انعدام الجاذبية في وجه برباره كاسل (٢٤) المتغضن ودورها العاق ككلب حراسة في حكومة ويلسون قد حثا النساء على الانكفاء والانحباس في انوثتهن العاجزة اكثر مما كانا عامل

---

٢٤ ـ وزيرة العمل في حكومة هارولد ويلسون البريطانية العمالية . «م»

تشجيع لهن على التماس أمجاد مذكرة في مجتمع مذكر . اننا نعلم ان النساء من أمثال برباره كاسل لا يتصرفن على اساس من انهن بطلات جنسهن حينما يتربعن على سدة السلطة . وهن بصفتهن من أرباب العمل والمستخدِمين لا يقصدن افرادا من جنسهن ، حتى عندما لا يكون هناك معيار آخر للتمييز . ويتفاهمن مع الرجال اكثر من تفاهمهن مع النساء لانهن معتادات على التحايل على قابليتهن للتأثر والانجراح ، وعلى عقدة ذنبهن، وعلى رغائبهن الخفية . هؤلاء النسوة هن بالنسبة الى الرجل بمثابة «الزنجي الطيب» بالنسبة الى الرجل الابيض ؛ نسوة يشذّنّ عن المألوف ويعادلن الرجال في القيمة ، وفي الوقت نفسه أصلح من غيرهن للزخرفة والديكور ، وحيالهن يستسلم الرجال .

ان محاولة النساء تغيير شرطهن بالتدرب على القتال واحد من أسطع الامثلة على الخلط بين ردة الفعل او التمرد وبين الثورة . فاليوم ، وقد غدت الحرب ، مثلها مثل الصناعة ، غير منوطة بالقوة الجسمانية ، لم يعد لها من معنى كوسيلة فعل وعمل في النضال الذي تخوض غماره النساء كي يصبحن كائنات انسانية تتمتع بكامل استقلالها وحقوقها . وقد امسى العنف ، من الان فصاعدا ، لاإنسانيا وعديم الجنس . وانما هو قرين الغنى ، سواء أفي شكل انتاج اسلحة معقدة ، ام في شكل إنفاق على جيوش جرارة وقوات شرطة ، أم في شكل بناء أنظمة دفاع جبارة لا يمكن ان تقودنا ، بمجرد وجودها ، الا الى سديم الحرب بصورة شبه محتمة . ان الحرب اقرار بالهزيمة حيال نزاع في المصالح . فبالحرب تسلم الناس زمامها لقرار القدر مفترضة ان الفوز سيكون من نصيب المتفوق . ومن المؤكد اننا نستطيع الاعتراض على ذلك بالقول ان قصب السبق سيكون من نصيب عديم الذمة والضمير . بيد ان **التاريخ** سيظل يكتشف فيه

فضائل لا يتوفر نظيرها لخصمه . حسبنا ان نتذكر محاولة هوشنوت ادانة دور بريطانيا في سحق المانيا واصرار ونستون تشرشل ، بعمى بصيرة أريب ماكر ، على رفض الاعتراف بحتمية ذلك التطور . والحرب لا تكسب ابدا ، كما يلاحظ ذلك بغموض وابهام كل انكليزي يقارن بين وضعه المادي والوضع المادي لاوروبا المذنبة بالنازية . والنساء اللائي ينزعن الى الاخذ بموقف حربي في التماسهن التحرر والانعتاق يحكمن على انفسهن بتبني الانحراف الاخير للرجولة المتجردة من الطابع الانساني ، العاجزة عن ان تجد لنفسها من مخرج غير تلك النهاية المذكرة بجوهرها : الانتحار .

تبرر حركة التحرر النسوي البوسطنية اهتمامها بالكاراتيه بحجة ان النساء يخفن افراديا من العدوان المادي ، وانه لا بد ان يتحررن من هذا الخوف حتى يسعهن التصرف بثقة وطمأنينة . وصحيح أن الرجال يعمدون الى التهديد بالقوة المادية ، بطريقة مسرحية ، تكميما لأفواه الشكسات من النساء . لكن هذا محض ابتزاز يسهل تلافيه . فقد عشت في مناسبات عدة مع رجال اشتهروا بفظاظتهم ، وكان اثنان منهم قد حكم عليهما بعقوبة حبس بتهمة الضرب وإحداث جروح ، ولكنهم لم يهدَدوني قط جسمانيا ، لانه كان من الواضح الذي لا يحتمل اللبس انني لن أنصاع ابدا للغة التهديد . ان معظم النساء يأسر ألبابهن العنف . منهن تتألف غالبية جمهور المعارك ، وتأثرهن لا حدود له بمشاهد العنف في الافلام . وهن اللواتي يصطنعن المشاجرات في الحانات والمراقص . ويندفع الرجال الى العنف لرغبة المرأة فيه . ومعظم المشاجرات مُحِطَّة للكرامة الانسانية وليس لها من هدف محدد. وبوجه عام ، لا يضرب الرجال الموضوع الحقيقي لغضبهم وينتهي بهم الامر الى التعرض المضرب بفعل مازوخيتهم الذاتية . اما الرجل العنيف حقا فلا يمارس لا الكاراتيه ولا الملاكمة . وانما يستولي على قنينة او على قضيب من الحديد او على فأس ، ولا

يتبارى مع الخصم ليقيس قوته بقوته . بل تراه يسبب له اكبر قدر من الاذى في أسرع وقت ممكن .

يوم تمتنع النساء عن الاعجاب والشغف بالمنتصرين في المواجهات العنيفة ، تبدأ الثورة الحقيقية . لماذا يعجبن بالرجل البهيمي ؟ ألا يجدر بهن أن يرين تحت قناع الادعاء والتبجح يأس وألم الرجل الذي لم يُترك له من خيار سوى ان يستعمل قبضتيه؟ ان الرجال ذوي المظهر القوي والبنية الخشنة هم الذين يُستفزون على الدوام الى القتال من قبل رجال لا يتوفر فيهم هذا القدر الطافح من الرجولة وبهم حاجة الى توكيد ذواتهم . لماذا لا يفهمن ان تأليه الرجل القوي ، سواء أكان محاربا ام مصارعا ام لاعب كرة قدم ام رياضيا استعراضيا ، يقضي على الرجل بشرط قريب للغاية من شرطهن ؟ ولو اقترحت النساء حلا بديلا لدوامة العنف هذه ، لتوفرت للعالم فرص اكثر للبقاء على قيد الحياة ، وبدرجة أقل من الالم . ولو رفضن حضور حفلات الملاكمة والمصارعة ، لما عادت مربحة ماليا . ولو تأكد العسكريون من انهم سيُنبذون من فراش النساء، كما كانت اقترحت ليسيستراتا((٢٥))، لما احاطت بالحرب تلك الهالة التي تحيط بها اليوم . ما نحن بحوريات ، واننا لنرفض ان نكون مكافأة المحارب . ومع ذلك نقرأ في مجلات الذكور ان مومسات المدن الاميركية يهبن أجسادهن مجانا للفتيان الذين على وشك الاقلاع الى فيتنام .

ان انحراف الذكور نحو العنف هو العامل الاساسي في انحطاط المرأة . فالقضيب يُفهم على انه سلاح ، وفعله في المرأة يعتبر هداما وضارا . ولن تخرج النساء من إسار عجزهن وان

---

٢٥ ـ بطلة مسرحية ارسطوفانس المعروفة بالاسم نفسه وذات النزعة السلمية البارزة . «م»

أعطيت لهن بندقية ، وان كن قادرات نظير الرجال على اطلاق النار منها . وفي كل مرة أعطي فيها لهن سلاح لمعركة محددة ، سُحب منهن ثانية ، وسقطن في مستنقع العجز من جديد . ينبغي اذن تبني المبدأ المعاكس . فعلى النساء أنسنة القضيب ، فلا يعود سلاحا من الفولاذ بل لحما . ان معظم النساء المتحررات يسخرن من أسطورة القضيب ومن الاهمية التي يعلقها الرجال على رجولتهم ، ولكن من دون ان يدركن كيف امكن الوصول الى هذا الضلال وما أثره عليهن هن انفسهن . لقد سئم الرجال وكلُّوا من تحملهم وحدهم المسؤولية الجنسية ، وقد آن الاوان على ما يبدو لتحريرهم منها . لا أقصد انه ينبغي تبني السحاق على نطاق واسع ، بل أعني انه من الواجب وضع حد للتركيز على التناسلية المذكرة وتوجيه الانظار نحو الجنسية الانسانية . ينبغي ان يستعيد عضو الجنس لدى المرأة حقوقه . ولنكرر القول بأن موقف المرأة من العنف لا يقبل انفصالا عن هذه المشكلة .

على الرغم من ان الكثيرات من النساء لا ينجذبن الى المنتصرين في المواجهات العنيفة ، وقد يجدن في انفسهن عطفا على القوي المقهور ، ولكنهن جميعهن يفضلن ، من وجهة نظر اجتماعية ، الغالبين على المغلوبين . لقد تشكت استاذة جامعية في محاضرة لها امام جمهور من الراشدين من ان رد فعل التفوق لدى الرجال يمنعهم من الخروج مع فتيات من مستوى ثقافي مماثل في المؤسسة الجامعية نفسها . ونظرا الى ان هؤلاء الفتيات يأبين بدورهن معاشرة رجال من مستوى ثقافي ادنى ، فقد امتنعن نهائيا عن الخروج . لكن اذا اختار الرجال ان يقاسموا نساء من مستوى ثقافي ادنى اوقات فراغهم ، فلماذا لا تحذو الفتيات حذوهم ؟ تقول النساء بازدراء ان الرجال لا يكونون مثقفين الا في ساعات العمل وحدها ، وانهم يفرّجون عن انفسهم بالثرثرة مع امرأة بلهاء ولكن جميلة . ثم انهم يمثلون دور الآباء الذين يعرفون كل شيء حيال فتيات صغيرات يتظاهرن بانبهار

أنفاسهن من شدة الاعجاب . ان هذا الهزء لفي محله . ولكن صحيح ايضا ان المثقفات هن في غالب الاحيان صلفات ، عدوانيات ، مستبدات ، طاغيات الحضور . انهن يغالين في شأن ثقافتهن ، ويفقدن القدرة على التمتع بالتسلية البريئة . ولا ينشدن من الرجال الا ذاك الذي تعادل ثقافته ثقافتهن قيمة ومستوى . وهن بحاجة الى ان يتلافى احدهم قصورهن الذاتي هذا ، ولا يبطىء الرجال في الانتباه لقوة هذه الرغبة. ان الكثيرين من الرجال يسأمون بسرعة من ذوات الرأس الفارغ من النساء ، لكن نفورهم لأشد ايضا من المتحذلقات ومدعيات الثقافة . فلماذا لا تروِّح النساء عن أنفسهن بالتمتع بعشرة رجال دونهن في المستوى الثقافي ، بدلا من ان يتطلعن الى مصاحبة أنداد لهن وأقران ؟ المطلوب من النساء ان يتخلين عن حاجتهن الى **الاعجاب** بالرجل ، وأن يقبلن بحبه . ان «صاحبة المخ» لا تجازف بخصي سائق شاحنة ، مثلما قد تفعل مع ند مثقف ، لمجرد انه لم يظهر احتراما مسرفا لمعارفها الكتبية . ثم ان انعدام التبحر في العلم والمعرفة ليس معناه البلاهة ، وما اكثر ما تحتاج المرأة النابغة الى المفعول التصحيحي لحكمة الناس العاديين . وفي أسر العمال ، لا يتسم دور الاب بتلك السمة من التفوق التي يتحلى بها في الاوساط البورجوازية ، لان النساء يتفوقن في كثير من الاحيان في فن الكتابة ، ويتكفلن بالعلاقات مع الادارة (٢٦) . ولا يندر ان

---

٢٦ ـ آنا مارتن : «المرأة العاملة المتزوجة» ، منشورات «الاتحاد القومي لجمعيات النساء المستنخبات» ، تموز ١٩١١ : «تتمتع المرأة ، لدى الاسر الفقيرة بوجه خاص ، بتفوق ثقافي ملموس على زوجها . والنضال المتواصل الذي يتوجب على هؤلاء النسوة ان يخضنه ذودا عن بيتهن ضد قوى النظام الصناعي ينمي تيقظهن وقدرتهن على التكيف بينما ينطفىء الرجال تحت وطأة عمل قاس ورتيب » .

يتباهى الزوج العامل بأن له امرأة «تفكر» . وبعد تسديد الضرائب ، قد لا تدخل أتعاب المرأة تعديلا يذكر على وضع الزوجين المالي . فمدخول المهن الحرة في هذا البلد متدنٍ للغاية بحيث لن تساور اي رجل حاجة الى الشعور بالمذلة ازاء كسب زوجته ، كائنة ما كانت شهاداتها . وخيرا تفعل النساء الاشتراكيات اللواتي يثرن الان الزوابع ضمن اطار جماعات منفصلة ، بعد ان كرسن جهودهن كافة لخدمة الثوريين البورجوازيين في الحركة ، لو وضعن كفاءتهن التي لم تلق منهم سوى الازدراء في خدمة الطبقة التي يفترض فيهن تمثيلها . وبوجه عام ، يحكم على نجاح امرأة من النساء بدرجة الارتقاء الاجتماعي الذي يعود عليها به زواجها . واعتقد انه من الطبيعي ان تكون اولى نتائج الثورة قلب هذا المعيار . وبديهي ان الاخلاص والصدق مع النفس ضرورة لا غنى عنها هنا . اما العجرفة فلن تكون الا مفجعة النتائج .

اذا كانت النساء يرغبن في تحسين أوضاعهن ، فعليهن ان يرفضن الزواج . فالعامل لا يمكن ان نطالبه بتوقيع عقد لمدى الحياة . ولو فعل لصار رب عمله في وضع يتيح له ألا يقيم وزنا لجهوده الرامية الى الحصول على زيادات في الاجر وعلى شروط عمل افضل . وهذا بالفعل ما نلاحظه حيث يحوز رب العمل احتكارا . ولا يجوز ان يكون رب العمل هو وحده دون سواه صاحب الامر والنهي في منح الترقيات والعلاوات بطيبة قلبه وحدها . بل ينبغي ان يحافظ عماله على قدرتهم التفاوضية . ومن الممكن الاعتراض على ما تقدم بأن النساء لا يوقعن عقدا لمدى الحياة وذلك ما دام الطلاق ممكنا . لكن الطلاق ، في الوضع الراهن ، يفيد الرجل لا لان الرجال هم الذين أسسوه فحسب ، بل كذلك لانه يناط بتملك ثروة او دخل مستقل . ويندر ان تتمتع النساء المتزوجات بأي منهما . يؤكد الرجال ان إلزامية

النفقة قد تلحق بهم فادح الضرر ماليا ، وهذا صحيح ، لكنهم هم المسؤولون عن ذلك . فالنفقة ضرورية ما دامت الام هي التي يُعهد اليها ، بوجه عام ، برعاية الاولاد . والمرأة التي تربي اولادا بنفقة وبلا وجود الاب ليست اكثر حرية من ذي قبل . أضف الى ذلك انه لا معنى لتوقيع عقد لا يستطيع غير رب العمل فسخه . ومما يبعث على المزيد من المرارة التفكير بأن دخل المرأة التي تعمل يخضع للضريبة بوصفه جزءا لا يتجزأ من دخل الزوج غير الملزم حتى باطلاعها على مقدار كسبه . واذا كان الاستقلال يلازم بالضرورة الحرية ، فعلى النساء ان يمتنعن عن الزواج .

لماذا تتزوج الفتاة بوجه الاجمال ؟ قد يأتي الجواب : بداعي الحب . لكن الحب يمكن ان يوجد خارج الزواج . وفي الواقع ، لم يكن له من وجود ، لحقبة مديدة من الزمن ، الا خارج الزواج. وقد يتخذ الحب أشكالا كثيرة . فما الداعي لان يكون حصريا ؟ اما الامان فهو وهم ، ولاسيما اذا كان المفروض فيه ان يحفظ سعادة اندماج الكائنين المتحابين الذي يبلغ أوجه لحظة الزواج . فحتى ان لم تقع كارثة في شكل زنى او انفصال ، فان الناس يتغيرون . ولن يبقى اي من الشريكين في نهاية الزواج على ما كان عليه في بدايته . اما اذا تزوجت المرأة كي تعفي نفسها من العمل ، فانها تنال ما تستحقه . والمطلوب هو تحسين امكانيات الاستخدام ، لا الاستنكاف عنه . واذا تزوجت المرأة رغبة منها في انجاب اطفال ، فخيرا تفعل لو فكرت بأن الاسرة المتوسطة لم تكن، حتى يومنا هذا ، اطارا مناسبا جدا لتفتح شخصية الاولاد. ونظرا الى ان العالم ليس بحاجة ماسة الى الاطفال ، فخيرا تفعل لو استفادت من وسائل منع الحمل بانتظار فرصة افضل . ثم ان الازدراء والقصور اللذين تشكو منهما المرأة العزباء ، التي لا يحق لها ان توقع عقد رهن عقاري والتي غالبا ما تعتبر مستأجرة غير مرغوب فيها ، لا يمكن لغير المرأة العزباء ان تكافحهما . ولن ينتفي وجودهما بفضل قران يعقد بسائق الجبن . وحتى لو كان من

الاصعب تربية طفل غير شرعي ، وحتى لو كان التساكن الحبي قمينا بأن يجلب على المراة التعليقات المهينة وضروب الاضطهاد من جانب المواطنين المتمسكين بالتقاليد ، يبقى الزواج بهدف الافلات من هذه المحاذير غير ذي معنى .

من السهل ان نعلن بلهجة جازمة قاطعة ان المرأة التي تريد التحرر ينبغي الا تتزوج ، لكن اذا كان معنى ذلك ان قضية النساء المتزوجات قضية خاسرة ، فان انعتاق النساء سيُرجأ بحكم ذلك الى اجل غير مسمى . فالمراة المتزوجة التي لا اولاد لها تحتفظ بقدرة تفاوضية معينة ، بشرط ان تحزم أمرها على عدم الخوف من هجر زوجها اياها . والمناقشات بين المتزوجين تدور على أسس غير متساوية . وينتهي الامر بالزوجة الى ان تعاين ان حياتها ، لا حياة زوجها ، هي التي تبدلت تبدلا جذريا . ويسلم الناس عادة بسلامة هذا الوضع . فقد رفضت وزارة الداخلية مؤخرا ، على سبيل المثال ، ان تأذن لامرأة بالعيش في بلدها الاصلي لانها تزوجت هنديا ولان العادة جرت على ان تعتنق الزوجة تابعية زوجها (٢٧) . وكذلك هي الحال بالنسبة الى المدينة التي رأى فيها النور ، والمدينة التي يعمل فيها ، ومنزله وأصدقائه . وعدم تساوي الامتيازات في الزواج يجد تفسيره في عدم تساوي الروابط العاطفية ، بالرغم من انه لا يعدو ان يكون وهما في كثير من الاحوال . اذ ان الكثيرين من الرجال يخافون قدر خوف نسائهم ان يُهجروا وأن ينبذوا كأزواج . وبوسع المرأة التي لا تخشى ان تجبر على القيام بأود حياتها أن تصمد له

---

٢٧ ــ السيدة ماري شاترجي . وقد اخبرتها وزارة الداخلية : «نعتبر ان المرأة يجب ان تكون بوجه عام مستعدة للعيش في بلد زوجها» (التايمز ، ٣ــ٢ــ١٩٧٠) .

وتعارضه . وأكثر ما يتطلبه الامر برودة الاعصاب ورباطة الجأش . وكلما تعاظم استياء النساء ، توجب ان يتزايد عدد منظمات التعاون بغية تسهيل الاستقلال الفردي. وليست الفائدة الاولى من هذه المنظمات تكوين جبهة سياسية ، وانما تنمية التضامن والتضافر الذي يمكن ان يكون ناجعا على نطاق ضيق للغاية . فالعودة الى بيت الماما قد تكون حلا كئيبا للغاية ، لان الحياة في كنف الامهات صعبة في غالب الاحيان ، ولانهن محافظات وسئمات من مشكلات اولادهن ، وعلى استعداد دائم للانهيال على هؤلاء الاولاد باللوم والتقريع . وما تزال معظم النساء بحاجة الى غرفة خاصة بهن ، وهن لا يجدن اليها من سبيل الا خارج بيوتهن .

ان وضع الامهات ادعى الى القنوط من وضع سائر النساء ، وكلما كان عدد اولادهن اكبر بدت جميع مخارج مشكلتهن مسدودة . بيد ان عددا من الامهات أفلحن في انتزاع حريتهن ، مع اولادهن او بدونهم . فقد هجرت تيسا فاذرغيل زوجها ، وأخذت معها طفلها ، وكافحت لتجد شقة للسكن وعملا . وقد اصطدمت بصعاب كثيرة ، فقررت ان تؤسس منظمة لمساعدة النساء اللائي يواجهن المشكلة عينها . وقد أسمتها باسم Ginger bread . وكانت هناك منظمة مماثلة اخرى باسم Mothers in action . فكائنة ما كانت العراقيل الادارية ، فمن الاسهل على الدوام تذليل الصعاب معا . ولا بد ان تنتهي الامور الى تأسيس صحيفة نسوية تتولى الاعلان عن اشباه تلك المنظمات وتجند لها العضوات . وسوف تتردد معظم النساء ، بسبب الاهمية التي يعلقنها على دورهن كأمهات ، حيال فكرة هجر أزواجهن وأولادهن ، لكن لا مناص اصلا من اعادة نظر جذرية في الافكار المكتسبة . فالاولاد ، باديء ذي بدء ، لا يخصون الام ، وان يكن معظم القضاة يعطونها الافضلية في حال نشوب النزاع بصدد حضانة الاولاد . والاذى الذي يلحق بالاولاد

الذين يترعرعون في جو تعيس ، وان بذلت الجهود لإخفاء الواقع عنهم ، اكبر من ذاك الذي قد ينزل بهم من جراء محاولة التكيف مع تغيير للنظام . وصعوبة تكيفهم مع مثل هذا التغيير دليل على الطابع اللااجتماعي لتعزيز الرباط السري، وانه لمن الاصلح والاسلم للاولاد ، على المدى الطويل ، ان يكتشفوا ان أمهم ليست عبدة لهم . ومهما يكن من امر ، فمن الافضل شرح الوضع لهم لانهم يعانون ، حين يتخوفون من تهديدات غامضة ، من قدر من الضيق والعذاب اكبر من ذاك الذي يعانون منه حين تواجههم الحقائق والوقائع . والمرأة التي تعلم انها لو تركت زوجها فلن يكون في مستطاعها أن تنشيء اولادها الا تحت جنح البؤس والشقاء ، حتى وان تكن قادرة على كسب معاشها ، لا بد ان تأخذ قرارا حكيما وأن تتغلب على الآراء المسبقة التي تبهظ بوطأتها على المرأة التي تهجر زوجها . ففي الكثير من الاحوال ، يجد الزوج عزاء في الاحتفاظ بالاولاد ، ويعاملهم معاملة افضل ، وبقدر أقل من القلق ، مما قد تفعل المرأة . وهو أقدر من المرأة على دفع اجر مربية اطفال او حاضنة . والمرأة المطلقة التي تجاهد في سبيل تربية اطفالها مهددة على الدوام بأن تضطر الى وضعهم لدى مرضعة ، وهذا أسوأ الحلول اطلاقا . اما المرأة التي تترك زوجها وأطفالها فقد يسعها ان تسدد لهم نفقة فيما لو اتاح لها المجتمع الوسائل لذلك .

حتى تتحرر المرأة المتزوجة فلا بد ان تفهم اولا وضعها ، وأن تناضل ضد الشعور بالذنب الذي يساورها حيال عجزها عن مواجهة وضع لا يطاق ، وأن تمحص طبيعته . وعليها ان تطرح جانبا الاوصاف المغرضة المتحيزة التي تُطوِّق بها عن توازنها وأخلاقيتها وجنسها ، وأن تصنع بنفسها حقيقة نفسها . عليها ان تكتشف هوية اعدائها في شخص الاطباء والاطباء النفسانيين والباحثين الاجتماعيين والمستشارين في شؤون الحياة الزوجية

والكهنة والقيّمين على الاخلاق. عليها ان تحلل سلوكها كمستهلكة، وحيلها وغشها مع نفسها ، وآلامها ، وعواطفها الحقيقية تجاه اولادها ، وماضيها ومستقبلها . وأقوى سند يمكنها الاعتماد عليه في مثل هذا المشروع هو ذاك الذي تقدمه لها أترابها . ولا يجوز ان تسمح لزوجها بأن يضعها موضع هزء وسخرية ، او بأن يفحمها ويثبط عزيمتها بحججه ، او ان تنخدع بمزاعمه عن براءته وبشهامة عروضه عن استعداده لان يأخذ بعين الاعتبار كل اقتراح «معقول» . وعليها اخيرا ان تستعيد ارادتها الخاصة وأهدافها الخاصة والجراة على فرضها . وقد يستدعي ذلك اقتراحات او مطالب «غير معقولة» .

لا يمكن ان نجد التفسير الكامل لاضطهاد المرأة ، كما تدعي تي ــ غريس اتكنسون ، في كون الرجال قد حلوا لغز الانجاب البيولوجي . فهم ، في الواقع ، لم يحلوا لغز الابوة . فمعلوم ان الاب لازم ، لكن غير معلوم كيف السبيل الى التحقق من هويته ، اللهم الا بطريقة سلبية . وقد عوضت النساء بملء ارادتهن عن إشكالية الأبوة هذه بتقديمهن بو فائهن ــ ربما بعد ان قسرهن على ذلك الحجر والمراقبة ــ ضمانة هوية الاب . اما وقد بات متعذرا اليوم حجر النساء ، ففي مقدورنا ان نسحب تلك الضمانة وأن نجعل الاسرة الابوية بحكم المستحيلة بدفاعنا عن أبوة الجماعة كلها : فالرجال جميعا آباء الاولاد جميعا . ولا يترتب على رفض ضمانة الأبوة هذا التخالط الجنسي بالضرورة ، وان بدا ان ذلك لا مفر منه في مرحلة اولى . فالعمل المؤقت الذي يسمح للسكرتيرة بأن تختار استخدامها يمكن ان يكون له مفعول ثوري وأن يرغم الرجال على الاعتراف بمساهمتهن في تشغيل المشروع . كذلك فان رفض النساء قصر أنفسهن على أحادية الزواج المطلقة وعلى التمسك بحبل الاخلاص والتفاني نظير ما تفعل الكلبات ، هذا الرفض قد يستوجب ان يقوم على اساس من تخالط جنسي فعلي .

ينبغي على النساء ايضا ان يرفضن دورهن كمستهلكات

رئيسيات في الاقتصاد الراسمالي . وبديهي انه من الرجعية الامتناع عن شراء ادوات التدبير المنزلي ، لان النتيجة الوحيدة لهذا الامتناع هي زيادة عمل المرأة والحجر عليها في البيت . لكن لو قبلت النساء بتقاسم آلة غاسلة مع عدد من العائلات من دون ان تساورهن الحاجة الى اقتناء آخر طراز يخترع منها ، لسددن ضربة قاصمة الى الصناعة . وبدلا من تأليب الاولاد على بعضهم بعضا ، يمكن حثهم على تقاسم الدمى والإلعاب التي تلقى في ركن منسي بمجرد ان يملوا منها . والاولاد ، بخلاف ما يتصوره الاهل ، لا ينفرون من مثل ذلك التقاسم . واني لأذكر ان اهلي ضربوني لانني اعطيت لُعَبي لغيري وأنا في الرابعة من العمر . ولا يحتاج الاولاد الى اللُعَب المرتفعة الثمن ، وفي وسع النساء ان يتجاهلن الاعلان الذي يجهد لابتزاز الملايين منهن في كل عيد ميلاد . وفي مقدورهن ايضا ان يقاومن تضخم اسعار مساحيق الغسيل بمقاومتهن اغراء التغليف Emballage وبشرائهن فلتا منتجات غير ذائعة الشهرة تجاريا . كذلك يسعهن شراء المنتجات الغذائية من المنتج مباشرة فيما لو اتحدن فيما بينهن لتحاشي الوسيط . ثم انه من الممكن الحصول على علاوة في الكمية في حال التشارك في الشراء . وعلى النساء ان يتغلبن على نفورهن من شراء الملابس والادوات المستعملة . وليس ثمة ما يمنع تقاسم ملابس الاولاد الذين يكبرون . وما كان الاولاد انفسهم ليعلقوا على ذلك كبير اهمية لولا وقوعهم بدورهم ضحايا الاعلان . وكثيرة هي الاسر العمالية التي تتبادل عربات الاطفال . ومن مزايا هذا التعاون انه يحطم عزلة الاسرة الفردية . لكن ما أضعه نصب عيني في المقام الاول امكانية تجنيب النساء الدور الذي يلعبنه حاليا كضحايا للاعلان وكصانعات رئيسيات للتبذير .

سيشق على غالبية النساء الامتناع عن كل تأنق ، على الرغم من ان العديد من حركات التحرر النسوي تحثهن على التخلص

من رثاث استرقاقي . والواقع ان الاستخدام الواعي والمتعمد لمواد التجميل بهدف ابراز المحاسن الطبيعية لا يتأتى عنه اي استلاب . بيد أن وظيفتها تصبح مشبوهة حين تتحول الى قناع غرضه اخفاء واقع يُرتأى بأنه قبيح ومنفر . فالنساء اللائي لا يجرؤن على الخروج بدون أهداب اصطناعية يشكين من اضطرابات نفسية خطيرة . وأغلى المنتجات ثمنا لا تختلف اختلافا جوهريا عن البخسة الثمن منها . ولا وجود لمرهم عجائبي يقدر فعلا على تجديد شباب الانسجة الهرمة . وتبقى الحمية والراحة افضل علاج جمالي ، ولا ينبغي استخدام وسائل التجميل الا على سبيل اللعب . وأفضلها وأرخصها ثمنا هي تلك التي تستخدم في الماكياج المسرحي . وأحسن مادة لتجميل العيون تبقى الكحل . وبدلا من شراء خلاصة الفحم الباهظة الكلفة المباعة تحت اسم اشهر الماركات الفرنسية ، تستطيع النساء ان يصنعن بأنفسهن عطورهن بواسطة كحول الكافور وخلاصة القرفة والبخور ومسحوق الخزامى (اللاوندة) وعشب البتشولي وماء الورد . وبدلا من اتباع الموضة ، تستطيع النساء ان يسرحن شعورهن على النحو الذي يوافقهن وبحسب مزاجهن ، وأن يتحاشين ان يفرضن على شعورهن تجعيدات لا تتماسك من تلقاء نفسها لانها مخالفة للطبيعة .

ان كفة هذه الميول قد بدأت ترجح . فالفتيات لا يلجأن بقدر أمهاتهن الى مصفف الشعر . وهن يزدرين الخياطة ، ويرتدين ما لهن رغبة في ارتدائه من الملابس المسرفة في طابعها الرومانسي الى ملابس الرجال الرياضية . كذلك فقدن الاهتمام بفن الاكل والطبخ . فالغالبية الكبرى منهن قد اعتادت على التغذي بما يقع تحت اليد من انواع الطعام اثناء فترة الدراسة ، وأرجح الظن انهن لن يخسرن من جديد هذا الاستقلال المكتسب ، وتصاعد موجة الاغذية المركبة وتخفيض الكمية ينمان عن تغير في الموقف من الطعام ومن تتجير المنتجات الغذائية . وما تزال هذه السمات

وقفا ، الى اليوم ، على اقلية ، لكنها اقلية اكثر تعدادا من مناضلات الحركة النسوية . والهدف المنشود من ورائها هو التحرر . ومن الممكن ان يقال ان لاعنف الهيبيين قد اخفق لان رجال الشرطة لم يترددوا في الرد على تقدماتهم من الزهور بضربات من هراواتهم، لكن القضية قد طرحت على بساط البحث، والجدال فيها لم يقفل بعد .

يبقى استبدال الاكراه بمبدأ اللذة الوسيلة الرئيسية لتحرر النساء . وقد امسى الطهي والتأنق في اللباس واستعمال مواد التجميل وتنظيف البيت وغيرها من المشاغل اكراهات حل فيها القلق منذ امد بعيد محل لذة المشروع الناجح . ومع ذلك ، فان تلك النشاطات قابلة لان تكون ضربا من التسلية . فجوهر اللذة هو الفطرة والعفوية . وهذا معناه انه ينبغي اطراح المعايير والضوابط واستبدالها بمبدأ تنظيم ذاتي . وسآخذ مثال العقاقير المسكّنة . فالنساء يستهلكن بالاكراه كميات كبيرة منها لتخفيف توترهن العصبي وأوجاعهن وقلقهن ، وينجم عن ذلك بالضرورة ظهور شكل محدد من التبعية والارتهان ، ويغدو من المستحيل تحديد ما اذا كان الدواء هو الذي يسبب ظهور الاعراض التي لم يُتناول الا بغية التخلص منها : فالانسان يصبح هنا سجين حلقة مفرغة . والمطلوب ، في موضوع الطعام على سبيل المثال ، ان يكون في الامكان اعداد الطبق الذي لنا رغبة في اعداده والذي يرغب الناس جميعا في اكله ، وأن نقدمه متى شئنا ، بدلا من ان نفعل ذلك في اطار برنامج اسبوعي او نفرض على انفسنا في كل وجبة ، وكعبء لا مناص منه ، قائمة متنوعة من الاطباق الجديدة والصعبة التنفيذ . ومن المعترف به بوجه عام ان روتين الاعباء المنزلية ضرب من الحلقة المفرغة ، وأن العمل يولّد المزيد من العمل ، وهكذا دواليك . وللخروج من مثل هذه الدوامة ، لا بد ان تنصرف المرأة الى عمل ذي طبيعة مغايرة تماما . ولا جدوى من فترات دورية من الحرية لانها تبقى جزءا لا يتجزأ من النظام .

كما ان معظم التسويات والحلول الوسطى لن تخفف الا بصفة مؤقتة من التوتر العصبي . ولهذا السبب نفسه لا فائدة من إدراج عمل تم اختياره بحرية ضمن اطار الحلقة المفرغة ، لان الحافز والطاقة يكونان فاسدين من الاساس . وزبدة الكلام، ليس من حل آخر سوى تحطيم الحلقة المفرغة .

يعتقد بعضهم ان هذه القطيعة ستحطم ايضا مركز الحلقة ، وستزج بالعالم في حالة من الفوضى . والحق ان الحرية تخيفنا، لكن هذا الخوف هو جزء من النظام ، ويساهم في استمرار الوضع القائم . واذا ما رفضت النساء قطبية المذكر والمؤنث ، فلا بد ان يقبلن بوجود المجازفة وامكانية الخطأ . والعزوف عن العبودية عزوف في الوقت نفسه عن ذلك الوهم المسمى بالامان. فالعالم لن يتغير بين ليلة وضحاها ، والتحرر ان يتم اذا لم تقبل النساء افراديا بأن يظهرن في أنظار القيّمين على النظام القائم بمظهر المنبوذات ، الغريبات الاطوار ، الشاذات . وقد وجدت في الماضي نساء أظهرن من الشجاعة اكثر مما يُطلب الينا اليوم ان نظهر ، نساء جازفن بكل شيء ولم يكسبن الا القليل ، لكنهن صمدن . ان النساء اللائي يحتججن على وضعهن يعرضن انفسهن لسخرية الصحافة ولاحتقار الاخريات اللائي يكسبن الكثير من المال ويحافظن على أنوثتهن . ولكنهن ، على كل حال ، لا يُحرقن كما في الماضي . ولا يجوز ان نتوقع ان تغدو النساء المصممات على التحرر متوازنات ، سعيدات ، مبدعات ، ومستعدات للتعاون بين عشية وضحاها . لكن الاعراض المخيفة لضياع الشخصية تتلاشى وتزول بوجه عام . وقد تستمر الحاجات والهواجس المصطنعة الوجود ، ولكن حقيقة طبيعتها تمسي معروفة وتتحملها اولئك النسوة بصحو فكر ، ولن يتجلى الموقف بكامل تعقيده الا متى وضع موضع مناقضة . وربما استولى على النساء الذعر ازاء السرعة التي ينسى بها رجال الشرطة الروادع الضميرية التي تنهى عن ضرب النساء ، وازاء عنف الاهانات التي تنهال عليهن ، لكن

ليس من شأن مثل هذه الاكتشافات الا ان تشد من عزائمهن وتصميمهن . ويكمن مفتاح استراتيجية التحرر في اظهار الموقف على حقيقته ، وأبسط طريقة لفعل ذلك هي معارضة الأحبار والخبراء بسفاهة اللغة والافعال ، وذلك عن طريق اللجوء الى «تهافت منطق النساء» المزعوم لتسليط باهر الاضواء على غرور الرجال وسخفهم وظلمهم . لقد كان سلاح المرأة التقليدي الدائم لسانها ، كما كان التكتيك الثوري الرئيسي نشر المعلومات . ويتوجب على النساء ، اليوم كما في الامس ، ان يرفضن الرضوخ واللجوء الى الحيلة ، لانه لا سبيل الى خدمة الحقيقة بالمواربة والاخفاء . والنساء اللائي يتصورن انهن يحكمن العالم بالمكر والزلفى بلهاوات ليس الا . وما تكتيك كهذا الا تكتيك عبيد .

من العسير ، في الطور الراهن ، رسم معالم نظام جنسي جديد . ونحن لا نحيا سوى مرة واحدة ، والمهم قبل كل شيء آخر العثور على الوسيلة القمينة بانقاذ هذه الحياة من ضروب العجز والقصور التي قيدتها بها حضارتنا . وعن طريق التجريب وحده يمكن فتح آفاق جديدة واكتشاف طريق للتطور ينطلق من الوضع القائم بصفته معطيته الاولى . والثورة النسائية هي بالضرورة ثورة موقفية . ولا يسعنا ان نزعم ان كل شيء سيجد حله يوم يفلح الاشتراكيون في الغاء الملكية الخاصة واقامة الملكية الجماعية لوسائل الانتاج . كما لا يسعنا ايضا الانتظار طويلا . وتحرر النساء ، اذا ما ألغى الاسرة الابوية ، فسيلغي كذلك بنية ضرورية للدولة الاستبدادية ، وانما يوم تختفي هذه الدولة تكون نظريات ماركس قد تحققت . لنبادر اذن الى العمل . وليوزع الرجال منشورات في المصانع التي صارت فيها البروليتاريا عبدة المشتريات بالتقسيط بدلا من ان تصير شيوعية . فوجود هذه العبودية يرتكز هو الآخر الى وظيفة المرأة الاستهلاكية في البيت . وتدل الاحصائيات على ان معظم المشتريات بالتقسيط تتم على أيدي اناس متزوجين . واذا ما شهرت النساء راية العصيان

والتمرد ، تبدل هذا الموقف . وتمثل النساء الطبقة التي ترزح تحت اكبر قدر من الاضطهاد ، طبقة من الشغيلات المربوطـات بعقد لمدى الحياة بلا تعويض . وليس من الاسراف وصفهن بأنهن عبدات . وهن يمثلن البروليتاريا الحقيقية الوحيدة التي ما تزال على قيد البقاء ، ويؤلفن في الوقت نفسه غالبية السكان . فلمَ لا يتمردن ؟ ان اضطهادهن ينتصب ، عمليا ، حائلا دون اتحادهن في جماعة متلاحمة ، قادرة على التصدي لسادتهن . بيـد ان الرجل ارتكب خطأ : فردا على تحريض ذي طابع اصلاحـي وانساني مبهم، قبل بالنساء في مضماري السياسة والمهن الحرة. ولقد كان على صواب من امرهم المحافظون الذين رأوا في ذلـك مساسا بحضارتنا ونهاية الدولة والزواج . ولقد آن الاوان لبدء عملية الهدم . ولا حاجة بنا الى الدخول في امتحان قوة . حسبنا ان نرفض التعاون في بناء النظام الذي يضطهدنا . وفي وسعنـا ايضا ان نمارس التحريض حيثما واتتنا الفرصة ، وأن نتظاهر ضد الحانات المحظر دخولها على النساء او ضد مسابقات الجمال، وأن نشكل لجانـا للاضراب ، وأن نقتحم وسائل الاتصـال الجماهيري ، وأن نفعل كل ما يعجبنا . وعلينا قبل كل شيء لا ان نرفض فعل بعض الاشياء بل أن نرفض ان تساورنا الرغبة فـي فعلها .

ان التجربة تكلف غاليا ، وغاليا جدا ، ولا يسعنا جميعنا ان نتزوج لنعرف حقيقة الامر . وعلى اخواننا الاكبـر سنا منا ان يطلعننا على ما اكتشفنه . علينا ان نتقاسم باستمرار التجربـة المكتسبة ، وأن نتحرز من اصدار أحكام متسرعة مشوبة بحب الظهور او متأثرة بمعايير مذكرة . علينا ان نناضل ضد الميل الى تكوين نخبة نسائية او مراتبيةهرمية من النمط المذكر في منظماتنا السياسية الخاصة بنا ، وأن ندافع عن التعاون ومبدأ الاخـوة الاومي . وليس من الضروري ان تلجأ نصيرات المرأة بغية تبرير سياستنا الى اقامة البرهان على ان الاومة شكل ما قبل تاريخي

لحياة الجماعة او على ان نظام الأبوة انحراف رأسمالي ، اذ ان شكل الحياة الذي تتطلع أنظارنا اليه يمكن ان يكون جديدا كل الجدة مثلما يمكن ان يكون سحيق القدم. ولسنا ملزمات بالاعتماد على انتروبولوجيا تحيط بها الشكوك والريَب حتى نشرح للآخرين ما نريده ، وان يكن في مقدور النساء اللواتي يملن الى التبحر في الدراسة ان يقمن بأبحاث نافعة حول دور النساء التاريخي بغية توضيح مفاهيمنا بخصوص ما هو طبيعي وممكن في المضمار النسائي . ان عددا متزايدا من النساء مستعد اليوم لإصاخة السمع . وقد آن الاوان ليبدأن ايضا بالتعبير عن انفسهن ، ولو بتردد وتقلب ، وليستمع العالم اليهن .

يبقى **فرح النضال** أفضل معيار لصحة الطريق المنتهج ، والثورة عيد المضطهَدين . ومن الممكن ألا تجني منها المرأة لأمد طويل من الزمن من نفع سوى استعادتها كرامتها واهتدائها الى مبرر للحياة . وليس الفرح مرحا ، وانما ينجم عن إنفاق متعمد للطاقة في مشروع تم اختياره بملء الحرية وينعكس أثر اختياره عزة في النفس وثقة بها . ويستتبع الفرح التواصل والتعاون مع الاخريات ، على اساس من المتعة التي تتأتى من صحبتهن . وأن تكونن ّ متحررات من العجز والعوز وأن تطأن الارض بحرية ، فذلك هو حقكن الطبيعي . ومن حقكن الطبيعي ايضا أن تنفضن عنكن المعوقات والالتواءات كيما تتملكن جسدكن وتتمتعن بملء طاقاته وتقبلن به بدالّة معاييره الطبيعية عن الجمال . ان يكون لكن ّ شيء تريدن فعله ، تتطلعن الى تحقيقه، شيء حقيقي وأصيل تصبون ّ الى تقديمه ومنحه . ان تكونَّ متحررات من الشعور بالذنب ، من الخجل ، من انضباط النساء الذاتي الذي لا يكل ولا يمل . ألا تعود بكن حاجة الى التصنع ، الى التكتم ، الى التزلف، الى المصانعة والمداهنة . أن تصبون ّ الى التحلي بفضائل الرجال في الشهامة والكرم والشجاعة . وهذا شيء يتخطى من بعيد مطلب الاجر المتساوي مقابل العمل المتساوي . شيء لا بد ان

تنجم عنه ثورة في شروط العمل . فليس لـ «تكافؤ الفرص» من معنى ، اذ من الواضح السافر ان هذه الفرص يجب ان تتغير بتمامها ، وأن تتغير روح المرأة بالذات كيما ترغب في الاستفادة من هذه الفرص بدلا من ان تخشاها وتهابها . وأول اكتشاف ذي مغزى نصل اليه على درب حريتنا هو ان الرجال ليسوا احرارا ، وأنهم يستنتجون من ذلك انه لا ينبغي لاحد ان يكون حرا. ولسنا نملك ان نرد الا بشيء واحد : ان العبيد يسترقون سادتهم ، ونحن بتحريرنا انفسنا سندلهم على الطريق التي يسعهم انتهاجها فيما لو ارادوا ان ينضوا عنهم ثوب عبوديتهم . ولسوف تحاول صاحبات الامتيازات من النساء ان تجندكن لمعركة الاصلاحات ، لكن الاصلاحات قد فات أوانها . فالمسار القديم يجب ان يمزق اربا اربا ، لا أن يرمم ويجدد . ولسوف تحضكن بالمقابل نساء ملوعات على الثورة، مع ان أعباءكن الحالية كثيرة بما فيه الكفاية.

فماذا ستفعلن ؟

الفصلان الاخيران من كتابها : «المرأة المخصية»

اغتصاب عادي للغاية ،
امبريالية مألوفة للغاية .

بقلم ماي

مع العودة من الاجازة الصيفية في ايلول من العام الماضي علمت عن طريق ملصقات جدارية ان الشغيلة المهاجرين المنتمين الى منتدى لهم في الحي الذي اقطن فيه مهددون بالطرد والابعاد. وقد تشكلت لجنة للحؤول دون ابعادهم . وكانت تضم هيئة المنتدى التي منها تتألف لجنة النضال ، وأنصارا خارجيين ومنهم تتألف لجنة الدعم . وكان بعض هؤلاء يقطن في الحي ، وبعضهم الآخر ينتمي الى منظمات سياسية يسارية : الحزب الاشتراكي ، الحزب الشيوعي ، الحزب الاشتراكي الموحد ، او الى منظمات ثورية ، كذلك كان بعضهم الثالث من الليبيراليين او اللامهتمين بالسياسة ...

وكان «هو» من ضمن اعضاء لجنة الدعم ، وكان مثلي من غير المنتمين الى المنتدى . وكان في اصله من مستعمرة فرنسية : من المارتينيك او الفوادولوب ؟ اما انا فأصلي من فيتنام ، وأنا اعيش في فرنسا . وقد عاش كلانا تحت الوصاية الاجنبية في مسقط رأسنا ، وعانى كلانا من الاستعمار .

اضف الى ذلك انني لست من اصل اجتماعي ميسور : فقد كان والدي عاملا ، وأسرتي كثيرة التعداد . وأنا أعمل في مكتب. وبحسب الهرم الاجتماعي ، لا املك «الاختصاص» الذي يؤهلني لان اكون من نخبة هذا المجتمع : مثقفة ، بورجوازية ... امـــا «هو» فكان طالبا جامعيا ، وهذا كل ما عرفته عنه .

وقد قام بيننا ضرب من التفاهم لانه كانت تجمع بيننا وجهات نظر مشتركة بصدد الامبريالية وبصدد الكفاح التحريري الـذي يخوضه الوطن الاصلي لكل منا . وفيما يتعلق بي ، كان هـــو المبادر الى التعرف الي اثناء اجتماع في المنتدى حين خاطبني بالقول : «بودي لو أتناقش معك حول فيتنام ، فأنت على ما أعتقد فيتنامية . ان نضال الشعب الفيتنامي ضد الامبريالية تجربـــة غنية بالنسبة الى البلدان التـــي ما تزال ترزح تحت النـــير الاجنبي ...» . أثار كلامه اهتمامي ، فقبلت عــن حسن نية ، وختمت محادثتنا بالقول : «سنلتقي بعد الاجتماع» .

حين خرجنا من ذلك الاجتماع ، ذهبنا الى المقهى كـــي نتناقش . ولم نتناقش طويلا حول ذلك الموضوع ، وسرعان مـــا ادركت ان طلبه النقاش حول الموضوع المشار اليـــه لم يكن الا ذريعة مناسبة لاقتناصي .

تناول يدي ، ووجدها «دافئة» ، وقرّب مقعده من مقعدي، وحاول ان يقبلني . اربكتني حركته ، فما تجرأت على صـــده بعنف . وأفهمته انني لا أقبل تمهيداته لاقامة علاقة بيننا ، وذلك بسحبي يدي من يده المرة تلو الاخرى وبصدي محاولته تقبيلي .

لكنه ألح وأصر على الرغم من كل شيء ، اذ قال بينه وبين نفسه ولا بد : «سينتهي بها الامر الى ان توافق» . ودخلت معه عندئذ في نقاش حول موضوع اقتناص النساء ، لافتة نظره الى ان الرجال يجدون ، بغية الاقتناص ، ألف ذريعة لعقد الصلات مع النساء بنية «مضاجعتهن» ، وضربت له مثالي الشخصي : فقد اراد اقتناصي تحت ستار مناقشتي حول فيتنام ، وخان بذلك ثقتي؛ ولفتُ نظره الى ان النساء في أنظار الرجال مجرد مواضيع جنسية (وهذه لازمة قديمة يعرفها الجميع) ، وأنه لما كانت لـه وجهة نظر ثورية حول نضالات التحرز ضد قوى القمع والاضطهاد فحري به ان يأخذ في اعتباره ما تعانيه النساء من اضطهاد نوعي في المجتمع الراهن .

وأفهمني انه لا وجود ، من جهة اولى ، لتضاد بين الرجال والنساء بخصوص الجنس ، وانه من المفروض فيّ ان أتجاوز وجهة النظر تلك (كون المرأة موضوعا جنسيا) ، وقال ان «الجنس محرِّر» وانه «لا يجوز ان اقع في استلاب النزعة النضاليـــة» (كذا) ؛ وأن اضطهاد النساء ، من جهة ثانية ، قائم في الاضطهاد الطبقي ــ وهذه لازمة قديمة يرددها المحاربون الطبقيون في كل مرة تتشكى فيها النساء من كونهن مضطهدات ، لازمة من هذا القبيل : «لا عليك يا حلوتي ، فالثورة ستعوضك أضعافـا مضاعفة» (هذه ، على كل حال ، لازمة واحدة من اولى الاغاني المكتوبة في «حركة تحرر النساء») .

وفهمت ، طبقا لشروحه ، ان الجنس بين الرجال والنساء ليس مشكلة سياسية تندرج في عداد المشكلات الطبقية ، وانه في نظره مشكلة لا وجود لها : فهو ظاهرة مستقلة لانه حاجـة فيزيولوجية أولية لا يجوز اهمالها «بعد النضال في سبيـل الثورة» ــ استراحة المغوار ــ وانني اذا كنت ما ازال أعتبر نفسي موضوعا جنسيا ، فهذا معناه انني متأخرة على هذا الصعيد . اما تحرر النساء ، ثانيا ، فسيتم من تلقاء نفسه بعد تحرر الطبقات

المضطهَدة . وعلى النساء بالتالي ان يصبرن الى ذلك اليوم لانه لا مناص من ان تحررنا الثورة بعد ذلك ــ عليهن ان يصبرن نزولا عند مقتضيات المبدأ الكبير الذي ينص على ان المعركة الرئيسية تتقدم على المعركة الثانوية . واذا كان الرجال يضطهدون النساء، فالتبعة انما تقع على الرأسمال الذي يستغلهم ، وهكذا دواليك..

جواب ماركسي جاهز يقدمه المناضلون الى النساء اللائي يتساءلن عن علة اضطهادهن في المجتمع الرأسمالي وعن كيفية التصدي له . لكن هذا الجواب غير قابل للتطبيق الا على النساء البروليتاريات ، اذ انهم يقولون : «العامل يضطهد المرأة (أمه ، او زوجته ، او ابنته) لانه يعاني هو نفسه من اضطهاد رب عمله» . اما النساء البورجوازيات اللائي لا يعشن في نفس الشروط الحياتية التي تعيش فيها النساء البروليتاريات ، فهن غير معترف بهن . لكننا نعلم ان النساء ، وفقا لـ «القيم الاجتماعية» ، غير معترف بهن الا من خلال الوضع الاجتماعي للرجل ، أزوجا كان ام ابا : «انها زوجة او ابنة فلان» . وفي كلتا الحالتين ، نحن ملك لهم (١) . فالطبقة السائدة تقسم المستغلين بتراتبها الاجتماعي ؛

---

١ ــ انجلز في «اصل الاسرة» :

«في الاقتصاد البيتي الشيوعي القديم ، الذي كان يشمل عددا كبيرا من الاسر الزوجية مع اولادها ، كانت ادارة هذا الاقتصاد ، المعهود بها الى النساء، ضربا من النشاط الاجتماعي الضروري للمجتمع ، شأنها في ذلك شأن تحصيل وسائل المعاش من قبل الرجال . ولكن الوضع تغير منذ ظهور الاسرة البطريركية، ولاسيما منذ ظهور الاسرة الفردية القائمة على الزواج الاحادي . فقد فقدت ادارة الاقتصاد البيتي طابعها الاجتماعي . ولم يعد امرها يعني المجتمع ؛ وصارت خدمة خاصة؛ وأمست الزوجة الخادمة الاولى ، ونحيت عن المشاركة في الانتاج الأجتماعي . والصناعة الكبيرة في ايامنا هي التي فتحت من جديد ــ وأمام =

والنظام الابوي يقسم هو الآخر النساء فيما بينهن : نســـــاء البروليتاريين ونساء البورجوازيين .

وقد كان من رأيه «هو» ، على كل حال ، انه من الطبيعي ان يكون الرجال هم المبادرين الى مغازلة النساء ما دامت النساء لا يبادرن الى ذلك . فلا مناص من ان يقوم احد الطرفين بالخطوة الاولى (وتشاء الصدفة على الدوام ألا تكون المرأة هي التي تقوم بها) .

وقد اعتبر تلك المقابلة الاولى مرحلة اولى ، اتفاقا يفتــرض فيه ان يعطيه فيما بعد الحق في «مضاجعتي» رغمـــا عني ، اذ وصفها بأنها مغازلة امام اللجنة يوم تدخلت نساء «حركة تحرر النساء» للتنديد باغتصابي . وهذا مع انني تناقشت معه يومئذ حول موضوع اقتناص النساء واضطهادهن ، مما يجعلني أرفض سياسته الذكورية ازاء النساء . كان حوارنا هادئا وغير متوتر ، وهكذا كان بالاصل رد فعلي حياله منذ ان ادركت انه يسعى الى

= المرأة البروليتارية فقط ـ طريق الانتاج الاجتماعي ؛ ولكن في شروط اذا ما قامت معها المرأة بأداء واجباتها الخاصة في خدمة الاسرة ، بقيت خارج الانتاج الاجتماعي وعجزت عن تحصيل أي أجر ؛ واذا ما شاءت ، بالمقابل ، ان تشارك في النشاط الاجتماعي وأن تحصل على أجر خاص بها ، عجزت عن اداء واجباتها العائلية . ذلك هو وضع المرأة في جميع فروع النشاط ، سواء أفي مضمار الطب والمحاماة ام في المصنع (والمكتب) . **ان الاسرة الزوجية الحديثة تقوم على عبودية المرأة البيتية ، على نحو سافر او مقنع ، وما المجتمع الحالي الا كتلــة تتالف بوجه الحصر من أسر زوجية هي لها بمثابة جزيئات** . وفي ايامنا هذه ، يتعين على الزوج ، في غالبية الاحوال ، ان يكون سند الاسرة ومعيلها ، علــى الاقل في بيئة الطبقات المالكة ، وهذا ما يضمن له سيادة لا يحتاج الى تدعيمها بـــأي امتياز قانوني خاص . **فالرجل في الاسرة هو البورجوازي ، بينما تؤدي المرأة دور البروليتاريا »** .

اقتناصي . وقد وجهوا الي اللوم فيما بعد على انني لم أحسن التصرف . فقد كان في وسعي ، على سبيل المثال ، ان ابدي قدرا اكبر من الفظاظة حتى يكون موقفا واضحا لا يحتمل التباسا .

ان الرجل يقتنص ، ايا يكن المكان والظرف ، وسواء سار الامر او لم يسر ، ويكون هو اول من يفرض نفسه ، وانما على ارض الرجل ستقرر المرأة ان تقبل او ترفض . أليس هذا شكلا من الامبريالية ؟

حاول فيما بعد ان يعود الى رؤيتي ، لكنني في كل مرة كنت ارفض . وفي نهاية الامر تثبطت همته ولم يسألني شيئا اثناء الاجتماعات التالية . ولم أره ثانية في اللجنة لحقبة من الزمن ؛ وكان ذلك موضوع تندر بيني وبين زميلتين أخريين كان قد حاول اقتناصهما بدورهما تحت ستار ذرائع اخرى، سياسية بالطبع ! : الفصل من المنتدى ، فيتنام ، ومواضيع اخرى برسم خداعنا .

ذات يوم ، طرق بابي . فتحت له ليدخل ، وما كان بوسعي ان أفعل شيئا آخر ما دمت أثق به بقدر او بآخر . قلت في نفسي ، اولا ، انه فهم انني أرفض ان اقيم معه علاقة غرامية ، وانه ربما كان لديه ، ثانيا ، معلومات محددة يريد ان ينقلها الي بصدد الفصل من المنتدى . وتبادلنا الاخبار ، ولفتّ نظره الى انني مضطرة الى الخروج لتناول العشاء على عجل كي أحضر اجتماعا . وفي اللحظة التي هممت فيها بالمغادرة «انتقل الى الهجوم» .

ارغمني على تقبيله ، فصددته ، وبنرفزة كبيرة عقدت العزم على افهامه حقيقة موقفي بجلاء تام . قلت له : «أتعرف ، لقد سئمت حركاتك ، وانا لست الوحيدة» ، وأخبرته من أقصد بذلك : الزميلتين الاخريين اللتين يعرف . فأجابني : «ما معنى ذلك ؟ االآن الاخريين تريان هذا الرأي تعتقدين ان عليك ان

تحذي حذوهما ؟ ان هذه لـ «ذيلية غبية» » ! واجبتـــه بدوري: «ذيلية ؟ ألا تراني اهلا لان احكم بنفسي على موقفك كقناص ؟ » .

وبدءاً من تلك اللحظة رحت أعاكس وأتحدى وجهة نظره عن وضع النساء وموقفه كقناص نساء، دامغة اياهما بـ«الامبريالية». وبالفعل ، كان في سبيله الى ارغامي على ان اكون ملكا له رغمــا عني ، مثلما يفعل امبريالي معتدٍ في بلد اجنبي يريد امتلاكه ؛ وأقمت موازاة بين الاضطهاد الذي تعاني منه النساء والاضطهاد الذي تقاسي منه الشعوب المستعمَرة على النحو التالي :

● يستفيد الرجال من النساء مثلما يستفيـــد الامبريالــي المستغل من البلد المستعمَر .

● أما على الصعيد الجنسي ، فاما ان النساء مضلـــــلات بالايديولوجيا البورجوازية ، فيجعلن من انفسهن مواضيع جنسية «في خدمة الرجال» ، وإما انهن اذا عقدن العزم على الخروج من هذا التضليل والنضال «ضد الاضطهاد» ، وجدن انفسهن منظورا اليهن من قبل المناضلين اليساريين علـى انهن جنس قابـــل للاستهلاك . فمن جهة كما من الاخرى ، يخضعوننا لرغائبهم .

● فضلا عن ذلك تعاني النساء ، نسبة الى الرجال ، مـــن فرط استغلال ، وهن غير ممثلات تمثيلا كافيا من وجهة النظــر الاجتماعية . فغالبيتهن تقع على كواهلهن أعباء ثانوية يتأبى عنها الرجال : في البيت ، في العمل ، وحتى في المهام النضالية . وعدم تخصص النساء يدر لمن يستغلهن ربحا كثيرا ، مثله أصلا مثل عمل الشغيلة المهاجرين . والمناصب القيادية في هذا العالم ليست من نصيبهن البتة ، وهي لم تُنشأ بحال من الاحوال من اجلهن ، ولا كن هن وراء انشائها .

● تتطور البلدان الغنية على حساب البلدان المستعمَرة عن طريق مراكمة الثروات التي امتصتها منها وتوظيفها وتثميرها . كذلك يتطور الرجال على حساب النساء باقتنائهـــم المعارف الضرورية للابداع والخلق .

ان النساء لا يبدعن ولا يخلقن ، اللهم عدا الاولاد ، وهو النشاط الابداعي الوحيد الذي يُعترف به لهن . وما كن هن السباقات الى الابداع لا في الفن ، ولا في الموسيقى ، ولا في العلم او التكنولوجيا او الصناعة او التجارة ، الخ ... ومع ذلك ، انما بفضل بطونهن يمكن لأي مجتمع ان يوجد ، فهن له بمثابة القاعدة والاساس . وانطلاقا مما انجبن او مما يمكن ان ينجبن يتم تقرير (الرجال يقررون) «السياسة» ونمط الانتاج والدفاع . انهم يخططون خصبهن ، كما يخطط لقطر من الاقطار في المكان والزمان . والمظهر الرئيسي هو ما يفعله الرجال ، سواء أكانوا فاشيين ام ثوريين ، وما يرتؤون ان فيه صلاحا وخيرا للانسانية قاطبة ، تبعا لمعايير متباينة ، في الظروف التاريخية المحددة . اما المظهر الثانوي فهو وضع النساء الناجم عن تلك الوقائع التاريخية . فهن لا يُسألن رأيا ، او لا يقام لهذا الرأي وزن ، اذ ان الرجال يفكرون ويحسبون حساب المستقبل نيابة عنهن . انهن يشكلن ، بالنسبة اليهم ، المادة الاولى للتفكير.

انهم يدينون (الرجال يدينون) قرار المرأة بالاجهاض بوصفه عملا لاأخلاقيا ومجرما ، لكنهم يخترعون (الرجال يخترعون) بلا وازع من ضمير جميع صنوف الوسائل الضارة بالجنس البشري، تحت ستار الدفاع عن حق فرد او مجموعة من الافراد في العيش . ومن ثم ، فان القرار الذي يحدد ما اذا كان جنين من الاجنة سيرى او لن يرى النور في مجتمع يسيره ويصممه الرجال يعتبر ، بالاستنتاج ، اعظم اهمية من صنع وسائل اجرامية للذود عن «بقاء الانسان» .

لقد تجاوزت ميزانية البنتاغون في الولايات المتحدة اثناء الحرب الفيتنامية من بعيد ، بل بما لا يقاس ، ميزانية الابحاث في مضمار وسائل منع الحمل والاجهاض (الفتاة الصغيرة تلعب بالعرائس ، والصبي الصغير يلعب لعبة الحرب) . وقد كلف صنع

طائرة ب ٥٢ واحدة بقدر الاعتماد المخصص للابحاث في مضمار تلك الوسائل .

ان القيم الثقافية السائدة الموجودة مذكرة ، وذلك ما دامت «الحضارة» ابوية ، الحضارة التي يعترف بها التاريخ . وبنيـة اللغة المنطوقة بالذات اضطهادية : فالغلبة في القواعد للمذكر على المؤنث .

ورد علي معترضا بأن التوازي بين اضطهاد النساء واضطهاد الشعوب المستعمَرة لا معنى له وضرب من «الغباء» سياسيـــا (بالبداهة !) . وانحى علي باللائمة لانني متأثرة بـ «افكار حركـة تحرر النساء» عن صفة المرأة كموضوع جنسي ــ خيل الي ، في حمى الحوار ، انني سمعته يقول : «جميعكن عاهرات» . ما كان يفهم رفضي . قلت له انني لا ازمع ان اضع نفسي تحت تصرف شهوته ، وان لا رغبة لي في «مضاجعته» . وبصدد كلمة «شهوة» قال انها «فكرة بورجوازية» (كذا !) . وذكرته بأنه لم تساورنـي قط نية اقامة علاقة غرامية معه .

قال لي (مفترضا ان ترددي على «حركـــــة تحرر النساء» يجعلني مفتوحة الفخذين على الدوام) :

ــ انت لست عذراء . فلمَ كل هذا الاخذ والرد ؟

ولما ادرك ان معارضتي له لا تزداد الا حدة ، اردف يقـــول بلغته الجنسوية : «مومس ــ عاهرة ــ قحبة» . ورددت عليه بأن هذه الالفاظ الجنسوية تعادل في نظري الالفاظ العنصرية التالية: «زنجي قذر او عربي قذر او يهودي قذر ــ ما اكره رائحتهم ، ما أقذرهم ، الخ ...» .

وقدح وجهه شررا : فأنا أتأبى عليه . وهــذا شيء لا يطيق له احتمالا . فبصفته رجلا ، كان يعرض علي امكانيـــــة وشرف «مضاجعته» (ملاطفات يبذلها الرجال للنساء من قبيل المغازلة) . وناهيك عن ذلك ، كنت أمثل في نظره ، على اعتبار انني غـــير «عذراء» ، **حقا في الدخول المجاني** .

قلت له وانا أتميز غيظا : «يجب ان تذهب ، فقد تأخرت بما فيه الكفاية» . فسحب بعنف مباغت يدي من فوق قبضة الباب قائلا لي : «لا أريد ان يسخر مني احد . انا لست شيئا (كذا !!) ليلعب بي» (كان رفضي يجرح رجولته) . فأجبته انه شيء يدعو الى الاسف ان تجري الامور بيننا على هذا النحو . وبالفعل ، لم اكن أتخيل ان هكذا ستكون مقابلتنا ، وكنت أتصور ان العلاقة بيننا كانت ستختلف لولا سوء نيته . وانتهز سانحة تلك الهدأة ، واقترب مني ليودعني ، ثم انقض علي . دفعني وحصرني عند مغسلة المطبخ وقبلني بالقوة ، وبيده اقتحم فرجي . في تلك اللحظة المحددة علمت انه شرع بالاغتصاب الفعلي ، فقلت له : «تريد اغتصابي لتعاقبني على اذلالي اياك» . لم يجب بشيء . أمرني بالدخول الى غرفة النوم ، فرفضت . فحملني ، فتمسكت بالجدار ، ورحت أصيح مستنجدة ، ورمى بي على السرير ، ومنعني من الصراخ قائلا : «ليس من صالحك أن تصرخي» .

لم أرد بالعنف على عنفه الجسدي ، لانني ، ككل امرأة ، خضعت لعملية مشارطة ثقافية جعلت مني كائنا غير عدواني ، كائنا «وديعا وطيعا» بالاحرى . والنساء اللائي يدافعن عن انفسهن جسمانيا يخرجن عادة من المعركة ، اللهم الا اذا كن متعادلات القوة ، لا مغتصبات فحسب ، بل مرضوضات ومجروحات ايضا. وعلى كل الاحوال ، انهن مقتنعات كل الاقتناع بضعفهن الجسماني وبعدم قدرتهن على القتال الى حد انهن يواجهن فعل الاغتصاب ب «سلبية» . وهذا ما حدث لي. وعندئذ اعتبر سلبيتي موافقة .

قال لي : «اخلعي ثيابك ، عجلي» . اجبته : «لا ، لن أخلع ثيابي» ـ «أمهلك ثلاث ثوان لتفعلي» ـ «ليس في نيتي أن اطيع، وعلى كل الاحوال ستفعل ما ستفعله لانك راغب في اغتصابي».

وأثناء ذلك ، كان قد «اخذ راحته تماما» .

ان القضيب ، في حالة الاغتصاب عن طريق الاعتداء هذه ، يعادل بندقية ، سلاحا لإرغام الطرف الآخر على التسليم . كنت ارفض سياسته في السيطرة والهيمنة ، لكنني كنت بلا سلاح .

قال لي : «آه ! ما زلت ترفضين ، لكنكن تحببن ذلك (انهن يتظاهرن بالتأبي ، لكنهن في صميمهن يحببن أن يغتصبن . فالاغتصاب يعود عليهن باللذة !) » .

قلت له : «عليك بالجماع المبتور» .

ــ ما معنى ذلك ، لست انت التي تأمريتني ، الا تتناولين اقراص منع الحمل ؟

ــ كلا ، لا اتناولها .

ان منع الحمل والاجهاض الحرين والمجانيين يعنيان في نظر الفالوقراطيين (٢) التمتع الحر بجسد المرأة ، ويحررانهم فضلا عن ذلك من الشعور بالذنب تجاههن . ومن هنا ، فان تضامن الرجال مع النساء في الحملة من اجل حرية ومجانية وسائل منع الحمل والاجهاض يمكن ان يوحي بقيام المساواة الجنسية ، لكن ليس كذلك هو واقع الامر ، لان علاقات السائد ــ المسود تبقى قائمة .

حين يهتف الرجال في المظاهرات نيابة عن النساء وباسم النساء : «حرية ومجانية منع الحمل والاجهاض» ، ينبغي على النساء ان يفهمن من ذلك : «حرية ومجانية الاغتصاب ومنع الحمل والاجهاض» .

كنت أعلم ان رغبته هي ان يلجني بالقوة، وكنت اخشى العنف في سلوكه . قلت له : «ستفعل ذلك برفق» ، فأجابني : «آه ، بدءا من هذه اللحظة تبدأن بالتفكير بالشيء» (يسألننا في نهاية

---

٢ ــ كقولنا بيروقراطية وديموقراطية . نسبة الى «فالوس» وهو باليونانية عضو الذكورة . والفالوقراطية هي حكم اصحاب القضبان . «م»

الامر ، وبعد كل تلك التعقيدات ، عن الكيفية التي يمكن بها ضمان الالتذاذ لهن) .

ونال لذته . وأثناء الفعل الجنسي ، وجد رفضي لرغبته الامبريالية ترجمته في البرود الارادي . وسألني فيما بعد عما اذا كنت قد التذذت ، اقتناعا منه بأنه منحني لذة ، حتى وان كنت على خلاف معه .

انه لاغتصاب ان تنكر على المرأة حرية قبول العلاقة او رفضها .

ان الجنسية السائدة هي الجنسية المذكرة . والرجال يغتصبون النساء بسبب سياسة السيطرة الجنسية تلك .

ان الامبريالي المعتدي يغتصب حرية الحياة والحق فيها لشعب من الشعوب : يحتل ارضه بالقوة ويمارس العنف ضمانا لسيطرته . كذلك يغتصب الرجل جسد المرأة ضمانا لسيطرته عليها .

كان يمتلك جسدي كما تفتح ارض ويستولى عليها بالعنف ، وكان يريد ان يعاقبني لانني قاومت سياسته المذكرة في السيطرة . ان السلطة هي على رأس القضيب ، وقد أكد لي ذلك باغتصابي ، مثبتا بذلك «رجولته الفاشية» .

حين غادرني قال لي : «آمل ألا تكني لي الضغينة ، على كل الاحوال ، انها لا تسوي الامور» . كان يقر باغتصابه .

سواء رفضت المرأة او قبلت رغبة الرجل الجنسية، لا مناص من ان يفرض الرجل نفسه في منطقه السياسي ، وعلينا نحن ان نتحمله .

ان نيكسون ، ممثل اميركا الكبرى ، لا يقبل ان يعارض بلد صغير مثل فيتنام سياسته . وازاء مقاومة الشعب الفيتنامي التي لا يستطيع ان يطيقها ، يقرر معاقبته بقصفه بالطيران .

ان الاغتصاب هو النتيجة المنطقية للتفكير المذكر الذي يزدري

المرأة : الجنسوية . وتقتيل الكائنات البشرية هو النتيجة المنطقية للتفكير الفاشي الذي يزدري الشعوب : العرقية .

كان الاجتماع ، الذي كان من المفروض في ان اذهب لحضوره ، مخصصا لمشكلة العرقية ؛ وكان يحضره أعضاء لجنة نضال الشغيلة المهاجرين ضد الفصل والابعاد . فكيف السبيل الى طرح مشكلة الجنسوية فيه ، والغالبية فيه مؤلفة من رجال؟

كنت ابغي ان أفضح الشاب على مستوى اللجنة ، لكني كنت اخشى ثأرا من جانبه فأتردد . وما كان كونه أسود ليمنعني من فضحه ، فأنا نفسي فيتنامية ، ولا سبيل بالتالي الى اتهامي بأنني عرقية . وحين حادثت بعض اعضاء اللجنة في الموضوع ، ابدوا جميعهم موافقتهم على طرده ، ولكن ذلك كان يعني في نظري عقابا على غلطة ؛ اما موقفه كمغتصب فليس موضوع بحث. وعليه ، قررت مع بضع نساء من «حركة تحرر النساء» ان أتكلم في اجتماع للجنة لأفضحه ولأطرح المشكلة التالية : «كيف يمكن للمرء ان يكون في آن واحد ثوريا ومغتصبا ؟» .

يوم تطوعت لمؤازرة النضال ضد الفصل والابعاد ، كنت قد فعلت ذلك بصفة شخصية . فكيف أتدخل للكلام عن فعل اغتصاب ، في داخل منظمة سياسية يسارية تنادي ب «النضال ضد الاضطهاد» ؟ لم يكن حضوري في اللجنة بوصفي ممثلة ل «حركة تحرر النساء» ، ومع ذلك عقدت العزم على اطلاع نساء «ح.ت.ن» على الامر لان ذلك الاغتصاب يعني النساء جميعا .

كان من المؤكد اننا لو تجاوزنا اطار الفضح والتنديد في داخل المنتدى ، وعلى مستوى الشغيلة الافارقة الذين يحيون بين ظهراني مجتمع ابيض ، لجاء رد الفعل اتهامنا بالعرقية ، لأن الاغتصاب انما ارتكبه اسود . وكان من الممكن بالنسبة الي ان يكون اي رجل كان ، وأيا يكن لون جلده ووضعه الاجتماعي . وعليه ، فقد قبلت اللجنة ان أتكلم عما حدث ، وقد جرى كل

شيء على ما يرام على ذلك المستوى . ان نساء مناضلات في منظمات ثورية لشغيلة مهاجرين يقعن ضحايا اغتصاب على أيدي مناضلين مهاجرين، ويحظر عليهن الكلام عن فعل اغتصابهن بحجة ان ذلك يلحق ضررا بالنضال ضد العرقية ؛ وعلى النضال ضد الجنسوية ان يترك الاولوية للنضال ضد العرقية ، نزولا عند مقتضيات العلاقة بين النضال الرئيسي والنضال الثانوي ، فعلى سبيل المثال ، اغتصبت امرأة من قبل مناضل عربي في عمارة مأهولة في ذلك الحي نفسه ؛ لكنها لم تستطع فضح اغتصابها لأن المناضل كان عربي الاصل .

ان النساء اللائي يرفضن عروض رجل أسود ، او آسيوي، او غيره ، يدمغن للحال بالعرقية . اما انا فنظرا الى انني امرأة بيضاء ولا اتمتع بـ «المؤهلات» اللازمة لإلصاق تلك التهمة بي ، فما استطاع ان يقول لي : «انت ترفضين النوم معي لانك عرقية» . وبالمقابل ، كنت أتمتع بمؤهلات ظاهرة لكي يدخلني في الوقت الذي يريد : «ما انت براهبة ولا بعذراء» . وهذه حجة جنسوية يستخدمها الرجل حين يشتهي المرأة ، لا اكثر ولا أقل.

في يوم مداخلة نساء «ح.ت.ن» في احد اجتماعات اللجنة ، تلي بيان صحفي يندد باغتصاب امرأة آسيوية (فيتنامية) تطوعت لمؤازرة نضال الشغيلة المهاجرين من قبل رجل يزعم نفسه «مناضلا ثوريا» : وهذا الرجل أسود ، وكونه أسود لا يشكل بالنسبة الينا سببا لالتزام الصمت حول ما نعانيه من اضطهاد لم يعان مثيله اي عرق وأي طبقة .

عند تلاوة البيان ، رد السود بعنف على المبادرة النسوية التي تندد باغتصاب اقترفه رجل اسود في مجتمع ابيض . وجاء رد فعلهم ، كما هو متوقع ، ضد ما يعتبرونه عرقية ، مثلما كان سيجيء رد فعل النساء على الافكار الجنسوية التي يعتنقها الرجال . سأضرب بعض أمثلة : كنت أعبر شارعا فمر رجل

بجانبي وقال لي : «هل تريدين ان تلعبي معي دق نكاح» . وفي نفق للمترو ، وقف في مواجهتي رجل ولمس فرجي قائلا لي : «ما اجمله من قط صغير» . او هذا التعليق الذي تلقته زميلة لي حين رفضت عروض رجل كان يتحرش بها : «لك عينـــان مثل ثقب القضيب» . او : «يجب ان نعاملكن كالكلبات : الاغتصاب هو ما تستأهلنه» . علما بأن هذا الكلام انما كان يصدر عن رجال بيض. وهذا يؤدي بالنسبة الى الاوائل (السود) الى الابتزازات العرقية ضد عرقهم ، والى الثانيات (النساء) الى الابتزازات الجنسوية ضد جنسهن . وقد اوضحت ، على كل حال ، انني عانيت ايضا من العرقية بوصفي آسيوية تحيا في بيئة للبيض . وردي على العرقية كما على الجنسوية واحد .

لقد اعتبرونا مأفونات لاننا دافعنا عن قضيتنا في وســـط اولئك المضطهَدين . قذف يساري ابيض كلامه في وجوهنا : «عليكن بالصمت ايتها الطاهيات» . فالنساء في نظر ذلـــك الجنسوي كائنات دنيا لانهن نساء ؛ تماما كما يقذف العرقـــي السود بنعت «العبيد»، معتبرا ان السود ادنى من البيض ، لمجرد انهم سود . وكان ذلك اليساري عضوا في اللجنة المناهضـــة للعرقية .

ثم صدرت عن قادة ثوريين التعليقات التالية :

ــ «الكلام عن الاغتصاب في هذا الاطار يلحق ضررا بالنضال الرئيسي للشغيلة المهاجرين ، النضال ضد الابعاد وضد العرقية» (الرجال اولا ، ثم النساء) .

لكن تحت الاسود او تحت المهاجر او تحت العامل الابيض ، توجد ايضا امرأة تضطهَد .

ــ «الاغتصاب قضية فرد مع فرد ، ولا يمس مشكـــلات الجماعة» (في نظر ثوريين يميزون بين مظهر الحياة السياسية ومظهر الحياة الخاصة ! وهم يعتبرون نضال النساء ضـــد

الاغتصاب مناهضا للثورة بقدر ما يضع في قفص الاتهام المسالك الفردية للثوريين المشار اليهم) .

ان الاغتصاب ، بكل بساطة ، ليس «مشكلة سياسية» .

يقر الثوريون بالظلم الطبقي والعرقي. اما الظلم بين الجنسين فلا وجود له : فالسلطة التي يمارسها الذكر على المرأة غير معترف بها . انهم يعترفون بالنضال ضد هرمية العمل وتقسيم العمل اليدوي والعمل الفكري ، لكنهم صم عم خرس بصدد التقسيم الجنسي للعمل بين الرجال والنساء : في الشغل او في البيت او في المهام النضالية . بل اكثر من ذلك ، فهم حين يعترفون في برنامجهم السياسي بوضع النساء في المجتمعات كمستغلات ، يفضلون ان يناضلوا خارج بيوتهم من اجل قضية المضطهدين ، نزولا ايضا عند مقتضيات النضال الرئيسي، ويواصلون الاستفادة من العمل البيتي او السكرتيري لزوجاتهم او أمهاتهم او عشيقاتهم. انهم يزعمون انهم يناضلون في سبيل تحرر الانسانية قاطبة ، لكنهم يضطهدون يوميا ، بلا وازع من ضمير ، نصفها .

اما جهلهم بوجود الاضطهاد الجنسي الذي تعاني منه النساء، فمرده بلا ريب الى انه لا البابا ماركس ، ولا لينين ، ولا ستالين ، ولا تروتسكي ، ولا غيفارا ، ولا فيدل كاسترو ، ولا هوشي منه ، ولا ماو ... هم من الجنس المؤنث ؛ فهؤلاء لا يستشفون ، في نظرياتهم عن الاضطهاد، وجود «اضطهاد الرحم» (وهذا بديهي ، اذ لا وجود له عندهم) .

اما الشاب ، الذي لم يكن قد تكلم حتى الان ، فقد استغل لحظة تضامن الرجال تلك ضدنا ليبرر موقفه امام اللجنة بتصريحه قائلا : «انني لم اغتصب هذه المرأة ، اذ كنا قد تغازلنا في يوم سابق في المقهى (في تصوره ، كان ذلك يعني ان النقاش في المقهى كان مرحلة تمهيدية للدعوة الى العلاقة الجنسية : فعلى الرغم من انها قاومت في البداية اقتراحي ، فان الامر سينتهي بها الى القبول) . وعلى كل الاحوال ، ما هي براهبة ولا بعذراء» .

هنا تكمن نزعته الجنسوية في الاقرار بوجوب احترام العذراء وبامكان استغلال المرأة التي لم تعد عذراء اذ يكون قد سبق لها ان خدمت رجالا آخرين . العذراء او البغي : ليس للنساء من كيان آخر .

ونشرنا بعد ذلك بيانين صحفيين ، الاول في **ليبيراسيون** ، والثاني كان عبارة عن تصويب لما كتبه جان دانييل في افتتاحيته في **لو نوفيل اوبسرفاتور** مشوها طبيعة الوقائع ومحاكما الامور على النحو التالي : «مناقشة في مكتبتي ، في المجلة : فقد روى محرر خبر فتاة من **ح.ت.ن** ، قدمت لتؤازر في مهرجان خطابي قضية شغيلة مهاجرين ، فخطفت ثم اغتصبت من قبل عامل اسود . فقال احد المحررين بحماسة : «هذا خبر لـ«مينوت» (٣). وقال آخر : «لقد عززنا الستالينية باهتمامنا باستغلال اعدائها لنقاط ضعفنا» . وفي الواقع ، تقع أفعال اغتصاب في كل يوم ، ومرتكبوها هم من البيض ، فما الداعي الى الكلام عن ذلك الاغتصاب بالتحديد ؟ ألا تكفينا العرقية ضد اليهود وضد العرب؟ ان فتاة **ح.ت.ن** تريدنا أن نبين ان المراة المساواتية فيها هي التي اعتدي عليها من قبل رجل «جنسوي» كان يمكن ان يكون اي رجل آخر . ولكنه ، والحق يقال ، عامل «مستلب» . انني أحلم بالمثقفين السنغاليين، اصدقائي ، الذين كانوا يكيلون الثناء امامي لتعدد الزوجات ، في العام الماضي ، على ضفاف نهر كازامانس ...» .

وقد فهمنا من ذلك ان :

ـ جان دانييل يعتبرنا عرقيات لان مجموعة من النساء اخترن فعل اغتصاب ارتكبه اسود كي يتكلمن عنه علنا ، بينما تقع افعال

---

٣ ـ اسبوعية فرنسية يمينية . «م»

اغتصاب يومية ، ومرتكبوها هم من البيض ؛ والحال اننا نعلم جميعا ، نساء ورجالا ، أن أفعال الاغتصاب تلك تعتبر من الاخبار الصحفية العادية التي لا تستوقف النظر .

ــ وهذه ، على حد قوله ، عرقية اخرى تنضاف الى تلك القائمة اصلا ، والخطيرة فعلا ، ضد العرب واليهود .

لقد ألقى علينا ، من جهة اولى ، درسا اذ شبهنا بالعرقيين ، لكنه لم يتوان ، من الجهة الثانية ، عن ابداء ازدرائه للنساء : «فتاة من ح.ت.ن خُطفت واغتصبت من قبل عامل اسود ــ ان فتاة ح.ت.ن تريدنا ان نبين ان المرأة المساواتية فيها هي التي اعتدي عليها من قبل رجل «جنسوي» كان يمكن ان يكون اي رجل آخر». انه اذن لخبر مثير وأخاذ بالنسبة الى دوره كصحفي ان تختطف فتاة من ح.ت.ن وأن تغتصب من قبل عامل مستلب. وهكذا يعرب جان دانييل عن ازدرائه كمثقف وبورجوازي (عرقية طبقية) للعمال : «لكنه ، والحق يقال ، عامل مستلب . انني أحلم بالمثقفين السنغاليين ، اصدقائي ، الذين كانوا يكيلون الثناء امامي لتعدد الزوجات ، في العام الماضي ، على ضفاف نهر كازامانس ... » .

يريد جان دانييل ان يفهمنا وأن يجعلنا نعتقد ان الاغتصاب هو في اقصى الاحوال من فعل «عمال مبلدين» ، وأنه من المستبعد أن يصدر عن مثقفين وبورجوازيين (كان الشاب طالبا جامعيا) . وبالفعل ، ان هؤلاء الاخيرين يملكون وسائل «أمكر» لتمويه ما قد يرتكبونه من أفعال اغتصاب : المال ، على سبيل المثال ، بالنسبة الى البورجوازي ، والوسائل الفكرية بالنسبة الى المثقف ، بما فيه المثقف اليساري ، كحظر الكلام عن أفعال الاغتصاب علنا وجهارا اذا كان مرتكبوها من الملونين ، بحجة ان ذلك يؤجج نار العرقية التي يعانون منها اصلا .

وظهرت بعد ذلك في **ليبراسيون** ردود على مقالنا الذي يندد بذلك الاغتصاب . وكان من بين الذين ردوا سارتر ، وقد

أفصح عن موقفه بصدد مشكلة الجنسية العدوانية التي يمارسها الرجال .

وقد دار آخرون حول النقاط التالية :

١ ـ «ما الداعي الى تخصيص الكلام عن اغتصاب ارتكبه أسود او مهاجر ؟» ، واتهمونا بالتالي بالعرقية لاننا نددنا به علنا. هناك تركيز اذن على المظهر «العرقي» للمشكلة ، وتجاهل في الوقت نفسه لكوني آسيوية ، ولست بيضاء . علما بأن الضحية لم تختر لا لون المعتدي عليها ولا وضعه الاجتماعي . وبالمقابل لم تأخذ محاكمة النيات هذه بعين الاعتبار رغبة الضحية والنساء الاخريات في لفت الانتباه الى الاغتصاب الذي ارتكبه رجل من اي عرق او طبقة كان ، لفضح عمله العدواني وموقفه ، في داخل تنظيمه السياسي الهادف الى تحرير المضطهَدين من السيطرة والاستغلال .

وكان ذلك ايضا رد الفعل شبه الاجماعي لأناس اعرفهم من ذوي الميول اليسارية ، كتلك المرأة التي قالت :

ـ لمَ الكلام علنا عن اغتصاب ارتكبه اسود ؟

ـ لا فرق بين فضح فعله الاغتصابي امام منظمته السياسية او امام الشرطة .

ـ الرجل لا يغتصب المرأة اذا لم تستفزه .

وهذا يقود الى الاستنتاج :

ـ يجب ان يكون للنساء ، علاوة على الردف المتحرر لتلبية رغبات الرجال الجنسية ، ردف متحرر لمسامحة المعتدي اذا كان ينتمي الى عرق او الى طبقة مضطهَدة ، وللزوم الصمت بعد الاغتصاب .

ـ وهي ترى ان عمل نساء ح.ت.ن كان مناهضا للثورة ، بقدر ما وضعت مداخلتهن في قفص الاتهام المسالك الفردية للثوريين ضمن اطار عملهم السياسي .

ـ وهي «تطالب» للرجال الثوريين بالحق في اغتصاب النساء اللائي يقاومنهم .

ب ـ «الكلام عن اغتصاب مناضل لمناضلة يعني «بصراحة» التطرق الى المسألة من وجهة نظر ضيقة وجزئية اكثر بكثير مما ينبغي» . وكان عنوان المقال **«ليسوا بالقليلين الذين مروا عليها»**. وقد لفت انتباه القارئات ، بوجه خاص ، والقراء الى البؤس الجنسي الذي يعاني منه الفتيان في المدينة بسبب «نقص النساء» . فقد اغتصبت فتاة من قبل عصابة من الغلمان ، وكان احدهم قيد المحاكمة بتهمة الاغتصاب في اثناء المقابلة . وقد تحدث الغلام عن الامر على النحو التالي : «ما كنت لأفعل ذلك مع فتاة أعرفها . ليس الامر بخطير ، فقد كانت قبيحة ، ثم انها اخبرتنا ان ليسوا بالقليلين الذين مروا عليها . لا وجود لبنات لنا في المدينة . والظريفات منهن يخرجن مع الفتيان الذين يملكون سيارات . هناك نقص في النساء . ليس هناك سوى قلة من الفتيات اللواتي يمر عليهن الجميع» .

ويلي ذلك رأي الصحفي العامل في **ليبيراسيون** الذي قدم تأييده وتفهمه للمشكلة الضميرية التي طرحها عليه الغلام : «ماذا يجب ان اقول بصدد هذه المقابلة ، انا الذي أجراها ؟ لقد استمعت بعطف وبهدوء ، بنفس الهدوء الذي كلمني به الغلام... والزملاء الذين اطلعتهم على ما كتبت ابتسموا وناقشوا بدورهم بهدوء ما كتبت . أهو تواطؤ ؟ في هذه الحال يجب ان نفهم اننا جميعا فكرنا في وقت من الاوقات او تكلمنا بمثل ما كلمني به ، وبنفس العبارات المقرفة . جميعنا قلنا ، بدرجات مختلفة : «هناك نقص في النساء» . **هذا امر واقع . وأن يؤخذ او لا يؤخذ بعين الاعتبار** ، فتلك هي المشكلة . ان الكلام عن اغتصاب مناضل لمناضلة امر مثير للاهتمام ، لكنه يعني التطرق الى المسألة من وجهة نظر ضيقة وجزئية اكثر بكثير مما ينبغي ...» .

ان هذا النداء المؤثر الذي اطلقه المحرر في **ليبيراسيون** لرفع

معنويات الرجال الذين يحاكمون على ما اقترفوه من أفعال اغتصاب سيفيد ، بلا شك ، في هز افئدة بعض النساء وفي حضهن على حل هذه المعضلة الاجتماعية البالغة الدقة التي يعيشها اولئك الرجال يوميا : «نقص النساء» . واذا طبقت كلمات ذلك النداء ، تعين ان تتحول النساء المتفهمات الى «جيش خلاص» في خدمتهم .

وتداركا لتلك الفاقة عن طريق وضع المزيد من النساء تحت تصرفهم ، سيغدو الاغتصاب «حرا ومجانيا» . فهل ذلك هو التحرر الجنسي الذي يفكر به الرجال للنساء ؟

***

حين يدور الكلام عن الاغتصاب ، لا يُرى سوى المظهر الجنسي من الفعل ذاته ، لكن لا تؤخذ بعين الاعتبار سياسة الرجل الجنسية العدوانية تجاه المرأة ، لان الجنسية المذكرة تسيطر بوجه عام على الجنسية المؤنثة . فلو كنت قبلت رغبته بدون مقاومة ظاهرة ، لما كان اعتبر اغتصابا (لكنه اغتصاب راض من قبل المرأة) . ان الاغتصاب لا يقر به اغتصابا الا اذا اخذت المرأة بالعنف . وفي الحق ، لقد جرى تمثل واستبطان للمبدأ الذي ينص على ان المرأة يجب ان تتبع الرجل ، وان المرأة في هذه الحالة المحددة يجب ان تتقبل رغبة الرجل . تلك المرأة التي صاحت ، يوم فضح الاغتصاب امام اللجنة ، لتدافع عن رغبة الرجال الجنسية : «لماذا تثيرين قصة حول هذا الاغتصاب العادي جدا ؟ انني أتعرض للاغتصاب يوميا من قبل رب عملي . ان ذلك يحدث على مستوى الجنس فحسب . علما بأن هناك أمورا أهم تجب معالجتها» . وأبدت امرأة اخرى موافقتها على فضح

الاغتصاب ، لمعاقبته (قبل يوم المداخلة) ، لكنها سلمت بحق الرجل في الاغتصاب بقولها : «ليغتصب امرأة من خارج اللجنة. ما كان عليه ان يختار واحدة من هنا» . وأردفت اخرى : «اذا كان الرجل قد اغتصب المرأة ، فهذا لانها سعت الى ذلك . ان الرجل لا يغتصب المرأة اذا لم تستفزه» ، الخ (هذه آراء نساء يساريات) .

يرى المناضلون اليساريون ان الرجل الذي يستغله رب عمله يستغل المرأة . لكن هل يقرون ، بالمقابل ، بأن هذا الرجل المستغَل اذا اغتصب المرأة فمرد ذلك الى ان رب عمله قد اشتهاه جنسيا واغتصبه ؟

لقد كان خطئي انني لم أفكر ضمن التفكير المذكر الذي يجري التوكيد باستمرار على انه أصح وأصدق من التفكير المؤنث . لقد عرفوا كيف يجدون تفسيرا للاستغلال الطبقي : جماعة من الافراد تستغل جماعة اخرى من الافراد باحتكارها وسائل الانتاج على ظهر المستغَلين وبدفاعها عن احتكارها بكل الوسائل الممكنة . واللفظ بالذات يشير الى ذلك : استغلال الانسان للانسان . وبالمقابل ، لم يعثروا على تفسير لكون الجنس المذكر يسيطر ، في ظل حضارة ابوية قائمة منذ «بداية البشرية» ، على الجنس المؤنث . ومع ذلك نجد وجهة النظر التالية لدى انجلز في **اصل الاسرة :**

«ان اول تقسيم للعمل هو تقسيمه بين الرجل والمرأة برسم التناسل . وأول تناقض طبقي يظهر في التاريخ يتوافق مع تطور التصارع بين الرجل والمرأة في الزواج الفردي ، وأول اضطهاد طبقي يتوافق مع اضطهاد الجنس المذكر للجنس المؤنث» .

ان العائق الذي كبل النساء هو اضطرارهن الى تحمل أعباء الحمل والى تربية اولادهن بأنفسهن وعجزهن عن المشاركة في الانتاج مشاركة كاملة ، ومن هنا كان ارتهانهن بأعمال تدور حول

الامومة والبيت وبالاشغال الاقل مشقة من غيرها والمناسبة اوضعهن كنساء . وقد لبث هذا المبدأ قائما وتعزز في زمن سيطرة الرجال على النساء . وباعتيادهن على هذا النمط من الاشغال «غير الرجولية» ، لم يتح لهن لا الوقت ولا الامكانية للتفكير وللابداع . ان المستغَلين لا يملكون لا الامكانية المادية والفكرية ولا الوقت ، لان شروط عملهم لا تسمح لهم بالتطور .

ان اضطهاد النساء ليس له الوزن ذاته الى جانب اضطهاد طبقة او عرق واقعين تحت السيطرة . ثمة وزنان ومكيالان . فتحت «المضطهَد» الذي هو اسم مذكر ـ هكذا ينبغي ان يفهم الامر ـ توجد امراة اكثر اضطهادا منه، وهذا ايا يكن العرق او الطبقة الرازحان تحت الاضطهاد .

ان المقارنة بين الفعل العدواني المتمثل في الاغتصاب وبين العدوان المسلح لقطر امبريالي على قطر رازح تحت السيطرة ، لا تفسر الاضطهاد النسائي في مظاهره كافة . لكن الفعل العدواني واحد في نظري : فهو بالنسبة الى الامبريالية هيمنتها على سياسة القطر الرازح تحت السيطرة ، وهو بالنسبة الى الرجل «الامبريالية المذكرة» على جسم المراة وروحها ؛ التفكير والعمل نيابة عنها وباسمها ، وفي حالة الاغتصاب الجنسي ، العدوان على جسدها .

ـ «ان هذيان الرجال المرضي ، هذيان السلطان والعنف ، لهو في صميم المشكلات: والجنس هو في صميم المشكلات جميعا. ومحاربتنا للجنسوية كمحاربتنا للعرقية احقاق لحقوقنا في مواجهة اهل اليمين المتطرف وأهل اليسار المتطرف على حد سواء ، وإشهار للتضامن فيما بيننا وإنصاف لأنفسنا بأنفسنا ، وتحقيق الثورة النسوية ، الثورة الوحيدة في التاريخ التي تخترق الطبقة والعرق والقومية لتجمع وتوحد بين اولئك اللواتي

يعانين من الاضطهاد اكثر من اي فئة اخرى وبين مضطهَدي العالم » .

(مقتطف من البيان الصحفي الذي تلي يوم مداخلة نساء ح.ت.ن في اللجنة بصدد الاغتصاب) .

لقد كان لمفعول الاستعمار في فيتنام الجنوبية أثره فيّ. فقد تعرضت لعملية «مثاقفة» واستئصال جذور . وانه لأمر غريب للغاية ان تشعر المرأة بأنها «غريبة» في جلدها لانها اعتنقت ، رغما عنها ، القيم الثقافية للامبريالية الغربية .

وانه لشيء غريب ايضا ان يتعين علي ، بوصفي امرأة في المجتمع ، ان اخضع للايديولوجيا المذكرة وللايديولوجيا البورجوازية .

انني ارفض امبريالية هاتين الايديولوجيتين كي أستعيد نفسي وأهتدي الى طريقي . انني ارفض ان يفكروا ويحكموا نيابة عني وبدلا مني . ارفض ان أفعل مثلهم ، عن طريقهم ، وعلى النحو الذي يشاؤون . تماما كما يتعين على شعب رازح تحت السيطرة ان يكافح الايديولوجيا الامبريالية الاجنبية .

ان وضع المرأة نسبة الى الرجل هو كوضع الاسود المستعمَر نسبة الى الابيض ، وكوضع العامل نسبة الى رب عمله . انها لا وجود لها الا في حالة تبعية .

قالت نساء : الشعب الرازح تحت السيطرة يناضل ضد الامبريالية ، والعامل يناضل ضد رب عمله ، والمرأة تناضل ضد كل مضطهِد .

ان على الشعب الفيتنامي او كل شعب رازح تحت السيطرة ان يكافح امبريالية الاجنبي كي يسترد هويته واستقلاله . وعلى النساء ، كي يستردن هويتهن واستقلالهن ، أن يكافحن الامبريالية المذكرة .

فلا شيء **أثمن من حرية واستقلال** (هو شي منه) **النساء .**

عن «الازمنة الحديثة»
«النساء يعاندن»
عدد خاص
نيسان ـ ايار ١٩٧٤

الفرويدية والثورة الجنسية المضادة

كيت ميليت

تلبية لحاجات المجتمعات المحافظة ولسكان يقفون موقف العداء او موقف الحيرة الشديدة ازاء فكرة اخضاع الحياة الاجتماعية لتغيرات ثورية وادخال تعديلات جذرية على الوحدات القاعدية نظير الاسرة ، دلف الى سدة المسرح موكب من الانبياء الجدد ليلبس المذهب القديم القائل بالتمييز بين الجنسين زيا محدثا : اللغة العلمية .

وكان الذي لعب بين الجميع اكبر دور وترك اعظم الاثر ومثّل بلا مراء اقوى عامل فردي مضاد للثورة على صعيد السياسة الجنسية ، هو سيغموند فرويد . فعلى الرغم مما عرفته نظرياته في الجنس في انكلترا وفي البر الاوروبي من شعبية وشهرة ، فانها لم تحظ قط ولا تحظى الى يومنا هذا بمثل النفوذ الذي تحظى به في الولايات المتحدة . فتأثير فرويد

في اميركا يكاد يستعصي على كل حساب ، وهذا القطر ، الذي كان من اكثر من منظور المركز الاول للثورة الجنسية ، يبدو اليوم وكأنه لا يستطيع استغناء عنه . وعلى الرغم من ان نتاج فرويد ، ونتاج تلامذته ، وعلى الاخص نتاج شراحه المبسطين ، يعتبر بوجه عام مثالا للاندفاع الليبيرالي نحو الحرية الجنسية ، وعلى الرغم مما ينسب اليه من فضل في المساهمة بقسط هائل في تخفيف حدة النواهي الطهرانية التقليدية ، فقد كان أثره وضع قواعد عقلانية للعلاقة المقيتة بين الجنسين ، وتبرير توزيع الادوار ، والحكم بصحة فوارق الطباع والامزجة .

وتشاء سخرية القدر شبه المأساوية ان تتخذ اكتشافات الرائد الكبير ، الذي تشكل نظرياته في اللاوعي وفي الجنسية الطفلية اسهاما مرموقا في تفهم الانسان ، ذريعة لتأييد وجهة نظر محافظة في الاساس والجوهر. اما بالنسبة الى هدف الثورة الجنسية ، الذي كان تحرير النساء من حالة التبعية التقليدية ، فان الطرح الفرويدي قد وضع على العكس في خدمة موقف مضاد بشراسة للثورة . وعلى الرغم من ان النتائج المؤسفة لتبسيطِ نتاج فرويد وتعميمه قد تجاوزت من بعيد نيات فرويد نفسه ، فان نتاج ذلك العالِم ليس بريئا من نزعة العداء للمرأة .

قال فرويد ذات يوم لطلابه ، في ساعة من ساعات التواضع والحيرة : «اذا اردتم ان تعرفوا المزيد عن الانوثة ، فعليكم بسؤال تجربتكم الخاصة ، او توجهوا الى الشعراء ، او انتظروا بالاحرى ان يقتدر العلم على ان يقدم لنا معلومات اعمق وأكثر اتساقا»(١). وفي مرة تالية ، اعترف لماري بونابرت : «ان السؤال الاكبر الذي

---

١ ــ فرويد : «الإنوثة» في «مطالعات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي» (١٩٣٣) ، الطبعة الاميركية ، نيويورك ١٩٦٤ .

لم يُجل قط والذي لم أتمكن من الاجابة عليه ، على الرغم من ثلاثين سنة قضيتها في البحث في نفسية المرأة ، هو : ماذا ترغب فيه المرأة ؟» (٢) . وازاء هذه الحيرة وهذا الشك ، فانه لأمر يدعو للاسف حقا ان يكون فرويد قد أصر على التوغل بعيدا في مضمار انشاء علم نفس للمرأة .

ان المأساة الحقيقية لعلم النفس الفرويدي تكمن ، في أرجح الظن ، في ان تأويلاته الخداعة للطبع النسوي كانت تستند الى ملاحظات سريرية ذات قيمة كبيرة جدا . اذ ان المريضات اللائي كن يبحثن عن تحليل نفسي كن (وما زلن في معظم الاحوال) «نساء عصرهن اللامتكيفات» ، اولئك اللائي كن يفصحن ، على حد وصف فيولا كلاين البليغ ، عن «شعور ذائع الانتشار ، بله عام ، بعدم الرضى ازاء الدور الجنسي (المعين لأترابهن)» :

> «شعور كان يعبر عن نفسه بمشاعر نقص دونية ، بازدراء لجنسهن ، بتمرد على سلبية دورهن ، بغيرة على الحريات الاوسع نطاقا الممنوحة للرجل ، بطموح في معادلته على الصعيد الفكري او الفني ، برغبة في الاستقلال ... وبجملة من الحيل والخدع الرامية الى التعويض عن الاجحاف الاجتماعي المرتبط بعدم كونهن من الرجال» (٣) .

وفي اثناء قيام فرويد بأعماله السريرية ، امكن له ان يلاحظ

---

٢ ــ فرويد : في رسالة الى ماري بونابرت ، نقلا عن ارنست جونز : «حياة سيغموند فرويد وعمله» ، نيويورك ١٩٥٣ ، المجلد ٢ ، ص ٤٢١ .

٣ ــ فيولا كلاين : «الطبع النسوي : تاريخ ايديولوجيا» ، لندن ١٩٤٦ ، ص ٧٢ ــ ٧٣ .

نساء ترجع أوجاعهن الى علتين : الكف الجنسي (البالغ احيانا درجة من الشدة تتسبب في ظهور أعراض خطيرة كالهستيريا) وشعور جارف بعدم الرضى ناجم عن وضعهن الاجتماعي . وبوجه عام ، كان يميل ميلا شديدا الى القاء تبعة العلة الثانية على الاولى، والى التوصية بتفتح المرأة الجنسي كدواء ناجع قادر على ان يشفي ما كان في الواقع اعراضا اساسية لتململ اجتماعي في اطار ثقافة اضطهادية .

- ١ -

علينا ان نتساءل ، ونحن نعيد النظر في نظريات فرويد عن النساء ، لا عن الاستنتاجات التي خلص اليها من الوقائع التي كانت في متناوله فحسب ، بل ايضا عن الفرضيات التي بناها عليها . ففي نظر فرويد كانت أعراض مريضاته تعبر لا عن عدم رضى يبرره الوضع المقيد الذي كان يفرضه عليهن المجتمع ، وانما عن ميل عام ومستقل للطبع النسوي [٤] . وقد عمد هذا الميل باسم «شهوة القضيب» ، واكتشف أصوله في التجربة الطفلية ، وبنى عليه علم نفس المرأة ، راصفا فوقه ما كان يعتبره اللوازم الثلاث للجنسية النسوية ــ السلبية ، المازوخية ، النرجسية ــ بحيث ان كل مظهر من مظاهرها يرتبط او يتصل بشهوة القضيب .

وبما ان الاساس الذي قام عليه التأويل الفرويدي للشخصية

---

٤ ــ هنا يختلف منهج فرويد عظيم الاختلاف عن الموقف الليبرالي والانساني الذي كان يقفه ازاء المرضى الشاكين من الكف الجنسي .

النسوية هو فكرة شهوة القضيب ، فان هذه الفكرة تستأهل ان تعرض بالتفصيل ، ولو على حساب بعض التكرار (٥) . ومن البداية ، يأتي تعريف المرأة سلبيا : فما هي كائنة عليه انما ينجم من انها ليست رجلا ومن انه «ينقصها» قضيب . وفي نظر فرويد انه عندما تكتشف البنت الصغيرة جنسها ، فان اكتشافها هذا يكون بمثابة كارثة رهيبة تتسلط عليها طوال حياتها وتعين الى حد كبير طبعها . والتصور الفرويدي ، الذي ينبع منه بوجه عام كل علم النفس وكل التحليل النفسي الحديثين ، مبني على تجربة مأساوية اولى : رؤيتها للنور كامرأة . وبصدد هذه النقطة ، يفترض بفرويد انه اكتفى بنقل المعلومات التي قدمتها اليه النساء انفسهن ، اي الزبونات اللواتي زودنه بمعطياته السريرية التي جعلها اساسا لتعميماته المقبلة عن علم نفس المرأة . وهكذا كان يعتقد انه قد أتيحت له الامكانية ليلاحظ بنفسه كيف تقبل النساء بفكرة ان ولادة الواحدة منهن كامرأة تعني ولادتها «مخصية» :

«كما يتضح لنا من الابحاث التحليلية النفسية ،

---

٥ ـ انظر على الاخص : «الانوثة» . فبعد ان يستعمل ألفاظا مجافية سافرة مثل «التفوق الظاهر للجهاز المذكر» (ص ١٢٦) و«دونية البظر» (ص١٢٧) و«قصور المرأة من حيث الاعضاء التناسلية» (ص ١٣٢) و«دونيتها الجنسية الاصلية» (ص ١٣٢) ، يؤكد لجمهور المستمعين اليه بأن شهوة القضيب هي اساس كل نظريته في علم نفس المرأة . ثم يحذره من ان ابداء اعتراضات على هذه الفرضية يعني تقويض النظرية برمتها : «اذا ارتأيتم ان فكرتي مغرقة في الخيال واذا نعتم اقتناعي بأهمية غياب القضيب في التكوين النسوي بأنها فكرة ثابتة ، فانني بالطبع لا املك اي دفاع» (ص ١٣٢) . ويجدر بي ان انوه بأنني أدين ، في نقدي لافكار فرويد عن النساء ، بالشيء الكثير لنص غير منشور لفرانسز كام .

تقدر النساء ان اجحافا يلحق بهن منذ الطفولة الاولى، ويرتثين بأنهن محرومات ومغبونات من دون ان يستأهلن ذلك؛ والمرارة التي تخامر الكثيرات من البنات حيال والداتهن تتأتى ، في التحليل الاخير ، من أنهن يأخذن عليهن كونهن قد انجبنهن في عالم النساء لا في عالم الرجال» (٦) .

على فرض ان هذا صحيح ، فمن المهم بلا جدال ان نتساءل لماذا كذلك هي الحال . فإما ان الرجولة هي **بذاتها** ظاهرة عليا ، وفي هذه الحال يجب ان يكون في الامكان تقديم الدليل على ذلك واثباته اختباريا ، واما ان المراة تخطىء في الحكم عليها وتستنتج خطلا انها دون الرجل . وهنا ايضا لا بد من البحث عن السبب . فما هي ، في مضمار تجربتها او مجتمعها او التدجين الاجتماعي الذي اخضعت له ، القوى التي قادتها الى اعتبار نفسها كائنا ادنى ؟ يبدو ان الجواب ينبغي البحث عنه في نطاق المجتمع الابوي والوضع الدوني الذي يخص به النساء فيه . غير ان فرويد آثر الا يسلك هذا الطريق ، واختار على العكس مبحثا لعلم امراض التجربة الطفلية مبنيا على الواقع البيولوجي ، واقع الفوارق التشريحية بين الجنسين .

ولئن يكن من دواعي الاسف البالغ ان يكون فرويد قد اختار اسقاط الفرضية الاجتماعية من حسابه ، مع انها اقرب الى الصحة ، وآثر تركيز اهتمامه كله على التواءات الذاتية الطفلية ،

---

٦ ــ فرويد : «بعض الانماط الطبيعية المعاينة في العمل التحليلي النفسي» (١٩١٥) في «مقالات مجموعة لسيغموند فرويد» ، تقديم جوان ريفيير ، نيويورك ١٩٥٩ ، م٤ ، ص ٣٢٣ .

فقد كان من الممكن مع ذلك ان يتمخض تحليله عن فائدة جلى لو التزم بقدر كاف من الموضوعية ليقر بأن المرأة تولد امرأة في ظل حضارة يسيطر عليها الرجال ويدفعون بها الى سحب قيمها لتشمل ، في ما تشمل ، ميدان التشريح بالذات ، بحيث تمتلك المقدرة على تقليد الظواهر البيولوجية قوة رمزية . وثمة تواز يفرض نفسه : فنحن نفهم ان رضة ولادة المرء أسود في مجتمع ابيض عرقي تقلد لون الجلد قيمة رمزية ، ولكن ذلك لا يعلمنا شيئا عن الخصائص العرقية بما هي كذلك .

ان فرويد ، في الوقت الذي يرفض فيه وضع عدم الرضى النسائي في سياقه الحضاري الارحب نطاقا ويحصر نفسه بتجربة طفولته الاولى ، واذ يفترض وجود عقدة خصاء لدى المرأة يتواقت ظهورها مع اكتشاف البنت الصغيرة للفوارق التشريحية بين الجنسين ، قد تجاهل ايضا السياق الاجتماعي للطفولة . لقد خيل اليه انه وجد مفتاح التجربة النسائية في لحظة ذلك «الاكتشاف الفاصل» الذي لا مفر من ان تمر به البنت الصغيرة : فهي «تلحظ قضيب اخ لها او زميل في اللعب ، قضيبا كبيرا ولافتا للنظر ، وتتعرفه بمثل لمع البرق في تفوقه على جهازها التناسلي الخاص بها ، الصغير واللامرئي ، وابتداء من تلك اللحظة تطفق تغار منه وتحسده» (٧) .

ان هذا الكلام ينطوي على عدة مسلمات غير مفسرة : فلماذا نفترض ان البنت الصغيرة ستؤخذ للحال بفكرة ان ما هو اكبر افضل ؟ ألا يسعها ان تقول في دخيلة نفسها بمثل ذلك اليسر ، وبسذاجة النرجسية الطفلية ، ان القضيب زائدة فطرية ، وأن تعتبر ان جسمها هو المعيار ؟ على هذا النحو يأتي اصلا رد فعل

---

٧ ـ فرويد : «بعض النتائج السيكولوجية للتباين التشريحي بين الجنسين» .

الصبيان ، كما يبين ذلك فرويد بجلاء : فبدلا من ان يستنتجوا من ذلك الاكتشاف الجنسي ان جسمهم غريب « يشيحون باشمئزاز او بازدراء ظافر عن تلك المخلوقة الشوهاء المبتورة»(٨). ناهيك عن ذلك ، فان ذلك التفوق الذي تقر به البنت الصغيرة ، على ما يقال لنا ، «بمثل لمع البرق» للقضيب ، يفترض فيه انه مرتبط بالتلبيات الايروسية الذاتية للطفولة ؛ والحال ان التجربة الطفلية لا تؤيد البتة ، هنا ايضا ، هذه الفرضية .

ترتكز النظرية الفرويدية الى حد كبير الى لحظة الاكتشاف تلك ؛ وان المرء ليذهل اذ يلاحظ مدى تشابه هذه المأساة الخاصة المتمثلة بالنسبة الى المرأة في شهوة القضيب ، في معالمها الاساسية ، مع اسطورة **السقوط** الذي تحمل المرأة تبعته (٩) . فكل من الذكر والانثى يبدأ في مرحلة الطفولة بسكنى بستان فردوسي تقبل فيه الادوار – فاعل ومنفعل ، مذكر ومؤنث – التعاوض . والى حين تلك اللحظة الرهيبة – لحظة الخطيئة – التي تكتشف فيها المرأة دونيتها وخصاءها ، يطلب الينا ان نصدق انها كانت تعتبر بظرها قضيبا . وبودنا لو نعلم لماذا . فبحسب اعتقاد فرويد ، يعود السبب في ذلك الى انها كانت تستخدمه للاستمناء ؛ فتخلص البنت الى الاستنتاج ، في

---

٨ – المصدر نفسه .

٩ – من جهة ، يحمل آدم في جنبه شرف كونه ذكرا وثقته بالانتماء الى نوع اعلى . ومن الجهة الثانية ، يرغمه خوف الخصاء المتولد فيه لدى رؤيته «المخلوقة الشوهاء المبتورة» على قمع شهواته الاوديبية (خشية انتقام اب يتوعده بالخصاء) . وفي ختام هذه السيرورة يتطور انا اعلى قوي ، دليلا على ما كان فرويد يسميه التفوق المحتم والمتعالي للذكر في المضمار الاخلاقي والثقافي .

اعتقاده ايضا ، بأن خير عضو يصلح لذلك الفرض هو القضيب ولا بد . ويصر فرويد على تسمية هذا الطور من الايروسية الذاتية البظرية بالطور «الاحليلي» .

ينبغي اخيرا انتمحص الظروف التي يتم فيها ذلك الاكتشاف الذي سيسمم ، اذا ما صدقنا فرويد ، حياة المرأة بأسرها : ففي معظم الاحوال تكتشف البنت الصغيرة وجود القضيب اثناء مشاهدتها صبيا صغيرا يبول او يغتسل . لكن فرويد لا يفسر لنا لماذا ستستنتج من ذلك منطقيا انهذا العضو يفيد في الاستمناء. بل حتى اذا سلمنا فرضا بأن القضيب تبدى لها المرة الاولى اثناء ألعاب ايروسية ، فان مسلمة فرويد القائلة ان ذلك العضو الغريب يبدو لها أصلح للاستمناء من بظرها (في الوقت الذي لا يمكن ان تتوفر لديها اي تجربة باللذة التي تنجم عن القضيب ، مثلما لا تتوفر لدى الذكر اي تجربة باللذة البظرية) تفتقر الى اي اساس . ويعتقد فرويد ان الايروسية الذاتية المؤنثة تأفل غب ذلك الاكتشاف ، وهذا الافول هو في نظره «مفعول مدهش آخر لشهوة القضيب ، او لاكتشاف دونية البظر» . وهنا ايضا ، كما في معظم الاحوال ، لا نستطيع ان نفصل التأويل الفرويدي لطريقة التفكير الطفلي عن الكيفية التي يفكر بها فرويد نفسه ، علما بأن مفرداته الخاصة ، التي هي باستمرار تحقيرية ، تنزع الى تعتيم المشكلة واحاطتها بالغموض على نحو يتعذر معه جلاؤها فيما بعد. وفي الواقع، ما دام فرويد لا يملك اي برهان موضوعي ذي قيمة ليقدمه تأييدا لاطروحته عن شهوة القضيب او عقدة الخصاء المؤنثة ، فاننا لا نملك بدورنا الا ان نستنتج من ذلك ان النزعة الذاتية التي تتحكم في تحليل الاحداث هي نزعة فرويد نفسه ، او انها صادرة عن حكم مسبق مذكر ضارب الجذور ، بله عن

حكم مسبق سافر يقول بالتفوق المذكر (١٠) .

ان هذا الحكم المسبق المذكر المألوف لدى فرويد – والذي تنم عنه مفرداته – والموقف الذي يستتبعه ، قد كان مصيرهما التضخيم على أيدي تلامذته : فالبظر في رأي هيلين دوتش هو «البديل غير الوافي بالغرض» للقضيب ؛ ويتكلم كارل ابراهام عن «فقر الاعضاء التناسلية الخارجية» لدى المرأة ، ويخلصون جميعا الى الاستنتاج بأن واقعة حمل الاطفال وانجابهم ذاتها لا يمكن ان تكون اكثر من تعويض بائس عن نقص في التكوين . وكما تلاحظ كلاين في نقدها لفرويد ، فانها لفرضية غريبة عجيبة تلك التي تصادر على ان «نصف البشرية له من الاسباب البيولوجية ما يجعله يحس بأنه مغبون لانه لا يملك ما يملكه نصفها الآخر (من دون ان يكون العكس صحيحا)» . وانه لأمر يحمل على الاستغراب حقا ان يتخيل المرء ان نصف العرق البشري يمكنه ان يعزو دونية وضعه الاجتماعي السافرة الى الاسباب البيولوجية الاكثر بدائية ، مع انه يوجد قدر كثير من عوامل اجتماعية اخرى أقدر على تفسير واقع الامور .

يبدو ان فرويد توصل ، عن طريق تلك الفرضية البعيدة غاية البعد عن ان تكون محتملة الصحة ، الى المصادرة على ان البنت الصغيرة تنفي قيمة – بل الى حد ما وجود – جميع الخصائص الجنسية المؤنثة . هذا مع ان اول شيء يفترض في الاطفال

---

١٠ – يصف ارنست جونز بحق موقف فرويد بصدد هذه النقطة بأنه «متمركز حول الاحليل» . وخلف احكام فرويد المسبقة ، نلتقي بعضا من المسلمة القديمة المعادية للمرأة والقائلة ان النساء ما هن الا ذكور ناقصون او غير تامين ، اي كائنات بشرية مشوهة ، على اعتبار ان الذكر هو معيار السواء. ويشاطر وجهة النظر هذه القديس اوغسطينوس والقديس توما الاكويني ، الخ.

جميعا ان يلاحظوه هو بالتأكيد ان لوالدتهم ثديين ، بينما ليس لوالدهم أثداء . ولا مراء في ان وقع الولادة البعيد الاثر على العقول الفتية مجهول تماما ، تماما كما هي مجهولة طبيعة معرفة البنت الصغيرة بفرجها ، لا ببظرها فحسب .

حين صاغ فرويد نظرية شهوة القضيب ، لم يقم وزنا لواقع ان عدم رضى المرأة قد يكون مرده الى مصادر اجتماعية ؛ كما انه جعل مثل هذا التفسير مستحيلا بطرحه كمبدأ ان الانثى تراودها غيرة حيال العضو الذي يميز الذكر . وبما انه من غير المعقول ، بداهة ، عزو هذا النوع من التفكير الى المرأة الراشدة ، فلا مناص من ان يعزى الامر الى الطفلة ، وعلى وجه التحديد الى تجربة مأساوية معاشة في زمن مبكر جدا من الطفولة . وبعد ذلك يُحاكم تطور المرأة بأسره ، سواء أأحسن ام اساء التكيف ، على اساس تلك اللحظة الكارثية المتمثلة في اكتشاف الخصاء .

لقد اكتفى فرويد ، حتى هذا الحد ، بمتابعة محاكمة عقلية يعزوها ، صوابا او خطلا ، الى ذاتية البنت الصغيرة . وسواء أكان تأويله صحيحا ام خاطئا ، فلا يفترض فيه ان يكون اكثر بكثير من مجرد وصف لما تعتقده البنت الصغيرة ولو خطلا . غير ان الوصف تضاف اليه تعاليم ومبادىء . فعلاوة على ان اكتشاف الخصاء يعتبر تجربة نسائية عامة شاملة ، فان الكيفية التي ترد بها المرأة على هذا القدر هي المعيار الذي يحدد ، في ختام سلسلة معقدة من الاطوار والمراحل ، صحتها ونضجها ومستقبلها : «بعد ان تعي المرأة هذا الجرح المنزل بنرجسيتها ، يتطور لديها ، كالندبة ، شعور بالدونية . وحين تتخطى الطور الذي تكون قد اعتقدت فيه ، في محاولة أولى للتفسير ، ان غياب القضيب هو عقاب شخصي ، وحين تدرك ان المسألة هي مسألة صفة جنسية عامة ، تطفق تشاطر الرجال الازدراء الذي يخامرهم ازاء جنس

ادنى بصدد نقطة بالفة الاهمية» (١١) . وتضمر الضغينة في بادىء الامر لأمها لانها «رمت بها الى العالم مجهزة اسوأ تجهيـــــز» و«تعتبرها مسؤولة شبه دائمة عن غياب القضيب» . وهنا ايضا لا تميز اللغة الفرويدية ادنى تمييز بين الواقع والتوهم المؤنثين . ولا يكفي ان ترفض البنت الصغيرة رفضا باتا جنسها الخاص ، بل ينبغي عليها ايضا ، كي تتفتح ، ان تعيد توجيه أناها ايجابيا نحو موضوع مذكر . وهنا يبدأ الطور الاوديبي لدى البنت . فهي تعزف ، على ما يقال لنا ، عن الامل في اخصاب أمها ، وهـــو طموح يعزوه اليها فرويد (اننا لنتساءل، بالمناسبة ، كيف تكتشف الحمل ، مع انه عملية معقدة ودقيقة لا يكتشفها الاولاد بأنفسهم ولا يملك الراشدون البدائيون جميعهم القـــدرة على فهمها) . ويقال لنا ايضا انها تفترض ان والدتها قد بترتها بعد ان حكمت بأنها غير اهل لان تكون صبيا ، او لتعاقبها على استمنائها ، فتوجه من ثم انتباهها القلق نحو والدها .

في ذلك الطور من طفولتها ، تنتظر البنت الصغيرة في بادىء الامر من ابيها ان يدلل على شهامة وأن يعطيها قضيبا . وفـــي وقت لاحق ، وبعد ان يخيب رجاؤها هذا ، تتعلم ان تكتفـــي بالاعتقاد بأنه سيكون في مستطاعها ان تنجب منه طفلا . ويتلبس الطفل هنا دلالة غريبة: فهو في الواقع ليس طفلا ، وانما قضيب: «يستقر ليبيدو البنت الصغيرة بواسطة ـ ليس هناك مصطلح ممكن آخر ـ معادلة القضيب = الطفل» (١٢). انها لن تتخلى ابدا عن الامل في اقتناء قضيب ، لكن الطفل سيكون اقرب معـــادل يمكنها ان تحظى به . تتحول اذن شهوة القضيب الجديدة هـــذه الى طفل ، كضرب من قضيب مؤنث ، وهذا امر من مزايـــــاه

١١ ـ «بعض النتائج السيكولوجية للتباين التشريحي بين الجنسين» .

١٢ ـ المصدر نفسه .

الاضافية انه يمثل طموحا جديرا بالاحترام (من المفيد ان نلاحظ ان مخاوف البنت الصغيرة تدور ، في راي فرويد ، حول الخصاء لا حول الاغتصاب ، مع ان الاغتصاب هو ما تخشاه ، وعن حق ، لانه قد يقع لها فعلا) . ويقول لنا فرويد ان البنت الصغيرة تتحرر عندئذ قليلا من ذلك القلق الذي احدثه لديها الخصاء ، لكنها لا تكف ابدا عن اشتهاء القضيب وإضمار المقت له ، بحيث تبقى تمثل ، على «عجزها» ، خطرا دائما على الذكر الاحسن منها تجهيزا . ونقع هنا على أثر خفيف من التناحر الرأسمالي بين اولئك الذين يملكون وأولئك الذين لا يملكون . وهذا ما يبدو انه يفسر خوف النساء الكبير المرتبط بالايديولوجيا الفرويدية، والقوة التي يتخذها الاتهام بشهوة القضيب حين يوجه الى الراشدات .

ولا تتوقف «قصيدة الحب العائلية» الفرويدية عند هذا الحد . فالبنت الصغيرة النموذجية ، بعد ان يداخلها اليقين بقصور بظرها ودونيته، وبالتالي بقصور جنسها وأناها ودونيتهما، تدخل الطور الاوديبي باشتهائها أباها . اما الصبي ، الذي اذهلته وأرعبته مستتبعات اكتشافاته الجنسية ، فيشرع بكبت تلك المعلومات . ولن يتمكن في زمن لاحق من استيعابها الا اذا ارفق تلك المعلومات الجديدة بازدراء عميق للمرأة . وانه لمن الصعب ان نفهم ، اذا استبعدنا السياق الاجتماعي ــ وهذا ما تفعله النظرية الفرويدية باصرار ــ ، كيف يمكن للصبي ان يداخله الاقتناع الى هذا الحد بتفوق قضيبه . ومع ذلك يؤكد لنا فرويد ان «اكتشاف غياب القضيب لدى النساء يجعلهن يفقدن قيمتهن في نظر البنات كما في نظر الصبيان ، وربما في نظر الرجال في وقت لاحق» .

ان النزاع مع الاب يفسح المجال امام الصبي للاعتقاد بأن مصيبة الخصاء تتهدده هو ايضا . وخشية منه على شعاره ورمزه بالذات ، ينكص عن الرغبة الجنسية التي تساوره ازاء أمه . والحق ان التفسير الفرويدي للاثارات العصابية الخاصة بحياة

الاسرة النووية يصلح في ذاته لان يكون برهانا ساطعا على الآثار الشديدة الضرر لتلك المؤسسة التي تعرض على صغار الاولاد ، من خلال الاهل، موضوعين جنسيين اوليين (الوالدين الراشدين) يعتبر الجماع معهما ، حتى لو كان ممكنا من وجهة النظر المادية ، ضربا من حب المحارم .

لئن يكن لا مفر ، في الوصف الفرويدي ، من الاقلاع عن كل امل في اقتناء قضيب ومن التسامي على النفس في الامومة ، فان الحل المقترح هنا ليس في الواقع الا حلا بديلا ، على اعتبار ان اساس الرغبة في الحصول على طفل هو البقية المتبقية من شهوة القضيب . اذ ان المرأة ، على ما يقال لنا ، لا تتخلى ابدا وهي تشق طريقها الى الامومة عن الامل في القضيب الذي تماهيه من الان فصاعدا بالطفل . هكذا يتعلم الرجال ان يحبوا النساء ، او بالاحرى الفكرة التي يكوّنونها عنهن ، بينما تتعلم النساء ان يحببن الاطفال . يجزم لنا فرويد ان المرأة تتابع بعناد نشدان طلبتها الإحليلية الكئيبة اثناء فعل الانجاب ؛ وهي بذلك لا تخرج عن نطاق موقفها الاوديبي الذي يجعلها ترغب في الطفل بديلا عن القضيب الناقص . و«تكون سعادتها عظيمة اذا ما تحققت ، في زمن لاحق ، تلك الرغبة في الطفل ، وعلى الاخص اذا كان الطفل صبيا صغيرا يحمل معه القضيب الذي طالما اشتهته» (١٣) . وقد أفلح المنطق الفرويدي في تحويل الانجاب ، مأثرة المرأة المدهشة والوظيفة الوحيدة التي يسمح لها نظامها بأدائها ، الى مجرد نشدان للعضو المذكر . وهكذا ينتهي فعل الولادة الى ان يصير امتيازا مذكرا ، ما دام الطفل محض بديل للقضيب . وهكذا ايضا تغلب المرأة على امرها في لعبتها بالذات ، لعبة التناسل ، اللعبة الوحيدة التي توصيها بها النظرية الفرويدية . ثم ان

---

١٣ ــ فرويد : «الانوثة» ، المصدر الآنف الذكر ، ص ١٣٤ .

طاقتها الليبيدية أضأل من ان تسمح لها بأن تلعب دورا بنّاء ، اذ ان دوافعها الجنسية ، وفرويد يردد ذلك مرارا وتكرارا ، هي دون قوة دوافع الرجل . وعليه ، لا تمنح المراة الا قيمة واهية ، حتى في اطار وجودها المحدود وآخذا بعين الاعتبار جهازها البيولوجي الضامر ؛ فحتى اذا انجبت ميتما بكامله لا تكون قد أنجبت الا عددا مماثلا من القضبان الاصطناعية الصغيرة .

وما دام طور الايروسية الذاتية «الاحليلية» لم يدرك نهايته مع قبول الدونية البظرية ، فلا سبيل الى ان يتم النضوج او البلوغ في شروط جيدة . والتعاليم الفرويدية واضحة هنا غاية الوضوح : «ان الاستمناء ، ذاك الذي يتركز على البظر على كل حال ، نشاط مذكر ، ولا مندوحة عن وضع حد له حتى تتطور الانوثة» (تصور الانوثة هنا على انها شيء سوي وصحي ، وسوف نرى عما قليل ما كنهها بالضبط) . والايروسية الذاتية المراهقة منهى عنها ؛ فالتعفف ضروري لتصحيح تطور الانوثة . وحتى اذا كان هذا التطور قد سلك حتى الان مسارا صحيحا ، فان ثمة عقبات تبقى قائمة : فالبنت «تتعرف واقع خصائها ، وبالتالي تفوق الذكر ودونيتها الذاتية ، لكنها تتمرد ايضا على هذه الوقائع المنغصة» (١٤) . ويرتئي فرويد انه من طبيعة الطبيعة «ألا يتكيف الجسم مع وظيفته بدون عراك» . ولهذا فانه في الوقت الذي تسعى فيه المراة المتجددة حيويتها الى تحقيق نفسها بنذر حياتها للتناسل ، تصبو نساء أخَر ، ممن يتشبثن بضلالهن، الى تجاوز الحدود البيولوجية التي تحصرهن في دورهن التناسلي والامومي : انها ، بموجب المفردات الفرويدية ، «عقدة الرجولة» . وذلك هو تفسير حالة العديد من المنحرفات ، اي اولئك اللاتي

---

١٤ ـ فرويد : «الجنسية المؤنثة» (١٩٣١) ، في «اعمال مجموعة» ، المجلد ٥ ، ص ٢٥٧ .

يعزفن عن الجنسية او يوجهنها نحو بنات جنسهن ، باعتبارهن ينشدن «اهدافا مذكرة» . فهذه الفئة الاخيرة ، بدل ان تبحث صراحة وصدقا عن القضيب في الامومة ، ترغب في متابعة التحصيل العلمي العالي ، وفي عيش حياة مستقلة ، وتتوجه نحو الحركة النسوية ، او تصيبها اضطرابات «عصابية» تقتضي علاجا . وكان المنهج الفرويدي يقضي بتبكيت هؤلاء النساء «غير الناضجات» ، «النكوصيات» ، «غير المكتملات الشخصية» ، اللائي «توقف» تطورهن .

تغدو شهوة القضيب ، المكبوتة لكن غير المقهورة ، المصدر الرئيسي للصحة او المرض ؛ وتسير الامور سيرا حسنا او سيئا تبعا لقيام قوة فاعلة غامضة تدعى «العامل التكويني» بأداء وظيفتها على الوجه الصحيح او غير الصحيح . وعليه ، اذا قبلت المرأة بمصيرها بطيبة خاطر ، فانه يسعها على الاقل ، وان بقيت عضوا في نوع دوني ، ان تتعرف وضعها المحزن وأن تحصر نفسها في حدود الامومة . غير انها اذا تمردت ، غزت العالم الفسيح الذي يعتبره فرويد ، لاشعوريا ، ارضا مذكرة ، وطلبت المنافسة ، وهددت بالتالي الرجال . عندئذ توجه اليها تهمة التخبط في «عقدة الرجولة» او الرغبة في سلوك مسلك الرجال.

وفي هذه الحالة ، سيبذل فرويد وتلامذته كل ما بوسعهم لاقناعها بغلطها : سيجربون معها اللين والدماثة ، الهزء والسخرية ، ومنذ تسنم الفرويدية المبسطة سدة السلطة سيجربون ايضا الـ «البوب ــ سيكولوجيا» (١٥) ، وهي عملية بوليسية حقيقية على صعيد العقل . وعلى المرتدة اما ان تتكيف وإما ان تسقط . ولكنهم لا يقدمون لنا البتة البرهان ، حتى في حال تسليمنا بما يزعمون ، على ان جميع المشاريع الانسانية

---

١٥ ــ وهو ما تمكن ترجمته بـ «علم النفس الشعبي» . «م»

(بالتعارض مع البيولوجية او التناسلية) ، المثيرة منها للاهتمام او غير المثيرة له ، تدخل فعلا ، كما يؤكدون ، في نطاق المجال الاقليمي المذكر ؛ لا يقولون لنا ما الاسباب البيولوجية التي تثبت ان النشاطات الادبية ، او الجامعية ، او المهن الحرة ، مذكرة بحكم ماهيتها بالذات . وقد كان من السهل علينا ان نقول ، لو شئنا ، ان فرويد يخلط بين العادة وبين الطبع الاصيل ، بين السيطرة المذكرة على الانماط الثقافية وبين الطبيعة ، لكن بما ان فرضيته مشحونة بالفائدة وموافقة جدا لمصالح بعضهم فاننا لو ذهبنا ذلك المذهب نكون قد عرضنا أنفسنا للاتهام بالسذاجة .

ان فلسفة تصادر على ان «مطلب العدالة هو صيغة معدّلة للحسد» ، وتدخل في أذهان المغبونين ان بؤسهم عضوي ، وبالتالي غير قابل للتبديل ، لقادرة على مساندة الكثير من المظالم . وبوسعنا أن نتكهن بالنصائح التي تحتفظ بها تلك الفلسفة لفئات اخرى من المجحف بهم ومن المتذمرين من الوضع القائم . وبما ان النتائج السياسية والاجتماعية لهذا النمط من التفكير والمحاكمة العقلية واضحة وجلية بما فيه الكفاية ، فليس من الصعب ان نفهم لماذا اصاب فكر فرويد شعبية كبيرة في المجتمعات المحافظة.

لقد ترك فرويد بملء طوعه فرصة ممتازة تفلت منه لفتح الباب امام مئات الدراسات القمينة بتسليط الضوء على العواقب الوخيمة لثقافة موسومة بالهيمنة المذكرة على تطور المراة الشابة، وآثر ان يكرس الاضطهاد الذي تنوء تحت وطأته متعللا ب«الشريعة البيولوجية» المحتومة . وقد ضربت نظرية شهوة القضيب حجبا كثيفة حول المشكلة بحيث لم تفلح جميع جهود علم النفس الى يومنا هذا في فك لغز تلك المسألة التي لا مراء في ان عللها اجتماعية . ولئن يكن لشهوة القضيب ــ وهذا امر بعيد الاحتمال ــ مدلول ما ، فان هذا المدلول لا يكون مثمرا الا في السياق الثقافي الكامل للجنسية . والحال ان البنات يكتشفن ،

حسبما تشير الدلائل ، واقعة التفوق المذكر قبل ان يقع بصرهن على قضيب اخ لهن . فهذا التفوق مدمج بثقافتهن ، حاضر في محاباة الاسرة والمدرسة ، وفي الصورة التي تقدمها لهن عن كل جنس وسائل الاعلام والدين وجميع نماذج العالم الراشد المدركة من قبلهن ، بحيث ان ربط ذلك التفوق بعضو الصبي التناسلي لن يأتيهن بشيء جديد ، اذ سبق لهن ان ادركن الف علامة اخرى من علائم الاختلاف الجنسي . وازاء هذا العدد الوفير من البراهين العينية على المركز المتفوق المخصص للذكر، وتحت وطأة الاحساس بالاستخفاف بهن وعدم الاحتفال لهن ، تنظر البنات بعين الحسد والاشتهاء ، لا الى القضيب نفسه ، وانما الى المطامح الاجتماعية التي يأذن بها القضيب . ويبدو ان فرويد وقع في خلط فاضح وغبي بين البيولوجيا والثقافة، بين التشريح والوضع الاجتماعي. ومن الظاهر للعيان بقدر اكبر ايضا ان جمهوره قد وجد ذلك الخلط موائما .

لقد شكلت الحركة النسوية ، على ما تشير الدلائل ، تهديدا جديا بالنسبة الى فرويد . فتصريحاته بصدد النساء مشحونة غالبا بجوارح الكلم وبمسموم السهام ضد وجهة النظر النسوية . وهو يقذف باستمرار بتهمة شهوة القضيب في وجوه العاصيات، حتى لكأنها رقية لنزع سلاح شبح النساء المتحررات او المثقفات ، اولئك المخلوقات الغريبات الشاذات اللائي يحمِّلن انفسهن ما يحمِّلنها من مشقة لامجدية بسعيهن عبثا وبلا طائل الى التعويض عن دونيتهن العضوية بهجمات يشننها على المنجزات الثقافية التي هي وقف ، على حد زعمه ، على من يملك قضيبا . ونظرا الى غموض هذا الكلام ، من الضروري ان نترجم : فقد كانت الزبونات يأتين لاستشارته بأمل تحسين قدراتهن المهنية ؛ ومقابل الاتعاب التي كن يؤدينها له ، كان فرويد يبذل كل ما بطاقته ليحضهن على ترك مهنتهن ، واصفا اياها بأنها شذوذ مضاد

للطبيعة (١٦) . واقتناعا منه بأن العلاقة بين القضيب والقدرات الفكرية عضوية بلا جدال ، يصرح فرويد ان «العامل البيولوجي هو بالفعل حجر المحك في المضمار النفسي» . والتفوق الفكري للذكر ، المرتبط تكوينيا بالقضيب ، هو في نظر فرويد واقعة قابلة تقريبا لان يقام عليها البرهان ، حجر محك مريح جدا لمصداقيته .

ان مظهرين من الطبع المؤنث يرتبطان ارتباطا مباشرا في نظره بشهوة القضيب : الحياء والغيرة . يقول : ان قنوط المرأة من احساسها بأنها «ناقصة» ، «مخصية» هو الذي يحيطها بهالة الحياء المأثور عنها . والخجل في تقدير فرويد سمة جوهرية من سمات الانوثة . وليس له من هدف ، في تقديره ايضا ، سوى اخفاء نقص المرأة المؤسف . فالمرأة ما تزال الى اليوم ، كما لدى البدائيين ، تستر اعضاءها التناسلية حتى لا تقع عين احد على عارها . بل ان فرويد ، بافتراضه ان الغرض الاول للحياء النسائي هو «حجب نقص تناسلي» ، لا يخفي استعداده للقول بأن شعر العانة هو رد من «الطبيعة نفسها» للتستر على عيب المرأة .

ومع ان الفكرة القائلة ان المرأة لم تسهم في الحضارة وعاجزة عن الاسهام فيها لاسباب تتعلق بتكوينها كانت عزيزة للغاية على قلبه ، فانه يقر لها بالفضل في اختراع فن النسج والغزل ؛ وهما اكتشافان يعودان في اصلهما الى دافع واحد : ضرورة اخفاء عاهتها .

وتمثل الخرافة الشعبية عن المرأة الغيور بدورها في برنامج فرويد ، فيؤكد لنا ان هذه الرذيلة متأتية هي الاخرى من شهوة

---

١٦ ـ هذا عمل شاق ، ويعترف فرويد بأن المرء «لا يساوره في اي لحظة من العمل التحليلي الشعور بأنه يصطدم بجدار كما يساوره حين يحاول اقناع زبونة بالتخلي عن شهوتها للقضيب ، نظرا الى استحالة تلبية هذه الشهوة» .

القضيب . انه يعتقد ان الرجال أقل نزوعا الى الغيرة (غالبا ما يكيل الثناء لنظام «الوزنين والمكيالين» الذي يجعل حياة الرجال اغنى بالامكانيات الجنسية) ، ولا يرى في يقظة الآباء والازواج والاخوة سوى الحذر الطبيعي المألوف لدى المالكين . ويحكم على الزواج الاحادي بأنه مؤسسة مشوبة بالعيوب من اكثر من زاوية، ولكن على الاخص لانها تقيد الحرية المذكرة . اما ما يعزى الى النساء من ميل الى الغيرة الصرف ومن حس خلقي متدنٍ ، فانه يوحي الى فرويد بتأملات من هذا القبيل : «لئن يكن من الواجب اعتبار النساء مجردات من حس العدالة ، فان هذه الواقعة ترتبط بلا مراء بهيمنة الحسد على حياتهن العقلية» (١٧) . واذا اخذنا بعين الاعتبار وضع المرأة الاجتماعي ، ترتب على ذلك الاتهام ضرر بالغ ، لان اتهام فئة محرومة ومغبونة بالغيرة وعدم الانصاف يعني تحطيم سمعتها وإفقادها اعتبارها او حرمان اعضائها من الموقع الاخلاقي الذي يمثل الاساس الوحيد الذي بامكانهم الاستناد اليه للمطالبة بمعاملة عادلة .

ان المذهب الفرويدي عن شهوة القضيب ، الذي رأى النور يوم كانت الثورة الجنسية في أوجها ، قد جاء في الوقت المناسب تماما : اذ اتاح للحس المذكر ان يستأنف الهجوم على نحو لم يسبق له مثيل منذ ان اختفى مذهب عداء المرأة الصريح والمكشوف ودرجت عادة المجاملة . وسقط من جديد ثقل المسؤولية ، بله الاثم ، بتمامه على كاهل المرأة التي لا تريد ان «تلزم مكانها» . والصقت نظرية شهوة القضيب بها كل تبعة أوجاعها ، بالنظر الى طموحها الى حالة مستحيلة بيولوجياً . فاذا ما تطلعت الى حياة أقل مهانة والى وجود أقل انحصارا وانغلاقا،

---

١٧ ــ «الانوثة» ، المصدر الآنف الذكر ، ص ١٣٤ .

سقطت لا محالة في انحراف شاذ ولاواقعي قياسا الى هويتها النوعية ، وبالتالي الى قدرها . والمرأة التي تقاوم «الانوثة» ، اي التي ترفض المزاج والقوام والدور المذكر ، تعتبر وكأنها قاب قوسين او ادنى من العصاب ، لان الانوثة هي نصيبها ما دام «التشريح هو القدر» . وهي اذ تهرب على هذا النحو من المصير الوحيد الذي تخصها الطبيعة به ، فانما تمشي نحو العدم .

يجتاز فرويد ، في صياغته لنظريته في شهوة القضيب ، دائرة كاملة : فهو يبدأ بوصف انطباعات الطفولة المشوهة ، ويبادر رويدا رويدا الى اعتبارها ردود أفعال صحيحة ، ثم يقدم روايته الخاصة اللامسؤولة عن السياق الاجتماعي ـ الجنسي ، وينزلق، بالاعتماد على سلسلة تكاد لا تقع تحت الادراك من الجسور الانتقالية ، من الوصف الى ضرب من المبادىء او التعاليم التي تؤكد دوام الوضع القائم الابوي باعتباره وضعا سليما وسويا . وباستثناء التسخيف الساخر ، لم تستخدم المرحلة المناهضة للثورة سلاحا امضى وأفتك ضد العصيان النسائي من التهمة الفرويدية بشهوة القضيب .

- ٢ -

بما ان التصور الفرويدي للطبع النسائي يستند الى تأويله للمعطيات البيولوجية قدر استناده الى الحافز السيكولوجي المتمثل في شهوة القضيب ، فمن الضروري تحديد تلك المعطيات قبل المضي في الشوط الى أبعد من ذلك . اذ ان اخطر اعوجاج يعاني منه علم نفس المرأة هذا هو عجزه ، اللاشعوري او الارادي، عن الفصل بين ظاهرتين مختلفتين اختلافا جذريا : البيولوجيا النسائية والقوام النسائي . وفرويد اذ يستنتج ان الثاني هو

كالاول ، او كالاول تقريبا ، نتاج الطبيعة، لا نتاج وضع اجتماعي، وانه بالتالي محتوم ، يبدو وكأنه يريد ان يدخل في خلدنا ان ما فعله بالمرأة عالم يخص الرجل هو فقط ما سبق للطبيعة ان فعلته بها .

بوجه عام ، يقيم فرويد تماهيا ووحدة هوية بين المذكر والايجابي ، وكذلك بين المؤنث والسلبي . والاساس الذي يقوم عليه تفكيره مزدوج : فهو يرتكز من جهة اولى الى سلوك معاصريه الجنسي كما يتجلى على الصعيد الاجتماعي او في الجماع ، ومن الجهة الثانية على خواص المواد والعمليات البيوجنسية (فالمني والولوج يعتبران ايجابيين ، والاستقبال الرحمي والبييضة يعتبران سلبيين) . والمعطيات البيولوجية مبالغ هنا ، بحد ذاتها، في تقديرها : فالبييضة لا تتنقل في قناة فالوب ، ومن ثم فهي ايجابية ، فحسب ، بل ان الحوينات المنوية تستقبل وتسند وترفع بالحركة الغطسية لعنق الرحم ، وهي بالتالي سلبية . بيد انه ليس من العقلانية في شيء ارادة وضع قانون لأوالية مجتمع بأسره استنادا الى خصائص الخلايا الانسانية المجهرية . وفرويد لم يشط بالاصل الى هذا الحد . ولكن من الجلي ، بالمقابل ، انه استخدام الخلايا الجنسية كمصادر للتشابه في مضمار المزاج والدور والمظاهر السيكولوجية لكل من المذكر والمؤنث .

ومن دون ان يأخذ فرويد وقته ليلاحظ على أتم نحو ان «الذكورة» و«الانوثة» بنيتان للسلوك جرت صياغتهما بالنسبة الى كل جنس في داخل المجتمع ، وانهما بالتالي بنيتان ثقافيتان وخاضعتان لتبدلات لامتناهية ضمن اطار الثقافة ، يخلص الى الاستنتاج بشيء من التسرع بأن هذا السلوك أصيل ومحتوم بيولوجياً ، وينتهي في الختام الى المطالبة بضرورة التقيد بمعيار اجتماعي مبني على ما يعتقد انه اساس تشريحي .

وحتى يفسر فرويد العديد من الاستثناءات الباعثة على

البلبلة قياسا الى معايير السلوك الجنسي تلك ، كان يلجأ الى استعمال مقياس متدرج وفق متغيرات الطبعين المذكر والمؤنث ، ينتهي في كل طرف بمثل اغلى افلاطوني مقتبس في أرجح الظن من فاينجر (١٨) . وقد اضاف اليه نظرية الجنسية الثنائية . فمن الممكن ، على حد ما كان يقول ، اعتماد الجنسية الثنائية في تفسير مسلك اولئك «السيدات» اللائي «ما ان يتضح ان مقارنة من المقارنات هي في غير صالح جنسهن حتى يبادرن الى التصريح عن شكوكهن بأننا ، نحن المحللين النفسيين الذكور ، لم نفلح في التغلب على أحكامنا المسبقة الراسخة الجذور ضد كل ما هو مؤنث ، وبأننا ندفع ثمن ذلك بتحيز ابحاثنا» . ويتابع فرويد فيقول انه في مثل هذه الاحوال ينبغي ان يأتي الرد على النحو التالي : «لو وقفنا على أرضية الجنسية الثنائية ، لما وجدنا مشقة في تحاشي سوء التهذيب . فحسبنا ان نقول : هذا لا ينطبق **عليك** ، فأنت الاستثناء . وأنت بصدد هذه النقطة المحددة اكثر ذكورة منك انوثة» . هكذا نجد ان النساء اللائي يشهرن حججا منطقية ينعتن بأنهن رجال مكافأة لهن على ما تجشمنه من جهد . وبما ان تباين المزاج الجنسي يرتد في نظر الفرويديين الى أصل فيزيولوجي ، وان دعمته اختلافات في السلوك تشكل معايير اجتماعية ، فان نعت امرأة ما بأنها غير مؤنثة لا يزرع الا مزيدا من اللبس والبلبلة . وعلى كل ، لا تصلح نظرية الجنسية الثنائية لتقديم عزاء حقيقي للفرد ، بالنظر الى ان الانوثة موصوفة ، بله مأمور بها ، وبالنظر الى انه يكال لها الاطراء بوصفها الحل الراشد للاحراج الجنسي الثنائي الذي يبلبل الطفل .

لقد اعترف فرويد في مناسبات عدة بأن الطبعين المذكر

---

١٨ ـ اوتو فاينجر : كاتب معاد للمرأة يقال ان فرويد تأثر بأحكامه . «م»

والمؤنث هما ، في شكلهما المحض ، انشاءات نظرية يحوطها قدر لا يستهان به من الابهام وعدم اليقين . وما أحجم عن المضي الى حد الاعتراف ، كما باتت العلوم الاجتماعية تفعل ذلك غالبا ــ مع ما يترتب على هذا الاعتراف من نتائج ماكرة وخداعة ــ بوجود مخططات متدرجة او متراكبة . بيد ان الاثر العام للفكر الفرويدي كان ، بالرغم من نظرية الجنسية الثنائية ، مماهاة تعريفه لما هو مذكر مع الذكر البيولوجي ، وتعريفه لما هو مؤنث مع الانثى البيولوجية . بل انه جعل من ذلك مبدأ وشعارا . وحين كتب فرويد في عام ١٩٣٣ مؤلفه النهائي في الموضوع ، **الانوثة** ، كان قد توصل الى تعريف الطبع المؤنث بأنه «اصطفاء» للاهداف السلبية ، او على حد تعبيره الخاص ، الذي لا يخلو من بعض المفارقة ، «نشدان ايجابي لوظيفة سلبية» . وكان قد نبذ شيئا فشيئا فرضيته الاولى القائلة ان المزاج المؤنث يمكن ان يتشكل الى حد كبير تحت تأثير سيرورات الاكتساب والضغوط الاجتماعية ؛ ومع اعترافه العابر بين الحين والآخر بوجود مركب اجتماعي ، راح يميل اكثر فأكثر الى اعتبار الخواص «المؤنثة» ميولا «تكوينية» او «غريزية» او «وراثية» .

ان كلمتي «مذكر» و«مؤنث» مماثلتان بوجه العموم في كتابات فرويد ، وعلى الاخص في كتابات تلامذته ، لكلمتي «ذكر» و«انثى» ؛ وكل انحراف عن واحد من هذه المعايير يعتبر عرضا من أعراض مرض عقلي متفاوت درجة الخطورة . لكن لو كانت هذه النظرية صحيحة ، لما كانت هناك ضرورة آسرة للتوكيد على ما تستتبعه «الذكورة» و«الانوثة» من طبع إلزامي . بل لكان امكن الاستنتاج ، فيما لو صح ان الطبعين المذكر والمؤنث هما بالفعل نتاجان طبيعيان او تكوينيان ، ان كل سلوك الذكر مذكر قسرا وكل سلوك الانثى مؤنث قسرا . ومتى ما فصلت كلمتا «مذكر» و«مؤنث» عن سياقهما الاجتماعي ، حيث تؤديان وظيفتهما بغية المحافظة على نظام ما هو بنظام الاختلاف والتباين

فحسب ، بل هو ايضا نظام السيطرة والخضوع ، فقدتا معناهما وصار في المستطاع استبدالهما بمفهومين يمكن التحقق منهما بيولوجياً او طبيعيا : مفهومي الذكر والانثى .

لقد حدد فرويد في وقت مبكر ، منذ عام ١٩٠٥ ، الليبيدو (وهو مصطلح اغنى دلالة بكثير من مفهوم الدافع الجنسي ، ويمكن اعتباره بوجه عام ، وتسهيلا للفهم ، معادل القوة الحيوية او اي ضرب آخر من الطاقة البشرية) بأنه مذكر : «انه في الاحوال العادية والسوية من طبيعة مذكرة ، سواء أظهر لدى الرجل ام لدى المرأة» (١٩) . وعلاوة على ان هذه الفكرة تبدو وكأنها تنقض نظرية الجنسية الثنائية ، فانها تظهر للعيان الطابع الفكتوري لمواقف فرويد الجنسية ، اذ كان يرى ان النشاط الجنسي «موقوف على الرجال» . وفي عام ١٩٢٣ ، تراجع عن موقفه بعض الشيء ، وأقر بأن الليبيدو لا جنس له (٢٠) . بيد انه ثابر على اعتباره ، كما تشير الدلائل ، وظيفة مذكرة ، غنية بالامكانيات الثقافية والابداعية ، وضربا من قوة حيوية شبه موقوفة على الذكر . والى ذلك كان ينضاف الشعور بأن الثقافة والجنسية لا يتوافقان ، وانه اذا كان لدى المرء رغبة في نذر نفسه لمشاريع «سامية» فلا مناص له من العزوف عن الجنسية ، او على الاقل تصعيدها . وبما ان المرأة لا تملك ، تعريفا ، سوى ليبيدو متقلص (غريزة المرأة الجنسية أضعف من غريزة الرجل) (٢١) ، ولا تستطيع بالتالي ان تسهم في الحضارة ، فان تصعيد الذكر لجنسيته يعني ، بحصر المعنى ، ان يقاوم الاغراءات التي تبذلها له

---

١٩ ـ فرويد : «ثلاث مساهمات في نظرية الجنس» (١٩٠٨) .

٢٠ ـ فرويد : «التنظيم التناسلي الطفلي لليبيدو» (١٩٢٣) .

٢١ ـ فرويد : «الاخلاق الجنسية المتحضرة والامراض العصبية الحديثة» . (١٩٠٨) .

رفيقته وأن ينصرف الى اهداف اسمى ، يؤهله للتصدي لها ما يتمتع به من ليبيدو اقوى (٢٢) .

في زمن كانت فيه القوى «الغريزية» تحظى بعالي التقدير ، كان فرويد يعهد الى الرجل لا بالثقافة فحسب ، بل كذلك بالحفاظ على النوع البشري : «لم تول الطبيعة مطالب الوظيفة المؤنثة الاهتمام الذي اولته لمطالب الذكورة ... فتحقيق الهدف البيولوجي موكول الى عدوانية الذكر ، وبوسعه ، الى حد ما ، الاستغناء عن تعاون المرأة» (٢٣) . ينبغي اذن احترام الليبيدو المذكر ، الذي هو قوة في خدمة الحياة ، وتركه يفرض مشيئته على المرأة، سواء أكان ام لم يكن لدى هذه الاخيرة بصيرة التعاون. ومثال المرأة الباردة (وقد درس فرويد أمثلة كثيرة عنها) يفيد في بيان تفوق الذكر الذي يحمل في ما يحمل هم ذريته . ويخلص فرويد الى الاستنتاج بأن الطبيعة قد تقاعست بكل بساطة عن اعطاء المرأة ليبيدو قويا ، فما يحدث تقع مغبته اذن عليها . وما توازن العدوان الجنسي المذكر على الانثى الا واحد من عناصر قوة مجردة هائلة ، همها الوحيد بقاء النوع . وتتولد عن هذا الموقف مجموعة كاملة من المصطلحات العسكرية يستخدمها علم النفس في وصف الجنسية : استسلام ، سيطرة ، هيمنة . «يلاحق الذكر الانثى بغرض الاتحاد الجنسي ، فيستولي عليها ويلجها ...

---

٢٢ ـ لقد اتخذت فرضية وجود ليبيدو اقوى لدى الذكر على مر الازمان ذريعة لتبرير نظام «الوزنين والمكيالين» . ففي نظر الفكتوريين ، كان ذلك دليلا على طبيعة المرأة «الانبل» ؛ اما في نظر فرويد فقد غدا ذلك دليلا على طبيعتها الدنيا ، اذ ان كمية الليبيدو المصعدة تحدد بدقة الاستطاعة الثقافية. وقد جمع بين امتيازات تعبير جنسي اكثر حرية لدى الذكر وبين الزعم التقليدي القائل بتفوق الذكر في المضمارين الفكري والثقافي .

٢٣ ـ فرويد : «الانوثة» .

وصفة الذكورة مختزلة هنا الى عامل العدوانية» (٢٤) . وبدءا من اللحظة التي يغدو فيها هذا النوع من المفردات محاطا بالاحترام والإجلال ، لا يصعب ان نفهم لماذا سيصف الكتاب الحساسون بوجهة النظر الفرويدية كل تزاوج غير متسم بمثل ذلك القدر من الطبيعة الحربية بأنه فاتر ، لا جنسي او لواطي .

ثمة تناقض غريب بين هذه الاهمية المعلقة على غريزة التناسل وبين توكيدات اخرى لفرويد الذي يصرح في اكثر من مناسبة بأن التناسل ليس السبب الوحيد ولا حتى الاقوى للشهوة الجنسية : «ليست غاية الفريزة الجنسية لدى الانسان هي الانجاب في المقام الاول ، لكن هدفها نمط خاص من اللذة» . وفرويد ، الذي عاش في عصر كانت فيه البرودة والجنسية المثلية المؤنثة منتشرتين على نطاق واسع ، لم يدرك كل مستتبعاتهما الاجتماعية : لم يفهم ان ذلك يؤدي ، لا الى ولادة شعور بالذنب او النفي ازاء الجنسية فحسب ، بل ايضا الى ولادة مقاومة نسائية . ويبدو انه رأى في البرودة دليلا اضافيا على ان ليبيدو المرأة متقلص ، وعزا اليها ، في العديد من الحالات ، اصلا «تكوينيا» (٢٥) . ويخلص الى الاستنتاج بصيغة بسيطة : ان المرأة أقل «نهما» الى الجنس من الرجل ، وضآلة دافعها الجنسي لا بد بالتالي ان تكون «عضوية» . وقد اسهمت

---

٢٤ ــ المصدر نفسه ، ص ١١٤ ــ ١١٥ . ويجدر التنويه بأن فرويد نفسه يسلم ، بعد رسمه تلك الصورة الكاريكاتورية ، بأنه لا جدوى من استخدام مصطلحي الذكورة والانوثة هذا الاستخدام .

٢٥ ــ «احيانا يكون للبرودة اسباب نفسية ، ومن الممكن في هذه الحالة التأثير عليها ؛ لكنها تبدو متحددة ، في حالات اخرى ، بتكوين المرأة ، بل يمكن الحديث هنا حتى عن عامل تشريحي» ، «الانوثة» ، ص ١٣٢ .

ابحاث ماسترز وجونسون مؤخرا كبير اسهام في نقض هـــذا الاستنتاج التقليدوي، غير ان هذا الاستنتاج يتوافق تمام التوافق مع مفاهيم «فكتورية» اخرى لم يتخل عنها فرويد قط .

- ٣ -

كانت السمات الرئيسية الثلاث للشخصية المؤنثة في نظر فرويد هي السلبية والمازوخية والنرجسية . والصيغة الفرويدية ليست مجردة من كل مزية حتى في هذا المجال ، اذا نظرنا اليها على انها مجرد **وصف** . فوضع النساء في ظل النظام الابوي لا يترك من خيار لنا غير أن نتوقع ان يكنّ سلبيات ، وأن يتوجعن، وأن يكنّ مواضيع جنسية ؛ ولا مراء في ان تدجينهن الاجتماعي يحضهن ، بقدر او بآخر من النجاح ، على اداء ذلك الدور . لكن ليس هذا ما كان يدور في خلد فرويد . كذلك لم يكن قصده ان يصف وضعا اجتماعيا . بل على العكس ، فقد كان ذلك البنـاء الثقافي المحضّر الذي نطلق عليه اسم «الانوثة» ذا طبيعة عضوية الى حد كبير في نظره ، اي كان «المؤنث» مرادفا او مرتبطـا بوضوح بـ «الانثى» (٢٦) . وبناء عليه ، فقد شرع بتحديد الانوثة على انها سلبية ومازوخية ونرجسية تكوينية . وقد وصفها ايضا بأنها المعيار ، لا للتطور بوجه عام فحسب ، بل لتطور صحيح وسليم ايضا . فالسمة المؤنثة الرئيسية ، السلبية ، يتم الحصول عليها ، على سبيل المثال : «بفضل الاقلاع عن الاستمناء البظري»، وبولادة رغبة الامومة في الطور الاوديبي ، وانطلاقة الانوثة هذه

٢٦ ــ راجع ايضا الحاشية السابقة حيث يفترض فرويد ان البرودة ذاتها تتحدد بالتكوين .

«تترافق بصورة رئيسية بدوافع غريزية سلبية» .

يقول لنا فرويد ان المازوخية والسلبية ليستـــا مؤنثتين فحسب ؛ بل تقوم بينهما علاقات ديناميكية : فالمازوخية تشمل جميع المواقف السلبية من الحياة ومن الاهداف الجنسية . اذن فهي سوية لدى المرأة ، غير سوية لدى الرجل . ويقدم لنا فرويد وصفا عاما لها أيضا بقوله ان المرء في المازوخية «يكون في وضع مميز للشرط المؤنث ، اي انه مخصي ، يلعب الدور السلبي في الجماع ، او ينجب»(٢٧) . ان المازوخية انثى ، والانوثة مازوخية. وانه لأمر في منتهى الأرابة ان يوصف الالم والمازوخية بأنهمـا مؤنثان في حد ذاتهما . فذلك لا يعبر عن الموقف المذكر مـن الوظائف المؤنثة (وظائف شاقة ، محطة ، الخ) فحسب ، بل يبرر كل مشروع للسيطرة او للاذلال بحق المرأة بحجة ان طبيعتها لا تقتات الا بهما . واذا مضينا بهذه الفكرة الى نهايتها المنطقية ، بلغ بنا الامر حد القول ان اساءة معاملة المرأة توافق بدقة رغبتها ، علاوة على انها مفيدة لها : و**«قصة و»** (٢٨) هي التمثيل المتطرف على مذهب مبني على تلك المسلّمة . ولسنا نجد ، مهما بحثنا ، سببا افضل لمواصلة معاقبة الضحية . وفضـلا عن ذلك ، ان القسوة ايروسية لانها ترضي طبيعة الشريكين ، وانه لمن الممكـن عمليا تبرير اي عمل فظيع يقترف بحق امرأة باستخدام نظريـة المازوخية الفطرية . ولو تمعن فرويد في التفكير بكل المستتبعات الممكنة لتلك الفكرة ، سواء أطبقت على النساء ام على اي فئـة مغبونة ، فلربما كان اخذه الذهول .

---

٢٧ ـ فرويد : «المشكلات الاقتصادية للمازوخية» .

٢٨ ـ رواية ايروسية حديثة تنسب الى بولين رياج ، وهو اسم مستعار، وموضوعها امرأة تجد الحب في العبودية . «م»

يأتي فرويد بذكر ثلاثة أشكال من المازوخية : «الايروسية» ، و«الاخلاقية» ، و«المؤنثة» . ويخلط بين شكلين منها : المازوخية المؤنثة و«عشق الالم الايروسي» الذي يصعب تفسيره ، على حد قوله بالذات ، حتى لدى النساء . وفي معرض الاشارة الى اشياء غامضة لا تقبل تفسيرا ولا يمكن حل لغزها ــ وهذه تقنية اثيرة لديه كلما دخل في مناقشة حول المرأة ــ يلمح بلهجة استفزازية الى «علاقة سرية مع المازوخية» ، ويدغدغنا بالحديث عن شهية الى الالم «تظل بلا تفسير اذا لم نقسر انفسنا على صوغ بعض الفرضيات بصدد اشياء يلفها الظلام» .

بيد ان فرويد مقتنع بأن المازوخي يحب الالم ، وهو موقن بالقدر نفسه بأن الجماع مؤلم ، ولا بد ، للمرأة ؛ وذلك هو في نظره الدليل الوحيد على تحبيذها للتزاوج الجنسي الغيري (٢٩) . اما فيما عدا ذلك ، فانه أميل الى الاتفاق مع آكتون ، وهو طبيب من القرن التاسع عشر كثيرا ما يجري الاستشهاد ، تمثيلا على الموقف الفكتوري ، بقوله المأثور : «ان الافتراض بأن المرأة تشعر بلذة جنسية لهو «افتراء دنيء» . بل كان فرويد يأمل ان يصوغ هذه الفكرة بعبارات علمية حين صادر على وجود «ميل عام لدى المرأة الى تحاشي الجنسية» (٣٠) . وهذه الفرضية التي تزعم ان دور المرأة في الجماع سلبي ، وبالتالي مازوخي ، على اعتبار ان لذتها الوحيدة انما هي في التألم ، ان تكن تنبئنا بالشيء الكثير عن الموقف المذكر من وضع المرأة في اطار العلاقات الجنسية ،

---

٢٩ ــ يصف فرويد «شهوة الالم» بأنها تعبير عن الانوثة . ويردف قائلا ان هذا الالم يشكل طبيعة التجربة الجنسية المؤنثة بالذات . وحتى عندما توجد المازوخية لدى الذكور ، فانها تكون «شكلا من المازوخية المؤنثة» .

٣٠ ــ فرويد : «تابو العذرية» (١٩١٣) .

فانه من المتعذر بالمقابل ان تكون غنية بمعلومات اخرى .

يبدو ان فرويد يعتقد ان المازوخية ليست «مؤنثة» فحسب، بل تنسجم ايضا مع وضع المرأة في الزواج الذي يصفه بنفسه بأنه وضع «استعباد» ، وهو وصف لا يخلو من بعض تبرير ساخر اذا ذهب بنا الفكر الى وضعية المرأة تجاه القانون . لكن فيما خلا وصفه المؤثر لعادات فض البكارة التي تضع العذراء الثلوم في وضع «الاستعباد الجنسي» و«التبعية» و«الضعف»، لا يبدو عليه ان لديه ما يقوله بصدد النظام او الكيفية التي يعمل بها هذا النظام . وبالاصل ، ترد المرأة على ذلك الاستعباد ، كما يتوقع فرويد ، ب «عرفان جميل» ، وهذا رغما عن خيبتها ووجعها ، ورغما عن الجرح الجديد الذي انضاف الى جرح الخصاء القديم ، ورغما عن معرفتها بأنها قد باتت منقوصة لانها لم تعد عذراء . وليس في هذا كله شيء غير معتاد وغير عادي ، اللهم الا اذا نست نفسها الى حد الرد بعداء او حاولت تجاوز دورها ، وهو ما يؤوله فرويد على انه رغبة في «خصاء» الذكر بدافع من روح الثأر والانتقام . وكما في حالة النساء اللائي تظهر لديهن «عقدة ذكورة» ، تستنفر النظرية الفرويدية كامل قوتها ضد اولئك المتمردات الموصوفات بأنهن «متحررات» او «مثقفات» ، اللائي لم تكتف شهوة القضيب باقناعهن بعدم اهليتهن واللائي اوقعتهن امتيازاتهن الجديدة في مضمار التربية في فخ الاستلاب قياسا الى طبيعتهن «الغريزية» . لقد اتحدت قوى التحليل النفسي جميعا لاكراه المرأة على «التكيف» مع وضعها ، اي على قبوله والخضوع له، لان أمن المجتمع وسلامة الزواج التقليدي يقتضيان ان يكون الامر كذلك .

يقول فرويد لطلابه ، وكله اقتناع بأن المازوخية مؤنثة بالوراثة ، وقائمة في آن واحد على استعداد تكويني وعلى طبيعة سيكولوجية ثابتة : «اذا التقيتم ، كما يحدث كثيرا ، المازوخية لدى الرجل ، فكل ما يتبقى عليكم ان تقولوه هو ان هذا الرجل

يبدي على نحو ظاهر للعيان بعض سمات من طبع المرأة» (٣١) . وبناء على ذلك ، فهو الى حد ما معصوب (٣٢) . ومع انه من المفروض فينا اننا جميعا جنسيون ثنائيون بقدر او بآخر ، فمن الواجب ان نعرب عن قلقنا حين يكشف رجل من الرجال عن سمات من طبع المرأة ، تماما كما يجب ان نستهجن ظهور سمات طبعية مذكرة لدى المرأة ، لما يشكله ذلك من دليل على انها لم تتغلب على شهوة القضيب . ولنلاحظ بالمناسبة مدى جنوح الوصف الفرويدي الى تجاهل مفهومه الخاص عن الجنسية الثنائية او الى ادانته اذا ما اكتشف بعض أعراض من هذه الجنسية الثنائية .

بعد السلبية والمازوخية ، ينتقل فرويد الى العنصر الثالث من عناصر ثلاثيته «المؤنثة» : النرجسية . فالنرجسية تنقسم الى قسمين ، نظير مقولات علم الكلام القروسطي . فهناك اولا الشكل المؤنث الذي يوصف ب «الشذوذ» ، وان يكن طبيعيا لدى النساء. فالمرأة تركز حبها في جسمها او في أناها ، وتعامله مثلما كان الذكر سيعامل جسدها او اناها . اما النرجسية المذكرة ، المسماة بالشرجية ، فهي من طراز ارقى : انها توثب للاعجاب بالآخرين اكثر منها بادرة زهو شخصي . وترتد النرجسية المذكرة الى ما يلي : المغالاة في تقدير المرأة المحاطة بهالة مثالية من خلال اسقاط صفات الذكر العليا عليها . فالرجل النرجسي يكوّن لنفسه فكرة مبالغا فيها عن موضوع حبه ؛ اما المرأة النرجسية فتتشبث بشكل أدنى من العاطفة ولا ترقى بنفسها الى غيرية «حب الموضوع» . والحق ان صفحات فرويد هذه تنسخ الى حد كبير الملاحظات التي ابداها فاينجر حول الحب واضفاء هالة من

---

٣١ ـ «الانوثة» ، ص ١٣٢ .

٣٢ ـ اي مصاب بالعصاب . «م»

المثالية على النساء في الادب ، وبخاصة حول بياتريس كما تغنى بها دانتي . وعلى الرغم من ان المرأة ليس لها كبير قيمة في حد ذاتها ، فان الرجل الذي يتوصل الى ابداع رائع الشعر بتحويله اياها الى فكرة يحتل مكانه بين محبي الانسانية والمحسنين اليها. اما الغالبية العظمى من النساء اللائي لا يعشن فوق قاعدة تمثال عالية ، فان فرويد يفهم ما يساور الرجال من ضرورة سيكولوجية الى الحط من قدرهن بدفعهن الى البغاء او بمعاملتهن بفظاظة على الصعيد الجنسي .

ان النرجسية ، علاوة على انها مؤنثة تكوينيا ، ترجع في اصلها الى شهوة القضيب : «ان لمفعول شهوة القضيب نصيبه ايضا في غرور النساء الجسماني ، لانهن سينسبن بالضرورة قيمة اسمى الى مفاتنهن باعتبارها تعويضا متأخرا عن دونيتهن الجنسية البدائية» . وما الجمال نفسه سوى مظهر من مظاهر الحاجة الى الولادة مع قضيب. والحق ان المرء لتأخذه في النهاية الشفقة على مصير فرويد . فلو شطت الامور هذا الشطط ، لاستغرقت المرأة في نرجسيتها ولأشاحت نهائيا عن الرجال . وموقف فرويد بهذا الخصوص اذعاني (تلك هي الطبيعة المؤنثة) وفي الوقت نفسه تهديدي (على المرأة ان تسيطر على غرورها) .

ان فرويد ، باقناعه نفسه بأن السمات الثلاث للطبع المؤنث تكوينية ومطابقة لقَدَر بيولوجي ، قد فسح في المجال امام تلاميذه لكي يجعلوها إلزامية ولكي يفرضوها فرضا ، مؤبدين بذلك وضعا ينبع من ظروف اجتماعية اضطهادية . وانه لضرب من الداروينية الاجتماعية ان يرصد المرء فئة مكرهة على السلبية، منكفئة على ذاتها في اوضارها ، محكوما عليها بغرور مبتذل بغية انتزاع اعجاب من هم فوقها ، ثم ان يأخذ على عاتقه ، بعد ان يلاحظ ذلك الوضع الذي هو نتيجة خضوع طويل الامد ، ان يستنتج ان هذا الوضع عينه كان محتما ، ثم يطفق بعد ذلك بالايصاء والامر به مصورا اياه على انه علامة من علامات الصحة

والواقعية والنضوج . وقد استخدمت هذه الطريقة مرارا وتكرارا تجاه الفئات المحرومة او المغبونة ، لكن ندر ان استخدمت بمثل النجاح الذي استخدمها به المذهب الفرويدي بخصوص النساء.

- ٤ -

من العسير ان يواصل المرء وصف المرأة بأنها رجل ناقص من دون ان يطرح على نفسه اسئلة حول الاهلية الفكرية لمخلوقة غبنتها الاقدار الى هذا الحد . وقد عزا فرويد في تأويله الاول ، بخصوص العقل المؤنث الذي كان يبدو له واهي التطور ، هذه الظاهرة الى الكف الاجتماعي المضروب على جنسية المرأة التي تبادر بدورها الى كف كل مجهود ذهني آخر . وبما ان المرأة تهتم قبل كل شيء بأمور الجنس ، على حد ما كان يصرح به ــ وما كان يرى في ذلك ما يناقض توكيداته المتكررة بصدد ضآلة الدوافع الغريزية الجنسية واللذة المؤنثة ــ وبما ان ذلك هو الموضوع الذي لا يحق لها ، من جهة اخرى ، ان تدرسه لان كل شيء يحملها على التخوف من ان يعتبر «ظمؤها الهائل الى المعرفة علامة من علامات اللاأخلاقية» ، فانه لا يسعها الا ان تكف وتكبت فضولها ؛ ويندر ان تتاح لها امكانية تصعيده وتجاوزه . وبالنظر الى عدم جراة المرأة الشابة على تعميق موضوع الدراسة الذي يثير اهتمامها اكثر من اي موضوع آخر ، تشيح بسرعة عن كل مسعى فكري و«سرعان ما يفقد المجهود العقلي والمعرفة بوجه عام قيمتهما في نظرها» . كان القمع الجنسي يكفي اذن في البداية ، في نظر فرويد ، لتفسير تلك الدونية الفكرية التي يرتئي انها فاضحة لدى المرأة : «ان الدونية الفكرية الساطعة التي ترزح تحت وطأتها نساء كثيرات تجد اصلها في كف الفكر الذي يفرض ضرورته الاضطهاد

الجنسي» (٣٣). ولا يغيب عن أنظارنا هنا لا صمام الامان المتمثل في تعبير «نساء كثيرات»، ولا الجبرية الخداعة لتعبير «يفرض ضرورته».

يعود تاريخ هذه الملاحظات الى عام ١٩٠٨، اي الى زمن كان فيه فرويد، وهو ما يزال رجلا فتيا (٣٤)، يرغب في مناقضة افكار موبيوس عن دونية المرأة الفكرية الفطرية، وما كان يرفض ان يعزو الى حد ما مقاومة المرأة ازاء وضعها الى عوامل اجتماعية ـ تربوية، اي الى عناصر ثقافية اكثر منها بيولوجية او سيكولوجية. ومع مر السنين، غيّر فرويد جذريا موقفه بهذا الخصوص وساورته الحاجة الى ان يؤكد بصورة جازمة نهائية اكثر فأكثر بأن الطبع المؤنث شيء ثابت، ساكن، امرت به الطبيعة وقوانين التشريح التي لا تقبل تبديلا. فالمرأة دون، ناقصة ومقصرة من جميع النواحي، وشبه متوحشة. وهذا كله لماذا؟ لا لشيء الا بسبب مسخها رخصائها الفيزيولوجيين.

لما لم يعد فرويد يرى في تأثير العوامل الاجتماعية على علاقات المرأة بالثقافة الانسانية والمنجزات الفكرية تفسيرا كافيا، سعى الى ان يثبت على نحو اكثر جزما ان المرأة اذا كانت لا تسهم في الحضارة، فليس ذلك لانها منهية عن الاسهام فيها، وانما لانها عاجزة تكوينيا عن فعل ذلك. وهذا الاثبات وجد برهانه في وصفه للتطور النفسي ـ العضوي للمرأة خلال مختلف أطوار الطفولة والمراهقة.

---

٣٣ ـ «الاخلاق الجنسية المتحضرة والامراض العصبية الحديثة»، ص ٩٤.

٣٤ ـ ترتكب كيث ميليت هنا هفوة تأريخية: ففرويد هو من مواليد ١٨٥٦، وفي عام ١٩٠٨ لم يكن «رجلا فتيا»، بل كان عمره اثنين وخمسين عاما. «م»

في وسعنا ان نعزو الى فرويد ، الى حد كبير ، مسؤولية تلك المساجلة المدرة للربح بين البظر والمهبل التي بنى عليها الكثيرون امجادهم والتي كانت المادة التي اقتات بها العديد من تلامذته على مر ثلاثين عاما (٣٥) . وفي الواقع ، كان العضو المؤنث الاساسي في نظره هو البظر ، لا المهبل . لكنه كان يعتقد اعتقادا جازما ايضا بأن على المرأة، كي تتوصل الى جنسية «سوية» و«راشدة»، ان تتخلى عن البظر وأن تلتفت نحو المهبل . وهنا هو الاحراج. فواجب المرأة جلي واضح : ان عليها ان تحوّل جنسيتها من البظر الى المهبل ، وهو انتقال صعب كان فرويد يتوقع أن تتيه اثناءه العديد من النعاج . وحتى في حال فلاحهن ، فان هذا المشروع سيلتهم كمية كبيرة من الطاقة تقودهن حتما الى الركود الفكري . اذن ، فدونية المرأة العقلية ، التي كان فرويد مقتنعا بها اقتناعا مريحا له للغاية ، تعود في خاتمة المطاف الى اسباب بيولوجية . وعلى حد افتراضه ، فان المرأة الشابة السوية التكوين تقضي الشطر الاعظم من وجودها ، من حين اكتشاف الاستمناء البظري الذي يتوقف ، كما يزعم فرويد ، في اللحظة التي تلاحظ فيها البنت الصغيرة خصاءها والتي تشرع فيها شهوة القضيب بالتطور فتكف في نفسها كل نشاط جنسي ، الى حين فض البكارة والولوج اثناء الجماع الاول ، تقضي هذا الشطر الاعظم من حياتها في اليمبوس الجنسي (٣٦) . وهذه السيرورة

---

٣٥ ـ هي المساجلة التي تشغل علماء النفس والجنس في اميركا ، وكذلك نصيرات حركة تحرر المرأة ، حول طريق المرأة الى اللذة الجنسية : أبواسطة البظر ام المهبل ام الاثنين معا ؟ «م»

٣٦ ـ اليمبوس في اللاهوت المسيحي : المكان الذي تقيم فيه ارواح الاطفال الذين يموتون قبل العماد ، فلا هو بالنعيم ولا هو بالجحيم ، لا يلقى فيه الاطفال عذابا ، ولكنهم لا يسعدون بمعاينة الله . «م»

تسمح بالحصول على ما كان على الدوام مرغوبا فيه للغاية في نظر نظام ابوي شهواني وخليعَ : عذراء لا جنس لها البتة في نظره . وعلى الرغم من ان فرويد اتى احيانا بذكر العواقب الوخيمة للاخلاق الرسمية ، لكنه لم ينقض قط بصورة جديـة اساس الاسرة الابوية ، ولا كذلك ضرورة ــ وهي ضرورة مؤسفة احيانا، ولكنها دوما مغرية ــ الحفاظ على عفة النساء الشابات وركونهن الى اللافعالية الجنسية . وفرويد ، داعية السلبية فيما يتعلق بالتفتح الجنسي المؤنث ، لا يتوانى بين الحين والآخر عن وصف مفاتن انوثة باردة او نرجسية نسبيا ، بلغة قريبة من لغـة القدامى . ومن الواضح ان ما يرتكز اليه وما يأخذه في اعتباره هو الموقف والشهية المذكران . ويذهب بنا الفكر هنا الى النادرة التي يرويها رايش عن ذلك السيد من القرن التاسع عشر الذي اشمأز من حمية زوجته فقرعها بالقول : «ان السيدة التي تحترم نفسها لا ترهز» .

ان ثلاث عقبات تنتصب امام تطور المرأة بموجب المصطلحات الفرويدية : التحول من منطقة الى اخرى (من البظر الى المهبل)، واستبدال الموضوع الجنسي الاول (الام) بالثاني (الاب) ، وشهوة القضيب الخالدة . فاذا ما حدث للمرأة ان استغرقت في «النكوص المرضي» (أي آثرت الحفاظ على الاثـارة البظرية) ، فليس في ذلك ما يوجب الدهشة ، نظرا الى عدد الافخاخ التي تحيط بها من كل جانب . وبالمقارنة، فان البرنامج المذكر ــ تحويل حبه من امه الى امرأة اخرى ــ سيرورة بسيطـة وغير مؤلمة . ويملك فرويد نظاما شبه كامل من الردود لتسوية حالات «عـدم التكيف» المؤنث مع المجتمع المذكر الذي تقطن فيه النساء : فهناك على الدوام عقبة أسيء اجتيازها . وكل احتجاج هو عراك باطل ضد طبيعة المرأة وهويتها بالذات ، عقدة ذكورة ، البرهان على ان شهوة القضيب تتأكلها ، او عرض من أعراض عدم النضوج . وكل

نشاط آخر غير النشاط الجنسي (او بالاحرى غير النشاط التناسلي والامومي) مشتبه به تعريفا ، لانه يعود في اصله الى شهوة القضيب او عقدة الذكورة . وبما ان «الطبيعة المؤنثة» تقتضي ، كي تتفتح ، النكوص عن كل مشروع «مذكر» او فكري، فليس يليق بالمرأة ان تسلك هذا الدرب ؛ ولو سلكته لقدمت بذلك الدليل على عدم التكيف العصابي .

فضلا عن ذلك ، ليست نية فرويد ان يحصر المرأة ضمن نطاق النشاطات الجنسية التناسلية فحسب ، بل ان يقنعها ايضا بوجوب ارتضائها بمستوى ثقافي قليل الارتفاع لانه المستوى الوحيد المتاح لها . والحال ان مؤاخذتها على «عقدتها الذكورية» لن تكون ، من هذا المنظور ، ضمانة كافية . يتساءل فرويد : أليست المسؤولية الجسيمة التي تقع على عاتق النساء حيال العرق هي التي لا تترك لهن القدر الكافي من الطاقة للالتفات نحو اهداف اعلى واسمى ؟ وهذا تفسير يوافق المحافظين ويريحهم لانه في الوقت الذي يتظاهر فيه بأنه يحيي الامومة ويشيد بها يحصر المرأة ضمن حدود وجود بيولوجي بحت .

مهما بدا هذا الحل باعثا على الرضى ، فانه ليس بكذلك بما فيه الكفاية بعد . ففرويد يخلص الى الاستنتاج في نهاية المطاف، بانفراج ظاهر ، بأنه من الواجب البحث عن الجواب ، هذه المرة ايضا ، في التكوين العضوي الذي قد يبدو حجة بالية ولكنها لا تقبل دحضا . لقد اسهمت النساء قليلا في الحضارة ؛ ويترتب على ذلك انهن عاجزات عن فعل ذلك . اذ ان الحضارة، تبنى بوساطة التصعيد ، و«النساء ، حارسات العرق الحقيقيات ، ليس لهن الا قدرة محدودة على التصعيد» (٣٧) . ناهيك عن

---

٣٧ ـ «الاخلاق الجنسية المتحضرة» ، ص ٧٨ . وبالمناسبة ، ان هذه القصة عن «حارسات العرق» العاجزات عن تصعيد غريزتهن الجنسية لغريبة ومثيرة =

ذلك ، وكما سبقت لفرويد الاشارة ، فان المرأة ، غير المطالَبة خلافا للرجل بأن تخفي وتتجاوز عقدتها الاوديبية خوف الخصاء (فقد خصيت سابقا وما عاد ممكنا ان يحدث لها شيء أسوأ مما حدث) ، لا تتوصل الى تطوير انا اعلى كاف . اما الرجل فيساهم في الحضارة بتصعيده نفسه وبتطويره أنا اعلى قويا ، يحثه على ذلك خوف الخصاء وخشية فقدان القضيب الـــذي يملكه . ان المرأة، التي ليس عندها قضيب والتي لا تخشى بالتالي ان تفقده، لها أنا اعلى أقل قوة بكثير من الانا الاعلى لشريكها المذكر . ولهذا تفتقد ، كما يزعم فرويد ، الى الحس الاخلاقي ، وأخلاقيتها أقل تشددا ، وتطلبها للعدالة اوهى ، وهي تخضع بسهولة لضرورات الحياة ، وتترك عاطفيتها تؤثر على حكمها ، ولا تقدم شيئـــا للثقافة . وهنا ايضا تتأتى دونيتها ــ الواقعية هذه المرة ، لا الوهمية كما في عهد طفولتها ــ من كونها لا تملك قضيبا . ولو كان لديها قضيب لكان امكنها ادراك مستوى اخلاقي اعلـــى والاسهام في التقدم الانساني والفنون والحضارة . زبدة القول : ان البنات الصغيرات اللائي يؤمنّ بتفوق القضيب محقات تماما، اذا ما اخذنا بـ «براهين» فرويد .

يقال لنا ان الرجل يبدع الحضارة بالتصعيد ، أو بـ«العزوف عن دافع جنسي غريزي» اذا شئنا استخدام تعبير فرويدي أكثر باطنية . وهذه نتيجة تعجز المرأة عن ادراكها بحكم تاريخهـــا السيكولوجي وتكوينها الفيزيولوجي ، وذلك لافتقارها الـــى القضيب . وبهذا الخصوص ، يطلعنا فرويد على فكرة تلقى لدينا

= للعجب اذا تذكرنا ان ليس للنساء ، في نظر فرويد ، على كل حال سوى نزر يسير للغاية من الفريزة الجنسية للتصعيد . والطريقة التي يوحي بها لتلبية حاجاتهن المحدودة للغاية هي ، كما يمكننا ان نتوقع ، الامومة .

الترحيب الشديد وتقدم مثالا ممتعا على الكيفية التي يعمل بها فكره المنطقي ، مع بيانها لنا في الوقت نفسه مدى المغالاة التي يمكن ان تقوده اليها حميته التي لا تتزعزع في تمجيد العضو الذكر النفيس نفاسة لا تقدر بثمن . ففي معرض تساؤله عن كيفية اكتشاف الرجل للنار ، يخلص الى الاستنتاج بأن هذا الاكتشاف جاء نتيجة للعزوف عن «الدافع الغريزي» الذي كان يحضه على اطفائها بالبول فوقها . ويجب ان يكون واضحا للجميع ان المرأة ما كانت تستطيع ان تكتشف النار لانها ، بالنظر الى افتقادها الى العضو الوحيد الذي يسمح لها بالتبويل عن بعد ، ما كانت تسنح لها الفرصة لمقاومة ذلك الدافع الغريزي . وذلك هو الدليل ، المبين كماء النبع ، على ان المرأة عاجزة ، بحكم تكوينها التشريحي ، عن الاسهام في تقدم المعارف .

ان فرويد ، في الوقت الذي يواصل فيه ملاعبة الفكرة القائلة ان مسؤوليات المرأة البيولوجية تجاه العرق قد أعاقت تطور عقلها ، يخطو خطوة اخرى نحو موقف اكثر سلبية : فعلاوة على عجزها الفطري والسيكولوجي ، حكم عليها «دورها الجنسي» والوظيفة التي تحددها في الحياة وفي الاسرة (يعتبر فرويد الانتقال من العشيرة البدوية الى الاسرة الابوية واحدة من كبريات مآثر الانسانية) لا بعدم الاهلية فحسب ، بل ايضا بالعداء للعقل وللثقافة العليا ، وجعلا منها جاهلة بالفطرة :

«لسوف تأخذ النساء بنصرة مصالح الاسرة والحياة الجنسية ، بينما سيفرض العمل التمديني ، الذي سيمسي اكثر فأكثر من اختصاص الرجال ، على هؤلاء الاخيرين مهام متعاظمة الصعوبة وسيرغمهم على تصعيد غرائزهم ، وهو التصعيد الذي لا تملك النساء اهلية كبيرة له . وبما ان الكائن الانساني لا يتمتع بكمية غير محدودة من الطاقة النفسية ، فانه لا يستطيع انجازا

لمهامه الا من خلال توزيع مناسب لطاقته الليبيدية . والنصيب الذي يخص به اهدافا ثقافية من تلك الطاقة انما يقتطعه بوجه خاص من النساء ومن الحياة الجنسية؛ واحتكاكه الدائب بغيره من الرجال وتبعيته الناجمة عن علاقاته بهم يدفعان به الى التقاعس عن واجباته كزوج وأب . وحين ترى المرأة نفسها وقد أقصتها متطلبات الحضارة الى المرتبة الثانية ، تقف من هذه الحضارة موقفا عدائيا» (٣٨) .

ان حكمة **قلق في الحضارة** الرزينة تحذر من التأثير الانتكاسي للمرأة المزودة بغريزة اجتماعية متخلفة عن غريزة الرجل ، والحبيسة في علاقتها الانانية بشريكها المذكر وبأسرتها اللذين تقسرها طبيعتها على بناء حياتها حولهما . ان الرجل يوظف وقته وطاقته الليبيدية في نشاطات متمدينة ؛ اما المرأة فتنزع اكثر فأكثر الى ان ترى في الحضارة غريمتها . ومع انه ليس عندها الا النزر اليسير من الغرائز الجنسية لتكبتها ، فان قدراتها على التصعيد او على العزوف ضعيفة او لا يعتد بها ؛ وبما ان هذه القدرات لا غنى عنها للحضارة ، فمن الممكن القول عن المرأة انها غير متكيفة تكوينيا مع الحياة المتحضرة ، وانه يعسر عليها بالتالي ان تتقدم ، بله أن تبقى في مستوى المجتمع الانساني . وهذه الصورة للمرأة ، المنظور اليها على انها كائن بدائي ازلا وأبدا ، شعبية للغاية في عصرنا . لكن من الممكن ايضا ان نرى مع فرويد في المرأة كائنا متوحشا نكد المزاج ، عائقا في وجه كل تقدم

---

٣٨ ـ سيغموند فرويد : «قلق في الحضارة» (الترجمة العربية ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٦١ . «م») .

اجتماعي ، نوعا من مخلوق قبلي لم يتم تمثله على النحو الواجب.

لو كان فرويد عاش في عصر آخر لكان من السهل ايجاد الاعذار له تذرعا بالتربية الابوية البالغة الصرامة التي تلقاها ، لكن كتاباته الانفذ اثرا يرجع تاريخها الى العقود الثلاثة الاولى من القرن العشرين ، في أوج الثورة الجنسية . كانت تتوفر له اذن معلومات تاريخية كافية ومناخ مناسب ليتحرر من آرائه المسبقة المذكرة . لكنه في رده على الانتقادات الموجهة اليه من قبل نصيرات حركة تحرر المرأة (وقد حوصر بتلك الانتقادات على امتداد تلك الاعوام) لم يقدم اي تنازل واكتفى بالاجابة بلهجة هازلة بأن ليس جميع الرجال نماذج مثلى للرجولة ، وبأن بعض النساء يفلحن تقريبا في الارتفاع بأنفسهن الى مستوى تلك الفضيلة المذكرة ، وان يكن ذلك غير لائق بهن وباعثا على الكدر بالنسبة اليهن . والحال انه على هذا النحو ، أو على هذا النحو تقريبا ، يسلم المدافعون عن بعض الآراء المسبقة بأنه يمكن ان يظهر بين الفلاحين ، او بين السكان الاصليين، او بين الزنوج ، هذا الفرد الاستثنائي او ذاك، لكنه الاستثناء الذي يؤكد القاعدة. وكان فرويد يرفض فتح مناقشة جادة ويلجأ الى الحشو واللغو : كان اذا ما وجه اليه اللوم على آرائه المسبقة المذكرة يرد متهما المشنعات عليه باتخاذ موقف دفاعي وبالرغبة في ان يكنّ رجالا بطموحهن الى الموضوعية . كان ظاهرا للعيان انه يعجز عن ان يتصور هذه الصفة (الموضوعية) الا على انها مذكرة . وكان راسخ اليقين لا بأن مخاصماته يخطئن اذ يقلن بالفرضية المعاكسة فحسب ، بل ايضا بأن نموذجه النظري الخاص للأنا الاعلى المؤنث الواهن **يثبت** انهن يجانبن الصواب .

ان وجهة التأثير الذي سيمارسه التحليل النفسي على السياسة الجنسية قد تحددت . وسترى النور ، من بعد فرويد، أجيال متعاقبة من مزاولي التحليل النفسي ، الذائعي الصيت منهم او السخفاء . بيد ان هذه المدرسة ستكتشف شيئا اكثر

نجعا وفاعلية حتى من شهوة القضيب : المنهج الذي يوحد بين التعريف الثقافي للذكورة والانوثة من جهة ، وبين الواقع الوراثي للطبعين الذكري والانثوي من الجهة الاخرى . فاذا ما كسيت الاسطورة القديمة عن «الطبيعة» المؤنثة بالمصطلحات شبه العلمية المناسبة ـ «سلبية» ، «ليبيدو متقلص» ، «مازوخية» ، «نرجسية» ، «انا اعلى متخلف النمو» ـ اكتسبت جدارة جديرة بالاحترام . ويغدو من الممكن الان التوكيد علميا بأن النساء خاضعات بطبيعتهن ، بينما الرجال سائدون ومهيمنون ، وأقوى جنسيا ، وبالتالي اصحاب حق في اخضاع المرأة جنسيا ، المرأة التي تحب اضطهادها وتستأهله ، لانها تافهة تكوينيا ، بلهاء ، لم تكد تخرج بعد من طور الهمجية ، حتى وان استحقت اسم الكائن الانساني . ومن اللحظة التي يتبرج فيها هذا النفاق بخاتم العلم، يغدو في مستطاع الثورة المضادة ان تتابع شق طريقها بطمأنينة . فالجنس ، كالعرق ، شيء لا يملك له المرء تبديلا . واذا ما ادركت امرأة ما فضائل الزمرة السائدة فطمحت وتطلعت الى الافلات من نطاق طبقتها المغلقة ، فذلك دليل ذكاء عندها . غير ان المحاولة باطلة ولا طائل فيها . وهذه الرغبة لا يمكن ان تؤدي الا الى الاحباط بالنسبة الى مخلوق مغضوب عليه مثلها . زد على ذلك ان التحليل النفسي قد وعدها بالتفتح في ظل السلبية والمازوخية ، ورسم بأن المعنى الحقيقي لحياتها يكمن في الإنسال، وفيه فقط . ولنقل ايضا ان التحليل النفسي قد امكنه بين أيد مشتراة لا ان يسيء الى سمعة الثورة وأن يضطرها الى التقهقر والرجوع الى خلف فحسب ، بل ايضا ان يفتح مجالات جديدة للعمالة والتوظيف ، وأن يغني بعض الاشخاص ، وأن يبيع نفسه بالذات ، وأن يدفع بمجتمع الاستهلاك خطوة اخرى الى الامام .

فصل من كتابها «السياسة الجنسية»

الثقافة المذكرة

شولاميت فايرستون (١)

« ان تصوير العالم على انه هو العالم عملية مـن صنع الرجال ، فهم يصفونه من وجهة نظر هي وجهة نظرهم الخاصة التي يخلطون بينها وبين الحقيقة المطلقة ..»
سيمون دي بوفوار
« الجنس الثاني»

ليس للنساء بالثقافة الا صلة غير مباشرة . والبنية النفسية

---

١ ــ ولدت في كندا في نهاية الحرب العالمية الثانية ، ودرست في جامعة واشنطن ومعهد الفنون بشيكاغو ، وشاركت في تأسيس «حركة تحرير النساء»، وتحرر في مجلة نسوية متطرفة : «نوتس» . وهذه الدراسة واحد من فصول كتابها «جدل الجنس» . «م»

للجنسين تقضي بأن تكرس غالبية النساء للرجال طاقتهن الانفعالية ، بينما «يصعد الرجال» هذه الطاقة في عملهم . وعلى هذا النحو يغدو حب النساء الوقود الاساسي للآلة الثقافية (من دون ان نتكلم عن **الافكار الكبرى** المستوحاة بصورة مباشرة من بعض احاديث صباحية في غرفة النوم) .

لا تقدم النساء للثقافة الغذاء العاطفي فحسب ، بل كذلك ـ وهذه علاقة غير مباشرة مهمة اخرى ـ ملهماتها . فربة الفن كانت امرأة . وبما ان الوظيفة الانفعالية للرجال المثقفين مبطلة بعملية التصعيد ، فان هؤلاء الرجال يحولون حياتهم الى فن ، لكنهم لا يحيونها . والنساء ، مثلهن مثل المقصين من الرجال عن النشاط الثقافي ، يبقين على تماس مباشر بتجربتهن الحياتية الذاتية ، ويشكلن بالتالي مصادر للوحي والالهام .

ان مثالا مستقى من تاريخ الفن يبين لنا بجلاء ان النساء كن ينتمين بصورة اصيلة الى مضمار الثقافة . فالرجال تراودهم اثارة ايروسية ازاء الجنس الآخر . والحال ان الرسم هو من صنع الرجال ، ومن هنا صار العري عريا **نسائيا** . اما تصوير العري المذكر فلم يدرك مستوى فنيا اعلى ـ سواء أوضعنا نصب أعيننا فنانا فردا نظير ميكلانجلو ام حقبة بكاملها من تاريخ الفن كما في بلاد الاغريق في عهدها الكلاسيكي ـ الا حين كان المبدعون جنسيين مثليين .

ويدين الفن في ايامنا هذه ، وبمقدار ما يغرف من منابع خارجية ، بقسط اوفر ايضا للنساء . تخيلوا انه جرى اقصاء جميع الشخصيات النسائية من الروايات والافلام ـ بما فيها اعمال «مثقفين» من أمثال انطونيوني اوبرغمان او غودار ـ فماذا يتبقى ؟ لقد كانت النساء الموضوعة الفنية الاساسية على مر القرون الاخيرة ، وعلى الاخص في الاشكال الاكثر عمومية من الحياة الثقافية ـ تلك الاشكال الحساسة اكثر من غيرها ، كما

تشير الظواهر ، بالمشكلات التي يطرحها دخول النساء الى المجتمع . بل يمكن للمرء ان يتساءل بينه وبين نفسه ، حين يشاهد ويعيد مشاهدة اعلانات النتاج الادبي الجديد لفترة شهر واحد مثلا ، عما اذا كانت قد وجدت قط مصادر اخرى للالهام.

لكن ماذا بشأن النساء اللائي قدمن مشاركة مباشرة في الحياة الثقافية والفنية ؟ ليس عددهن بالكبير . وحين شاركن فعلا في الثقافة المذكرة ، لم يكن امامهن مناص من الرضوخ للقواعد والضوابط المذكرة . وهذا بغنى عن البيان . فقد كان عليهن ، **كما لو انهن رجال** ، ان يدخلن في مباراة مع الرجال ، في لعبة رجال ، مع تعرضهن في الوقت نفسه لضغوط تحضهن على تحقيق ذواتهن من خلال الادوار النسائية التقليدية ، وهي أدوار تعاكس الطموحات التي وضعنها نصب أعينهن . لا غرو اذن ألا يدللن الا فيما ندر على ما يدلل عليه الرجال من مهارة وبراعة في لعبة الثقافة .

وليست المسألة بالاصل مسألة كفاءة فحسب ، بل مسألة **اصالة** ايضا . فالنساء لا يملكن اي وسيلة لفهم كنه تجربتهن الحياتية الخاصة ، او وجه اختلافها عن التجربة المذكرة . وبالفعل ، ان الثقافة ، تلك الاداة التي تسمح للانسان بتصور تجربته الشخصية وبتمثلها من خلال تحويلها الى تجربة موضوعية، مشبعة بالاحكام المسبقة المذكرة الى حد لا يتاح معه للنساء اي حظ تقريبا في رؤية انفسهن فيها بالصورة التي يمكن أن يبدون فيها في نظر انفسهن بالذات . بل انهن لا يحجمن عن نفي الاشارات التي يتلقينها مباشرة من تجربتهن الذاتية وعن التنكر لها ، اذا ما تعارضت مع الافكار السائدة في الثقافة (المذكرة) .

هكذا نرى ان النساء لا يستطعن التوصل الى تكوين صورة اصيلة عن واقعهن الذاتي بسبب القواعد والضوابط الثقافية التي يضعها الرجال والتي لا تترك من مكان ــ وكأنها سد عظيم ــ الا

لوجهة النظر المذكرة . فلماذا نراهن ، على سبيل المثال ، حساسات بالتصوير الخلاعي للجسم النسائي ؟ فلئن كانت رؤية العري المؤنث (في مشلح قاعة التمارين الرياضية على سبيل المثال) قمينة عادة باثارة الاهتمام ـ بقدر ما يتطابق ذلك العري ، في أغلب الظن ، مع المعيار الجنسي المذكر ـ فانها لا تترك فيهن اي مفعول ايروسي . وتشويه الثقافة للجنسية يفسر ايضا لماذا ينتهي الامر بالجنسية المؤنثة الى ان تصير ضربا من النرجسية . فالنساء يضاجعن انفسهن **بوساطة الرجل** ، بدلا من ان يضاجعنه مباشرة . ويتوصل هذا السد الثقافي احيانا ، عن طريق تحديده للرجل ـ الذات وللمرأة ـ الموضوع ، الى ابطال حساسية النساء بالاشكال المذكرة ، الى حد تتأثر معه حتى ردود فعلهن الالتذاذية [٢] .

وثمة **أمثلة اخرى** على ما يترتب على **الثقافة المذكرة الخالصة من مفاعيل مشوهة** لطبيعة الرؤية النسائية [٣] . لنرجع الى تاريخ الرسم التصويري : فميول الرجل الجنسية الغيرية قد دفعت به الى تصوير العري المؤنث اكثر بكثير من العري المذكر ،

---

٢ ـ الالتذاذ : ادراك ذروة النشوة الجنسية ، اصطلاح سهل التداول نقترحه كمقابل لما درج عليه بعضهم من ترجمة حرفية لكلمة orgasm ب «اورجازم» . «م»

٣ ـ لوحظ ان عجز النساء عن تركيز الفكر على صور جنسية واحد من الاسباب الاساسية للبرودة الجنسية لدى المرأة . وقد نوه ماسترز وجونسون وألبرت ايليس وغيرهم بأهمية «التركيز الجنسي» من اجل وصول النساء الباردات الى الالتذاذ . وتعزو هيلدا اوهير بحق في «المجلة الدولية لعلم الجنس» تلك المعضلة الى ان مجتمعنا ، الذي تكثر فيه الى غير حد محرضات الغريزة المذكرة ، ينعدم فيه وجود محرضات مماثلة بالنسبة الى النساء .

والى عزو طابع اكثر جمالية اليه . وبديهي ان هذا الايثار يرتكز الى جنسية اصطناعية خلقتها التربية . لكن كان من المنتظر على الاقل أن تعمد النساء الفنانات اللائي ما زلن مولعات بتقاليد تصوير العري الى اختيار نماذجهن وفق الحكم المسبق المعاكس . بيد انهن لم يفعلن شيئا من ذلك . ففي جميع مدارس الفنون في جميع أرجاء البلاد نشاهد صفوفا بكاملها من الفتيات يعملن بمثابرة ومواظبة في تصوير النموذج المؤنث ويعترفن بأن النموذج المذكر اقل جمالية ، وبأن اكثر ما يمكن ان ينطوي هو قدر من الجدة . وعلى كل الاحوال ، لا يتساءلن ابدا لماذا يضع ساترا للعورة ، في حين لا يخطر البتة ببال النموذج المؤنث ان يحمل مثل ذلك الساتر .

وحين نقلب الطرف في اعمال نساء رسامات شهيرات اقترنت اسماؤهن بالمدرسة الانطباعية في القرن التاسع عشر ، من أمثال بيرت موريزو وماري كاسات ، تستحوذ علينا الدهشة من تصويرهن الحصري لمواضيع نسائية تقليدية : نساء ، اطفال ، عري مؤنث ، بيتيات ، الخ .. والشروط السياسية لذلك العصر تقدم لهذه الظاهرة تفسيرا جزئيا : فقد كانت تتوفر للنساء منذ ذلك الزمن فرص كثيرة ، حينما يرسمن ، لرسم ما يشأن ، خلا العري المذكر . لكن ثمة اسباب أبعد غورا ايضا . فقد لبثت اولئك النسوة ، على الرغم من موهبتهن وبراعة تكويناتهن ، رسامات قاصرات لانهن اغتصبن مجموعة من التقاليد ورؤية للعالم لا تنطويان بالنسبة اليهن على اي اصالة . فقد كن يعملن ضمن الحدود التي عينها للمضمار النسائي المأثور **المذكر** : فكن يرين النساء بعيني رجل ، ويرسمن الفكرة التي يكونها الرجل لنفسه عن المرأة . ولقد مضين في هذا الطريق الى آخر الشوط، لانهن حاولن بز الرجال والتفوق عليهم في لعبتهم بالذات ، وقد سهلت عليهن الاقتناع بذلك جمالية (رائعة) ما هي بجماليتهن .

ومن هنا كان الزيف الذي يشوب اعمالهن ، اذ يضفي عليها طابعا «مؤنثا» ، اي عاطفيا ، خفيفا .

حتى يرى النور فن يكون حقا وفعلا فن النساء ، فلا بد من انكار المأثور الثقافي برمته . اذ ان المرأة التي تساهم في الثقافة (المذكرة) لا بد في آن معا ان تعمل وأن تُحاكم وفق قواعد مأثور تم انشاؤه بمعزل عنها ــ ولا يفسح بكل تأكيد اي مجال للتصورات النسائية ، حتى لو كان امكن للنساء ان يكتشفن ما يجب ان تكونه هذه التصورات . واذا ما سئمت واحدة من النساء من الخسارة في لعبة الرجال ، فحاولت ان تشارك في الفن على الطريقة **النسائية** ، قوبلت بالنبذ وعدم الفهم ، وألصقت بها من قبل المؤسسة الثقافية المذكرة تهمة «فنانة نسوانية» ، اي فنانة ثانوية ، قاصرة . وحتى اذا أقر لها النقد ، ولو آسفا ، بأنها فنانة حقيقية ، فلا محيص من التلميح ، ولو من طرف خفي ، الى ان فنها على جودته عديم الاهمية ــ الامر الذي يتيح للناقد، وبزهيد من التكاليف ، ان يدلل على «رصانته» وارهاف ذوقه .

قد يكون صحيحا ان تصوير الجانب المؤنث وحده من الاشياء ــ الجانب الذي يعكس احتجاجا طويلا وشاكيا اكثر مما يعكس وجودا مليئا ومكتملا ــ محدود ، لكن هنا ينطرح سؤال هام وغالبا ما لا يفصح عنه : هل الرؤية المؤنثة اكثر محدودية من الرؤية المذكرة التي تسود حاليا والتي تعتبر «رصينة» وقيمة وهامة ، هذا اذا لم تنزل منزلة الحقيقة المطلقة ؟ هل ماري مكارثي في **«الزمرة»** كاتبة أقل جودة من نورمان ميلر في **«الحلم الاميركي»**؟ ام لعلها تصف واقعا لا يستطيع ان يدركه ويستوعبه قادة **المؤسسة الثقافية** ونقادها ؟

اما ان الرجال والنساء مضبوطون على موجات ثقافية متفاوتة الطول ، واما انه يوجد في الواقع، بالنسبة الى الرجال والنساء، واقعان مختلفين مطلق الاختلاف ، فالشاهد على ذلك نلفاه في واحد من اكثر مظاهر ثقافتنا غثاثة : مجلات القصص المرسومة.

وهاكم تجربتي الشخصية : حينما كنت طفلة كان لدى اخـــي مجموعة من مجلات القصص المرسومة تملأ حجرة بكاملها . وكان ذوقي الادبي مغايرا تماما لذوقه ، فقد كان يحبذ النوع الدرامي ، نظير قصص الحرب و«سوبرمان» ، واذا ما اراد التفريج عن نفسه انكب على مطالعة الهزليات منها نظير **«باغس باني»** و**«تويتي»** و**«سلفستر»** و**«توم وجيري»** ، وكلهم بلهاء متلعثمون يقتضيهـم دهرا الافصاح عن فكرة بدائية . وبالرغم من ان تلك المجلات ذات القصص المرسومة كانت تصدم حساسيتي الجمالية الارهف من حساسيته ، فقد كنت أقبل على مطالعتها لعدم توفر شيء آخر لدي . لو كنت أنال بقدر ما ينال اخي من مصروف الجيب ، ولو كنت اخضع لرقابة أقل صرامة من تلك التي يخضع لها ، لكنت حبذت بلا ريب اتراع نفسي بمطالعة قصص الحب المصورة، وبين الحين والآخر **«اعترافات حقيقية»**، وعلى سبيل المطالعات الخفيفة **«آرثي وفيرونيكا»** . وكنت احب ايضا الانواع المعنة في الخيال من قصص الصبيان المرسومة : **«بلاستيك مان»** (سوبرمان لـــه ذراع من المطاط قادر على الالتفاف حول مبان بكاملهـــا) ، او مصورات **دونالد داك** المكرسة لعمه **بيكسو** ، اذ كانت الانانيـــة الجنونية التي يتمرغ بها في تبره ويتقلب بها في ذهبه تثير شديد اعجابي . (اعترفت العديد من النساء المحرومات من تطـــور شخصيتهن بأنه ساورهن ازاءه هوى مماثل يوم كن تلميذات) . لكن ربما كان من المرجح انني ما كنت لانفق نقـــودي في شراء مجلات القصص المرسومة . فحكايات الجنيات ، الاقل واقعيـــة بكثير ، كانت تحملني على جناح الخيال الى عوالم أبعد وأنأى .

كان اخي يرتئي ان البنات لا يحببن الا الاشياء العاطفيـــة ، وكنت انا ارى انه مجرد فتى فظ . فمن منا كان على حق ؟ لم يكن اي منا على خطأ ، لكنه هو الذي ربح (فجميع مجـــلات القصص المرسومة كانت تخصه هو) .

اننا نلاقي هذا التقسيم من جديد على مستويات ثقافية اكثر ارتفاعا . فقد وجدتني اكره نفسي اكراها على مطالعة مؤلفات نورمن ميلر وهيلر ودونليفي ، للاسباب عينها التي كانت جعلتني استكره مكتبة اخي ، فكتبهم ما كانت تبدو لي الا طبعات اكثر تعقيدا من **سوبرمان وباغس باني** . وبالرغم من أن مكتبة اخي «المذكرة» ظلت تبعث في نفسي نفورا ، فقد فقدت ايضا ، اثناء السيرورة التي انمت وطورت في "«الذوق السليم» (الذوق المذكر) ، حبي للمؤلفات «النسائية» . بل صرت أبغضها بغضا ، وانه ليخجلني ان أقر بأنني أؤثر الف مرة ان اموت وبين يدي كتاب لهمنغواي على ان اموت وبين يدي كتاب لفرجينيا وولف .

وللتمثيل على هذا الانشطار الثقافي بعبارات اقرب الى الموضوعية ، ليس من الضروري مهاجمة «نمور الورق» الذين يمثلون عن وعي واقعا «مذكرا» : همنغواي ، جونز ، ن. ميلر ، داريل ، الفرن ، وغيرهم . وفي ادب القرن العشرين تمثل مدرسة الرجولة الجديدة بذاتها جوابا مباشرا وردا ثقافيا مذكرا على التهديد المتعاظم الذي يتعرض له تفوق الرجال وسيادتهم : فما «شركة الرجولة المتحدة» الا عصابة من فتيان غلاظ افظاظ يحاولون انقاذ رجولتهم بضربات من قبضاتهم . وهؤلاء الكتاب ، على الرغم من الثقة الكبيرة الموضوعة فيهم ، لا يصفون التجربة المذكرة بتفهم أعمق من ذاك الذي تدلل عليه دوريس ليسنغ وسيلفيا بلاث واناييس نان بالنسبة الى التجربة المؤنثة . وفي الواقع ، انهم يركبون مركب المغالاة الى حد تفقد معه قصصهم كل مشاكلة للواقع .

سوف نمحص بالاحرى رايا مسبقا اكثر مخاتلة (لانه أقل ظهورا للعيان) لدى الكتاب الذكور الذين يحاولون بصدق واستقامة ان يصفوا الرؤية الكلية للرجل والمرأة ـ بيلو Bellow مالامود Malamoud ، ابديك Updike ، روث Roth الخ ـ والذين يخفقون في مسعاهم لانهم يصورون تلك الوحدة ،

عن غير ما وعي غالبا ، انطلاقا من وجهة نظر محدودة (مذكرة) .

هاكم قصة كتبها هربرت غولد ، وما هو بمؤلف «مذكر» لا بأسلوبه ولا بالهامه . انه شغوف بما يمس النساء ، اي بالعلاقات بين الكائنات ، وعلى الاخص بين الرجال والنساء : الزيجات ، الطلاقات ، العلاقات الغرامية. انه يصف في **ماذا حدث لخليقتك؟** العلاقة بين استاذ جامعي شاب ومرهق بالعمل وبين طالبة ذات مزاج بوهيمي .

والصورة التي يرسمها للينكا كويلا ، المرئية بنظرة مذكرة ، صورة حواسية تماما ، وحسية . تبدأ القصة على النحو التالي:

> «فتاة . فتاة مرحة ، جميلة ، لكن غامضة ، تحمل في آن معا علائم الحنو والقسوة . حين فتح مكتبه بحثا عن سجائر ، كان فيه كدسة حريرية من كيلوتات صغيرة، مطوية كالازاهير ، ملأته بالدوار وبفرح الربيع . وحين ارتدت واحدة منها ، محولة على نحو مفاجيء ذلك الزوج من التويجات النسيجية الرقيقة الى برعمين توأمين من الزهر ، بدا وكأن الشمس قد فتحت كُمَّاً كان في سبيله الى الازهرار الوئيد مع اقتراب عيد الفصح . اواه ، لقد كان بحاجة اليها ، كان يحبها ، وتكريما لهما كليهما ، سنقول الحقيقة ... كما هي» .

لكن ما يروى لنا ، اي «الحقيقة كما هي» ، ان هو الا رؤية هربرت غولد للحقيقة :

> «**ان لفي حياة كل رجل اوانا يكون متهيئا فيه للاقدام على اي شيء كان** . وفي حياة فرانك كورتيس كان ذلك الاوان قد أزف . فمحل اليأس الذي ذاق علقمه في عشرة

زوجته ، حل الرضى العميق الذي يساوره في عشرة تلك البنت الرائعة الجمال ، بل ان مسلكه في بيته بالذات راح يتحسن ، كما راح الوضع يميل الى الهدوء والسكون ، وازدهرت أحوال عمله ، وانعدمت حاجته او كادت الى النوم ، ولم يشك من الحمى المعتادة في ذلك الربيع الذي تعرف فيه الى لينكا . لم يشخرِ ولم تحمر عيناه . وتحرر تنفسه ، وثقب نظره . وصارت أوجاع الرأس الناجمة عن التعب والارهاق تتلاشى اذا ما مسته يدها ، اذا ما هبت لاستقباله ، اذا ما دلف الى شقتها من النافذة مفتر الثغر، لامع الاسنان» ...

بيد ان الحقيقة كانت مغايرة تماما ، ولا بد ، بالنسبة الى لينكا ، وان كنا لا نعثر لها على أثر حين بادرت لينكا على حين غرة (على نحو لا متوقع بالمرة) الى كتابة رسالة مطولة الى زوجة فرانك . فاذا بذلك الزواج الفاشل ، الذي شرع بالتحسن الوئيد منذ بداية العلاقة مع لينكا ، يتقوض نهائيا .

«غادرت لينكا نيويورك من دون ان تعود الى رؤياه بعد المكالمة الهاتفية الملتاعة التي تلقتها منه : «لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا سلكت ذلك المسلك ، يا لينكا ؟ الا تدركين ان ذلك يقوض كل شيء بيننا ، حتى الماضي ؟

ـ لست احرص على الذكريات . وما انتهى لم يعد له أي معنى . ما انتهى انتهى . انت ما كنت تريد الا ان تتسلق نافذتي مرة او مرتين في الاسبوع .

ـ لكن الرسالة التي كتبتها اليها .. ما كان القصد منها ؟... كيف ؟...

ـ تلك العاهرة كانت اهم مني لديك لمجرد انه كان لك منها ولد .

ـ لماذا ؟ لماذا ؟..

فأطبقت السماعة .

وأمام جهاز الهاتف هز كتفيه . في العالم قاطبة تطبق النساء السماعات من غير ان يسمعنه . كان مقطوع الخط » .

وينكفىء فرانك حائر اللب ، يسوطه الشعور بأنه خدع وغرر به ، على جراحه يضمدها . وعلى امتداد البقية الباقية من القصة نخمن حيرته والتياعه : فهو لا يفهم الدافع الذي دفعها ، «لا يفهم النساء» . وفي الختام يقلع عن محاولة ذلك ، مقرا بينه وبين نفسه بأنه كانت عندها «علائم القسوة» والحنو .

بيد ان «قسوة» لينكا تتأتى مباشرة من كونه عاجزا عن ان يرى فيها اكثر من مجرد «فتاة» (مرحة ، جميلة ، او غامضة) ، مع انها قد تكون كائنا انسانيا معقدا لا تتطابق مصلحته الشخصية مع مصلحته هو . الا ان صدق غولد في نقل الاحداث والمحاورات قد يمكن القارىء الحساس (في أرجح الظن امرأة) من ان يقرأ بين السطور ان لينكا هي التي خدعت وغرر بها . هاكم فرانك من جديد ، بعد تصرم بضع سنوات في مانهاتن :

«لقي فرانك فتاة يستطيع معها ان يقضم تفاحة عند الفجر ، ان يمتص رحيقها السكري ، ان يبادلها قبلة صداقة وادعة ، ثم ان ينقلب على جبينه ليستسلم للرقاد ... كان يشعر انه حر .. رمى بعلبة أقراص الاسبيرين. والصورة التي كان يكونها عن نفسه ، متزوجا، غليظا ، أشعث كثور متعب ، خافض الرأس ، جريح الخطم ، حلت محلها صورة اخرى : فقد صار نحيلا ،

منتصب القامة ، أيلا رشيقا . وحين تزوجت زوجته السابقة من جديد، تلاشت آخر مشاعر الذنب في نفسه. حر، حر . وأضحى يلعب مرتين في الاسبوع بالبادمنفتون مع فرنسية تتهجى قائلة : «باد ــ منغ ــ تون» .

وبعد ان عاد فرانك عازبا مرحا، اتصل هاتفيا ذات يوم بلينكا بدافع شبه لا ارادي :

«لكن بعد ان قال لها كم مضى من الزمن على وجوده في نيويورك ، ابلغته انه لا رغبة لها في معاودة رؤيته . فأجابها :

ــ لقد حقدت عليك ، انت تستطيعين ان تفهمي ذلك . وما زلت أعتقد الى اليوم انك اخطأت خطأ فادحا ، لكني على كل الاحوال عارف لك بالجميل . كان خيرا ما فعلت. فقالت :

«قد انتهى الامر» .

فيما بعد التقاها صدفة ، واكتشف انها ، وقد هد الادمان على المخدرات عافيتها ، تحترف الدعارة لحساب موسيقي اسود:

«لعلها اختلقت كذبة سخيفة (لتدعوه الى الصعود الى غرفتها) لكنها تعرفت في وجهه بريق الاحتقار ، وكانت طوال حياتها على مدى ربع قرن من الزمن لم تتعلم سوى طريقة واحدة في الرد على حكم الرجال . فالتصقت به بتعبير **اختلط فيه الخجل والوجل**، وبشبه ابتسامة اغواء، ومالت بحركة سنورية ، رشيقة ومتمرسة ، وأغمضت عينيها فيما هما تغرورقان بالدموع ، والعبرات تتأرجح على أهدابها المبللة ، تنسال على طول وجنتيها . وقالت

بتردد : «فرانك ، لم اشأ لحقبة مديدة من الزمـــــن ان أتذكر .. لست ادري ، كان كل شيء صعبا، كنت أحسب انك ، ولا بد ، غاضب جدا .. بيد انني تذكرت ... ذلك هو السبب .. سامحني ..» .

وطوقها بذراعيه ، وشدها اليه ، لكنه فعل ذلك بحرج اكثر مما فعله بحب او حنو ..

ثم ذهب به الفكر الى الرسائل التي كذبت للتـــو بصددها . وعلى حين بغتة ، وفيما كانت تهم برفع راسها لكي يقبلها ، ومضت في ذهنه فكرة في منتهى الجلاء : **انها ملوثة بالعدوى** .

وقذف به خوف جامح في ما يشبه السديم ــ خداع ، مرض ، شفقة خفية ، وحل وعقاب . ولانه لم يفهم مـــا يتخوف منه ، فقد طفق يفكر ، ولا يفعل شيئا غـــير ان يفكر : قذارة ، مكر ، قذارة متقيحة ، بثور ، قروح . ولانه ما كان يستطيع ان يتحمل العذاب الذي تشعر به ، فقد فكر : **خداع ، حيلة ، مرض** !

وتملص بنفسه قبل ان تلتقي شفاههمـــــا ، وأحس بأظافره تنزلق كالمخالب على ذراعها ، فتمزق الجلد ، ولاذ بالفرار وسمعها تنتحب امام الباب المفتوح فيما كان ينزل كرا ، مائلا على جنبه ، على الدرج الكريه الرائحة، وينطلق نحو هواء الشارع الطليق» .

الختام : فرانك يداعب زوجته الشابة التي اكتشفت انهــــا حامل ، متسائلا بينه وبين نفسه عما يمكن ان يكون قد وقـــع للينكا .

ما هذه بقصة رجال لا بموضوعها ولا بأسلوبها ، فهي تصف ما فيه الكفاية من الانفعالات لاشعار كل كاتب مذكر بالخجل .

ومع ذلك ، فانها تبقى قصة رجال من حيث زاوية الرؤية المحدودة فيها للغاية : ففرانك لا يفهم النساء . انه لا يستطيع ان يدرك من لينكا سوى شهوانيتها وجمالها . اما الاسباب التي حملتها على الكتابة الى زوجته ، ورفضها مقابلته ، ومحاولتها اغواءه – الموصوفة بحقد مشوب بشعور عارم بالذنب – فان فرانك لا يعرف كيف يتدبر امره حيال ذلك كله ، مثلما لا يستطيع ذلك اصلا الرجال في الحياة الواقعية. **(لانه ما كان يستطيع ان يتحمل العذاب الذي تشعر به : فقد فكر : خداع ، حيلة ، مرض !)** . فان يعرف المرأة فيما وراء ما هو رائع فيها امر يتجاوز طاقته . انه لا يحاكم النساء الا بالقياس اليه والى ما يمكن ان يجلبنه له ، سواء أكان جمالا ام فرحا ، حزنا ام الما . لكنه لا يطرح البتة اسئلة بصدد هذه النقطة ، ولا يخطر له ببال ان مسلكه الشخصي كان له ، او كان من الممكن ان يكون له ، تأثير حاسم .

في وسع المرء ان يتخيل قصة علاقة غرامية مغايرة تماما ، بل في وسعه ان يتخيل ان لينكا هي كاتبتها بالاعتماد على المعلومات ذاتها والمحاورات عينها . وفي مثل هذه الحال لن يبدو سلوكها لامعقولا ، بل سيكون مفهوما تماما . وبالمقابل فان الشخصية المذكرة في القصة هي التي ستبدو سطحية . بل لعلنا سنفوز بأكثر من مجرد تقرير موسوم بحكم جنسي مسبق معاكس . لعلنا سنفوز بثلاثة أرباع الحقيقة (كأن نعلم على سبيل المثال ان فرانك سطحي لانه عاجز عن ان يعيش انفعالاته) ، وذلك ما دامت النساء بوجه عام ، بحكم طول أمد الاضطهاد الذي يرزحن تحت نيره ، انفذ بصرا بالسيكولوجيا المذكرة من الرجال بالسيكولوجيا المؤنثة . لكن ذلك لا يتبدى الا فيما ندر في الادب، لان غالبية من هن على شاكلة لينكا يهد قوتهن الاستغلال الذي يعانين منه ، فيفقدن القدرة على كتابة قصصهن الذاتية بتلاحم وتماسك منطق .

ليس الفارق اذن بين الطريقة المذكرة والطريقة المؤنثة في

تناول الفن ، كما يحلو لبعضهم ان يعتقد ، مجرد فارق «أسلوبي» في كيفية معالجة الموضوع ذاته (فالاسلوب «المؤنث» الشخصي، الذاتي ، الانفعالي ، الوصفي ، يقابل بالاسلوب «المذكر» العصبي، المقتضب ، الخشن ، البارد ، الموضوعي) ، بل يرجع الى الموضوع بالذات . فالتفرقة الجنسية تقسم التجربة البشرية ، فيحيا الرجال والنساء في أنصاف متمايزة من الواقع ، وتأتي الثقافة لتكون انعكاسا لذلك .

لقد استطاع عدد قليل فقط من الفنانين ان يتغلبوا على هذا الانقسام في عملهم. وان المرء ليتساءل الى اي حد كان الجنسيون المثليون على صواب . بيد ان الفنانين الكبار اذا لم يصبحوا خنثويين في تعبيرهم الجسماني ، اضحوا كذلك في ذهنيتهم . ففي القرن العشرين تماهى كتاب من مستوى بروست وجويس وكافكا ، على سبيل المثال ، مع المرأة جسمانيا (بروست) ، او تجاوزوا بخيالهم وبملء ارادتهم الحد الفاصل (جويس) ، او انكفؤوا على انفسهم في عالم خيالي نادرا ما تأثر بذلك الانشطار (كافكا) . بيد ان معظم الفنانين لا يعجزون عن التغلب على ذلك الانشطار فحسب ، بل انهم **لا يعون** حتى وجود تحديد ثقافي قائم على اساس الجنس ـ وذلك لكثرة ما اعتاد الرجال والنساء معا على الاقرار بأن الواقع المذكر هو الواقع الوحيد .

وماذا عن الفنانات من النساء ؟ من المعلوم ان النساء لم يحصلن الا في القرون الاخيرة فحسب على الحق في المشاركة في انشاء الثقافة ، لكن على اساس فردي فحسب، وبشرط الانصياع للقواعد المذكرة . وعلى كل حال ، لم يكن لرؤيتهن اي طابع من الاصالة ، لان المرآة الثقافية لم توجد لهن .

لقد دفعت اسباب **سلبية** عديدة بالنساء الى تكريس انفسهن للفن . فالوفرة تخلق على الدوام هواية وولعا بالفنون لدى

المرأة ــ ومن أمثلة ذلك «السيدة الصبية» في العهد الفكتوري ومواهبها المتنوعة او الجيشا اليابانية واتقانها ضروب الفنون . وبالفعل ، لئن رمزت بطالة النساء المتزايدة بفضل تقدم الصناعة احسن ما يكون الرمز الى سعة الازواج ورخائهم المادي ، فانها تنطوي بالمقابل على محذور عملي : فلا بد من تهدئة الاستياء المؤنث اذا أريد تحاشي انفجاره . ومن جهة اخرى ، تبادر النساء احيانا الى اختيار الفن بوصفه ملجأ وملاذا . فهن ما زلن الى اليوم مبعدات عن مراكز القوة الحيوية في مضامير النشاط الانساني ، والفن واحد من آخر الشواغل التي تسمح للكائن الانساني بصون حريته والحفاظ عليها ــ اذ غالبا ما تتم مزاولته في خلوة . لكن النساء هنا ، من هذه الزاوية ، في وضع بنت البورجوازية الصغيرة التي تحاول ان تفتح مخزنا في عصر رأسمالية الشركات الكبرى .

ذلك ان النسبة المتعاظمة من النساء الفنانات قمينة بأن تزودنا بالمعلومات عن حالة الفن العامة اكثر منها عن حالة النساء انفسهن . أفينبغي ان نغتبط لاقبالهن على حرفة لن يلبث التأليل عما قريب ان يلغيها من الوجود ؟ (تماما كما ان العمل في مصلحة البريد ليس بالنسبة الى ٩٥ بالمئة من السود العاملين فيها علاقة اندماج ، بل على العكس ، فاللامرغوب فيهم يدفعون دفعا الى الوظائف التي تشيح عنها غالبية الناس ويقال لهم : «هيا ، استقروا في هذه الوظيفة ، وأطبقوا أفواهكم الى الابد !») .

ولئن لم يحافظ الفن على مكانته كمركز حيوي يجتذب اليه الموهوبين من رجال جيلنا ، فان في وسعنا ان نعزو ذلك ايضا الى الانقسام الراهن بين القطاعين المذكر والمؤنث ، كما سأحاول ان أبين ذلك في مقال تال . بيد ان الغزو الراهن للفنون من قبل النساء والجنسيين المثليين قد لا يكون اكثر من ظهور للجرذان

حول جسم قيد الاحتضار (٤) .

ان هذا الادب الجديد الذي تكتبه النساء ان لم يكن قد تمخض بعد عن فنانات عظيمات جدا ، فقد خلق بالمقابل جمهورا نسائيا. فكما ان الجمهور المذكر طلب على الدوام ، وتلقى ، فنا مذكرا يشد من أزر تصوره الخصوصي للواقع ، كذلك طالب الجمهور المؤنث بفن يشد من أزر رؤيته الخاصة للعالم . على هذا النحو رأت النور الرواية النسائية في القرن التاسع عشر ، تلك الرواية التي كانت ما تزال بدائية بنوع ما والتي افضت في عصرنا الى قصص الحب الكلية الحضور في الاشكال الشعبية من الثقافة وفي المجلات النسائية . وهذه البدايات لا تخلو بكل تأكيد من فجاجة. وهذا الفن لا يزال في غالب الاحوال أوليا ، اخرق ، فقيرا . لكن الواقع المؤنث يعرض فيه في بعض الاحيان بجلاء يضارع الجلاء الذي عرض به الواقع المذكر على الدوام ، وعلى سبيل المثال في مؤلفات آن سكستون .

من ذلك الاختمار سيولد في نهاية المطاف ــ وربما في وقت عاجل ــ فن نسائي أصيل . لكن لا يجوز لنا ان نتصور ان مثل هذا الفن «النسائي» لا بد ان يتطور بكيفية رجعية ، بوصفه البديل المقابل لمدرسة الرجولة المذكرة . بل هو سيأخذ طريقه الى النور بصورة متدرجة بالاحرى : فاستكشاف الواقع النسائي المحض خطوة ضرورية لا غنى عنها لتصحيح التشويه اللاحق بثقافة

---

٤ ــ ومع ذلك فان حضور النساء في النشاط الفني والآداب القديمة ما يزال يقابل بمحاربة عنيفة من قبل بعض الرجال الذين يعملون في هذا المضمار ، ويتناسب عنف هذه المحاربة مباشرة مع تقلقل مركزهم وعدم اطمئنانهم الى المستقبل . وهو حضور مزعزع ورقيق الحال بوجه خاص في المدارس التقليدية والمختصة بدراسة الآداب القديمة ، كما في الرسم التصويري على سبيل المثال.

موسومة بالاحكام الجنسية المسبقة . وانما يوم نكوّن عن الوجود تصورا شاملا كليا ، يغدو في مستطاعنا الكلام عن ثقافة شمولية عامة .

***

اصابُ الثقافة في مجملها ، وعلى درجات متباينة ، فساد حقيقي بفعل الاستقطاب الجنسي ، ويمكننا ان نلخص على النحو التالي شتى اشكال الفن التي تنجم عن ذلك :

١ ــ **الاحتجاج المذكر** . انه يمجد عن وعي الواقع المذكر ، ولم يظهر الى حيز الوجود الا في وقت متأخر (ويتميز أتباعه عن اولئك الذين يحسبون الرؤية المذكرة للعالم هي الواقع ذاته) . وانني لأرى في ذلك الاحتجاج ردا مباشرا على ما تشكله العلائم الاولى للضعف الطارىء على التفرقة الجنسية من خطر على سيادة الذكور وتفوقهم . انه فن رجعي بالتعريف . اما الرجال الذين قد يرتؤون انه يعبر اكمل التعبير عما يعيشونه وعما يشعرون به ، فلن يسعني الا ان أوصيهم باعادة نظر عامة في شخصيتهم .

٢ ــ **وجهة النظر المذكرة** . يخفق هذا الشكل الفني في تمثيل رؤية شاملة للعالم لانه لا يقر بأن الواقع المذكر ليس هو **الواقع** ذاته ، وانما يمثل نصفا منه فقط . والصورة التي تكونها وجهة النظر المذكرة عن الجنس الآخر (اي عن نصف البشرية) وعن سلوكه صورة زائفة : فالفنان ذاته لا يفهم دوافع النساء . وفي بعض الاحيان ، وكما في قصة فرانك ولينكا ، قد تبدو الشخصيات النسائية ، بالرغم من كل شيء ، واقعية ، اذا ما اخلص المؤلف **لكيفية** ــ ان لم يكن **لعلة** ــ مسلكهن .

لنأخذ مثالا معروفا اكثر : مثال كاترين في فيلم تروفو «**جول وجيم**» . ثمة كثيرات من نساء الاغراء والاغواء من تلك الشاكلة ، وما هن في الواقع الا نساء يرفضن القبول بعجزهن . فكاترين لا بد لها ، ما دامت تريد الحفاظ على مساواة وهمية والفوز بسلطة غير مباشرة على الرجال ، من اللجوء الى «الغموض» (ان تكون كأبي الهول) ، والى اللامتوقع (القفز على حين غرة في نهر السين) ، والى الحيلة (مضاجعة «رجال غامضين» لاذكاء نار الغيرة) . وحين تفقد في نهاية المطاف ، مثلما يفترض في كل امرأة ان تفعل ، حتى تلك السلطة اللامشروعة ، تأبى كبرياؤها التسليم بالهزيمة : فتقتل الرجل الذي كان قد حاول الافلات من اسارها ، وتقتل نفسها . لكن هنا ايضا ينزاح النقاب عن الحكم المسبق المذكر في فن يمتاز بدقة ووضوح كبيرين . فالمخرج تبنى صوفية «المرأة الغامضة» ، ولا يجشم نفسه مشقة البحث في اغوار أعمق ، بل انه لا يريد ذلك : فهو يستخدم تلك الصوفية وكأنها منبع للايروسية . ان الصورة التي تتكون لدينا عن كاترين لا تأتي الينا الا عبر غلالة .

٣ ــ **الذهنية الخنثوية المكونة فرديا** . حتى اذا تغلب فنان فرد على تحديدات التفرقة الجنسية ، يزيح فنه النقاب عن واقع شوهه ومسخه ذلك الانشطار . لنأخذ مثالا بسيطا ، مستقى هذه المرة ايضا من السينما : فعلى الرغم من ان المخرجين السويديين يدللون على استقلال ملحوظ عن الآراء المسبقة الشخصية حيال الجنس ــ فالنساء اللائي يقدمونهن لنا هن في المقام الاول كائنات انسانية ، ومن ثم فقط نساء ــ فان صورة ليف اولمان في دور «الزوجة المحبة» التي ترافق بوفاء زوجها حتى في جنونه المتزايد («**ساعة الذئب**» لبرغمان) او في تداعيه

الخلقي (**((العار))** لبرغمان) ، او كذلك حساسية لينا نيمان المتحيرة في فيلم **((انا فضولية))** لسيومان ، لا تصفان جنسية منعتقة ، بل صراعا ، لم يجد حله بعد ، بين الهوية الجنسية والهوية الانسانية .

٤ ـ **الفن النسائي** . المقصود به تطور حديث العهد لا يجوز خلطه مع الفن المذكر الحالي ، حتى وان لم يتمكن الى اليوم من اثبات قيمته وجدارته . وقد يكون بالفعل بداية وعي جديد ، بينما الموقف القديم محض تحجر او تعظم . ومن شبه المؤكد اننا سنرى في العقد القادم هذا الفن النسائي يتطور الى فن جديد وقوي ـ وربما مرتبط بالحركة النسوية الحديثة او مستوحى منها ـ يتصدى لاول مرة بأصالة وصدق للواقع الذي تحيا فيه النساء .

وفي وسعنا ايضا ان نتخيل قيام نقد نسوي يشدد اللهجة ، بغية التصحيح ، على شتى ضروب الاحكام المسبقة الجنسية التي تشوه الفن في الوقت الحاضر . بيد انه ينبغي ان نحرص عند تقييمنا للفن الذي أدرجناه في البند الثالث ـ ذلك الفن الذي لم يقترف من ذنب سوى انه يعكس الثمن الذي يتوجب على الانسانية ان تؤديه تكفيرا عن واقع منشطر ـ على توجيه سهام النقد ، لا الى الفنانين الذين يصورون عالما ناقصا ، وانما على بشاعة هذا العالم الذي يميط الفن اللثام عنه .

ان ثورة نسوية هي وحدها التي تستطيع ان تقضي قضاء مبرما على الانشقاق الجنسي الذي يتسبب في تلك الالتواءات الثقافية . وما لم تتحقق تلك الثورة ، فسيبقى «الفن الخالص» أكذوبة ـ أكذوبة مسؤولة لا عن الفن غير الاصيل الذي انتجته النساء حتى الان فحسب ، بل ايضا عن فساد الثقافة (المذكرة) في مجملها . ودمج هذا النصف من التجربة الانسانية ـ التجربة

النسائية ـ في الثقافة بغية خلق ثقافة جديدة شاملة لكلية متكاملة ليس سوى خطوة اولى وشرط مسبق ، اذ لا بد من زوال انشقاق الواقع بالذات قبل ان تتاح امكانية تحقيق ثورة ثقافية حقيقية .

الفهرس

صدر عن دار الطليعة

الثورة وتحرر المرأة	**شيلا روبتهام**
ألف باء الجنس	**د. نبيل مصباح قليلات**
المرأة اللبنانية : واقعها وقضاياها	**نجلاء نصير بشور**
شرق وغرب : رجولة وانوثة	**جورج طرابيشي**
غادة السمان بلا اجنحة	**غالي شكري**
المرأة في التراث الاشتراكي	**ماركس ، انغلز ، لينين تروتسكي ، ماوتسي تونغ**
تحرر المرأة العاملة (طبعة ثانية)	**الكسندرا كولنتاي**
مجتمع المستقبل	**اوغست بيبل**

صدر عن دار الطليعة

ضمن سلسلة «دراسات نفسية»

علم النفس في مائة عام

فلوجل

الحلم وتأويله

سيغموند فرويد

مستقبل وهم

سيغموند فرويد

قلق في الحضارة

سيغموند فرويد

التحليل النفسي والفن

سيغموند فرويد

أفكار لأزمنة الحرب والموت

سيغموند فرويد

اليسار الفرويدي : رايش ، روهايم ، ماركوز

بول روبنسون

الانسان والجنون : مذكرات طبيب إمراض عقلية

اشتيفان بنديك

التحليل النفسي للذات العربية : أنماطها السلوكية والاسطورية

د. علي زيعور

الكرامة الصوفية والاسطورة والحلم
القطاع اللاوعي في الذات العربية

د. علي زيعور

هذا الكتاب

لقد كان الديمقراطي والتقدمي من الرجال ، ونصير المرأة منهم يناضل كي ينتزع لهـــا الإقرار بأنها هي الأخرى إنسان . والحال انه لم يعد كافياً ان نعترف بأن المرأة هي الأخرى انسان، بل صار المطلوب ان نقرّ بان الرجل هو ذاته ليس انساناً ، بل مجرد مضطهِد . وإذا كان بيننا من يحتاج الى مرآة ليرى صورة نفسه على حقيقتها كمضطهِد ، فإن نصوص « قضيـــة النساء » تصلح لان تكون بديل هذه المرآة .

ولأن القضية قضية نساء ، فليس لهذا الكتاب من مؤلفين غير نساء .

دَارُ الطَّـليعَة للطِّـبَاعَة وَالنشْـر
بَـيروت

الثمن : ١٠ ل.ل
او ما يعادلها